صفحات من تاريخ مصر - ٢٤

تاريخ عمرو بن العاص

تأليف

د. حسن إبراهيم حسن

مدبولي

١٩٩٦

تاريخ عمرو بن العاص

صفحات من تاريخ مصر - ٣٤

تاريخ عمرو بن العاص

تأليف

د. حسن إبراهيم حسن

مدبولى

١٩٩٦

الكتاب
تاريخ عمرو بن العاص

الكاتب
د . حسن إبراهيم حسن

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب
ت : ٥٧٥٦٤٢١

الجمع والتنفيذ الفنى
المركز العربي
للنشر والترجمة والدعاية
ت : ٥٧٥١٨٨٤

تصميم الغلاف
محمد لطفي

سنة الإصدار
١٩٩٦

فهرست الرسالة

الكتاب الأول

عمرو بن العاص من ولادته إلى أن ولى فتح مصر

الباب الثالث: عمرو فى فتح الشام وفلسطين

الكتاب الثانى

عمرو بن العاص كزعيم من زعماء الدولة العربية

الباب الثالث: ولاية عمرو الأولى على مصر وأعماله الإدارية فيها

الكتاب الثالث

عمرو بن العاص

منذ اعتزل ولاية مصر إلى أن مات

الخرائط

١ – خريطة بلاد العرب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مبيناً بها القبائل.

٢ – فتح الشام وفلسطين.

٣ – خريطة الوجه البحرى لتوضيح الفتح الإسلامى.

٤ – الطريق من العريش إلى تنيس.

الصور الشمسية

١ – حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح.

٢ – الباب العمومى لحصن بابليون، وهو الباب الذى خرج منه المقوقس.

٣ – جزء من أطلال مدينة الفسطاط مبيناً عليه جامع عمرو وحصن بابليون والأديرة التى بينهما.

٤ – جامع عمرو بن العاص.

المقدمة ...

إلى أبناء وطني العزيز، وإلى الناطقين بالضاد، وإلى الشرقيين عامة، أتقدم بهذه الرسالة، وهي صفحة من صحائف البطولة، وتاريخ بطل من أبطال الشرق، وقائد من قواد الإسلام، لا يقل أهمية عن «نابليون» و«بسمارك» وغيرهما من قواد الغرب وساستهم، أتقدم إليهم بتاريخ رجل لو كان منبته الغرب، لما رأيتَ بين الغربيين إلا مترنماً ببسالته معجباً بشجاعته، متفاخراً بدهائه وحكيم سياسته.

ما أحوج الشرق والشرقيين إلى تخليد ذكرى أبطالهم وتدوين آثار عظمائهم ليتوارثها الخلف عن السلف، ولتظل كمرآة يقرأون فيها المثابرة وحب العمل، وكنبراس يصرع ساطع نوره ما يعلق بجفونهم من الكرى وينير شديد ضيائه لهم الطريق – ألا ترى القوم في أوروبا وأمريكا يتبادلون في أعيادهم وأفراحهم سير أبطالهم وتواريخ عظمائهم موشّاة بالذهب ومكسوة بالحرير؟

هذا ما خالج نفسي عندما جلست للتفكير في وضع رسالة أتقدم بها إلى الجامعة المصرية لنيل شهادة «الدكتوراه في الآداب»، عقب نجاحي في امتحان «الليسانس في الآداب»، فرأيتُ في عمرو بن العاص ما يصرف المؤرخ إلى تدوين ذكره وآثاره، رأيت فيه بطلاً من أبطال العرب، وصورة من صور حركة الانتقال من الوثنية إلى الإسلام، وهادياً من هداة الدين والعاملين على نشره في كثير من البلدان، ورجلاً فذاً من الرجال القليلين الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادراً، وهبه الله عقلاً راجحاً، وأنار بصيرته بنور الإسلام، قام بأعماله الجليلة بهمة لا تعرف للملل سبيلاً. تلك الهمة التي ثلت عروش القياصرة وقضت على آمال القواد العظام، وحار أمامها ذكاء مشهوري الرجال وأقطاب

السياسة، ورأيتُ له فوق ذلك صلة كبيرة بمصر والمصريين، فهو أول أمير مسلم ولى مصر بعد أن قضى على دولة الروم فيها، وأتى على الفتن والقلاقل بها، ورفع عن كاهل المصريين نير الروم وظلمهم، فكان عهده أول عهد الحضارة الإسلامية التى رفرفت على ربوع البلاد قاصيها ودانيها، فتوطدت دعائم الأمن وساد السلام، وتآلفت بحسن سياسته قلوب مختلف السكان.

ولكن لم يكن كل ذلك لينسينى عظيم المهمة وكبير المسئولية التى أثقل بها كاهلى، فالمؤرخ مسئول أمام محكمة التاريخ فى كل العصور حاضرها ومستقبلها، ثم إن وضع تاريخ رجل كعمرو يتطلب درس العصر الذى عاش فيه: وهو عصر مترامى الأطراف بعيد المدى طويل الأمد، ويستدعى الإلمام بحال الأمة العربية من قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم إلى وفاته، ثم من عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل الدولة الأموية، ليتبين ما قام به عمرو من جليل الأعمال، من اشتراكه فى غزوات النبى صلى الله عليه وسلم، وتوليته الصدقة بعمان، واشتراكه فى حروب الردة، وفتحه الشام وفلسطين ومصر وطرابلس فى عهد أبى بكر وعمر، وسياسته مع عثمان وعلى ومعاوية، ولكنى أقدمت يدفعنى حب البحث والاستطلاع، ثم ميلى لأماطة اللثام عن مسائل نسبها إلى عمرو كثير من المؤرخين، ولكنهم لم يدلوا لنا بحكمهم الصريح فيها، أو رأيهم المقنع لتطمئن له النفس ويستريح له الفؤاد، فكم تضاربت الأقوال فى نسبة حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو، وكم اختلف المؤرخون فى تدخّله فى الخلاف الذى كان بين علىّ ومعاوية، وفى صلته بالمقوقس.

ومازلت انتقل فى بطون التاريخ غائصاً فى بحار أخبار عمرو، تارة فى كتب العرب وطوراً فى كتب الفرنجة والمستشرقين، علّنى أهتدى بعد طويل البحث والتنقيب إلى شوارد من أخباره وشتات من آثاره، ولا

أزال أعمل فيها الفكر والعقل كى أجمعها فى عقد مكين، وكنت فى كل ذلك أتذرع بالصبر والتؤدة وأستعين بمواصلة الاستقراء. فعسى أن أكون قد وفيت عمراً حقه مما كاد أن تعفيه يد الدهر ويطمس معالمه كر السنين، وعسى أن أكون قد وفيت التاريخ بعض حقه بإثبات ذكر بطل من أبطاله.

ولا يفوتنى أن أسدى جزيل شكرى إلى كل من حضرات أساتذتى الأجلاء: حضرة صاحب العزة إسماعيل رأفت بك، والدكتور طه حسين، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد الخضرى بك، لما قاموا لى به من المساعدات الجليلة - وكذا إلى كل من حضرتى الأستاذين يوسف أفندى محمد، المفتش بلجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف، والشيخ محمد مختار يونس، المدرس بمدرسة البنات الثانوية بالقاهرة.

وقبل أن أختم كلمتى يجدر بى أن أذكر شيئاً يسيراً عما تؤديه الجامعة المصرية من الخدمات الجليلة للعلم والمتعلمين، وهو أمر يجهله الكثيرون من الناس، حتى أن بعضهم ليزعم أن الحصول على شهادة «الدكتوراه» أمر يسير لا يتطلب سوى الانتساب إلى كلية الآداب وكفى - وهذا غير صحيح - لأنه لو كان لهذا الزعم أثر من الصحة، لأصبح من السهل جداً الحصول على هذه الشهادة، ولما رأينا عدد الحائزين لها من القلة والندرة بهذا القدر، ذلك لأن مجرد الانتساب لا ينيل شهادة الدكتوراه، هذا إذا كان الالتحاق بالجامعة أمراً سهلاً، مع أنه لابد أن يكون الطالب حائزاً لشهادة الدراسة الثانوية قسم ثان أو ما يعادلها - فإن الطالب يتلقى آداب اللغة العربية وتاريخها، وتاريخ آداب اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، وتاريخ الأمم الإسلامية، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا وعلم وصف الشعوب، والفلسفة العربية وعلم الأخلاق، والفلسفة العامة وتاريخها، ومقارنة الآداب واللغات السامية - ولا يجوز له أن يتقدم

للامتحانات التحريرية والشفوية لإجازة «الليسانس» إلا فى نهاية السنة الثالثة بعد نجاحه فى كل هذه المواد بنسبة «ستين فى المائة» على الأقل فى السنتين الأولى والثانية.

بعدئذ يستطيع أن يختار لنفسه مبحثًا يكون موضوع رسالة يكتبها ويتقدم بها لامتحان «الدكتوراه» لو رأت الجامعة صلاحيتها لذلك مبدئيًا، وحينئذ تناقشه حسابها لجنة من أساتذة الجامعة، ينتظم فى عقدها مندوبان من قبل وزارة المعارف العمومية - ويكون قد سبق لهؤلاء الممتحنين فحصها - على مرأى من الجمهور ومسمع، وتناقشه أيضاً فى موضوعين من بين ثلاثة موضوعات فى ثلاث من المواد التى تدرس بقسم الآداب.

وينبغى أن يفهم أيضاً أن الأمر غير قاصر على سماع محاضرة الأستاذ فحسب، بل هو عكس ذلك، فما الأستاذ بمحاضرته إلا كمرشد للطالب يدله على طرق البحث والتنقيب، وذلك ما ترمى إليه الجامعة (ككل الجامعات) من تثقيف عقل الطالب وتنمية مداركه، ليستطيع كشف ما غمض من أسرار المسائل وما خفى من المعضلات. على أن ما يتلقاه الطالب بقسم الآداب بالجامعة لا يقل عما يتلقاه أى طالب آخر من الآداب فى جامعات أوروبا وأمريكا. هذه حقيقة يجب الاعتراف بها، ويجب أن لا يبخس حقها.

ولكن هل فى الجامعة المصرية أقسام نظامية غير قسم الآداب؟ وهل تدرس بها تلك العلوم الهامة الضرورية لترقية شأن مصر من فلك وطب وهندسة وسياسة وتربية واقتصاد وتشريع وكيمياء؟ وهل لها من بين متخرجيها بعوث فى مختلف الممالك المتمدينة لدراسة طرق التمدين والحضارة، وللتخصص فى العلوم الراقية لتستعين بأفرادها على نشرها فى مصر؟ كل هذه أسئلة يحسن الإجابة عليها أغنياؤنا

الكرام، أصحاب الغنى الطائل والثراء، وذوو العقل والمفكرون فى البلاد! تلك أسئلة تعقد اللسان خجلاً وتذيب القلب أسى، وتفتت الكبد حزناً وغماً. نعم سيجيبون عليها بالصمت الطويل، ولكن هاكم الجواب:

تقول جريدة «الديلى ميل» الإنجليزية فى تقويمها عن سنة ١٩١٥م ما نصه: «إن الأهمية العظمى التى يظهر أثرها فى التعليم بالولايات المتحدة إنما ترجع إلى ما يصرف عليه سنوياً من الأموال التى بلغت فى سنة ١٩١٥م «مائة مليون من الجنيهات» منها «نيف واثنان وعشرون مليوناً» تبرع بها المحسنون ومحبو العلم على جامعات كولومبيا وهارفارد وكورنل وشيكاغو وبيل وستاتفورد».

وتقول دائرة معارف «هارمزورث» فى الكلام على تاريخ حياة «توماس جى»: «كان عاملاً عند بائع كتب فى لندن، فتعلم منه أسرار المهنة، واستطاع بعد زمن أن يجمع لنفسه ثروة، فأنشأ قبل موته مستشفى فى لندن لا يزال يسمى باسمه حتى اليوم، صرف عليه ثمانية عشر ألف جنيه وسبعمائة وثلاثة وتسعين، ثم وهبه مائتى ألف جنيه؛ وهذا المستشفى فضلاً عن أن به ستمائة وسبعة وأربعين سريراً لأيواء المرضى، فأنك ترى فيه مئات من الطلبة يتلقون علم الطب والكيمياء على أشهر أساتذة العصر».

ومن قولها أيضاً فى ترجمة حياة «أندروكارنيچى» «لهذا المحسن الكبير هبات طائلة كثيرة منها: (وقف الأبطال) منه مليون من الجنيهات خصصت أرباحه لمكافأة من استطاعوا تخليص الإنسانية بعمل سام، كاختراع أو اكتشاف أو غيره فى الولايات المتحدة وكندا، ثم (وقف السلم) ومنه مليونا جنيه خصصت أرباحها لنشر التعليم والمسابقات وترقية فن الهندسة والقانون والتاريخ، ثم (اعتماد كارنيچى) وقدره مليونا جنيه لإتمام تعليم الطلبة الأسكتلنديين الذين عاقهم الفقر فى

أربع جامعات خصصت لذلك، وله هبات عديدة أخرى لا تدخل تحت حصر».

ولقد تضيق صفحات الكتاب بأجمعه دون استيعاب أسماء المحسنين فى الولايات المتحدة وانكلترا وغيرها من البلاد المتمدينة الذين نصروا العلم وعملوا على ترقيته.

وهل لا يكون من المخجل أن يوجد فى مصر جامعة واحدة لا يدرس بها شئ يذكر بجانب ما يدرس فى غيرها من الجامعات فى البلدان الأخرى، تلك الجامعات التى لا يكاد يأتى عليها حصر، والتى تغدق عليها هبات المحسنين أليس عاراً أن ينكر أغنياؤنا ما فى أموالهم للعلم والتعليم من حق معلوم؟ أليس أمراً مخزياً أن لا يحركهم ذلك المثل الحى الذى ضربته لهم تلك المحسنة الكريمة المرحومة المبرورة الأميرة فاطمة إسماعيل بتبرعها للجامعة بنصيب من حليها وأملاكها، فتراهم بعد كل ذلك يتكالبون على مالهم ويعضون عليه بالنواجذ، وينكرون العلم ويتجاهلون أمر التعليم؟

ليس بضائركم أيها الأغنياء أن تتبرعوا بالقليل من مالكم - وهو والحمد لله كثير - للجامعة فتعلوا قدرها وتعززوا شأنها، فلا يتقاعد ذوو السلطة والمناصب السامية فى الحكومة من أعضائها عن إصلاح شأنها، ويضطر القائمون فى الحكومة بأمر التعليم بالاعتراف بمركزها الأدبى ومقامها العلمى اعترافاً جدّياً، فلا تثبط همم المتخرجين فيها، ولا يقعد غيرهم عن السعى إليها، وتقوى نفوس الشبيبة المتطلعة إلى العلم.

القاهرة فى ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢

حسن إبراهيم حسن

الكتاب الأول

عمرو بن العاص من ولادته إلي أن ولي فتح مصر

الباب الأول

{ عمرو قبل أن يُسلم }

أ - قبيلة عمرو

بنو سهم:

لما كان من قصدنا أن ندرس حياة عمرو بن العاص السهمي القرشي، الذي نضع له رسالتنا لتقصى أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته وأخلاقه، لزم أن نذكر كلمة يسيرة عن عشيرته بني سهم. لأن للبيئة التي يولد فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً في نشأته وأعماله. وبالإحاطة بها يسهل استنباط الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات.

ولكن التاريخ لم يحفظ لنا لسوء الحظ شيئًا ذا غناء، وإنما هي أخبار مبعثرة ليست بذات الخطر، ولا بالتي تمثل لنا حياة هذه القبيلة تمثيلاً صحيحًا واضحًا. فكل ما نعرفه هو أن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بطن من بطون قريش، اشتهروا في الجاهلية وفي الإسلام بمناقب رفيعة، وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان في مكة، وكان لهم في إدارة شئون قريش نصيب كبير صاروا به ذوي بأس وكرم وعز وجاه وسلطان.

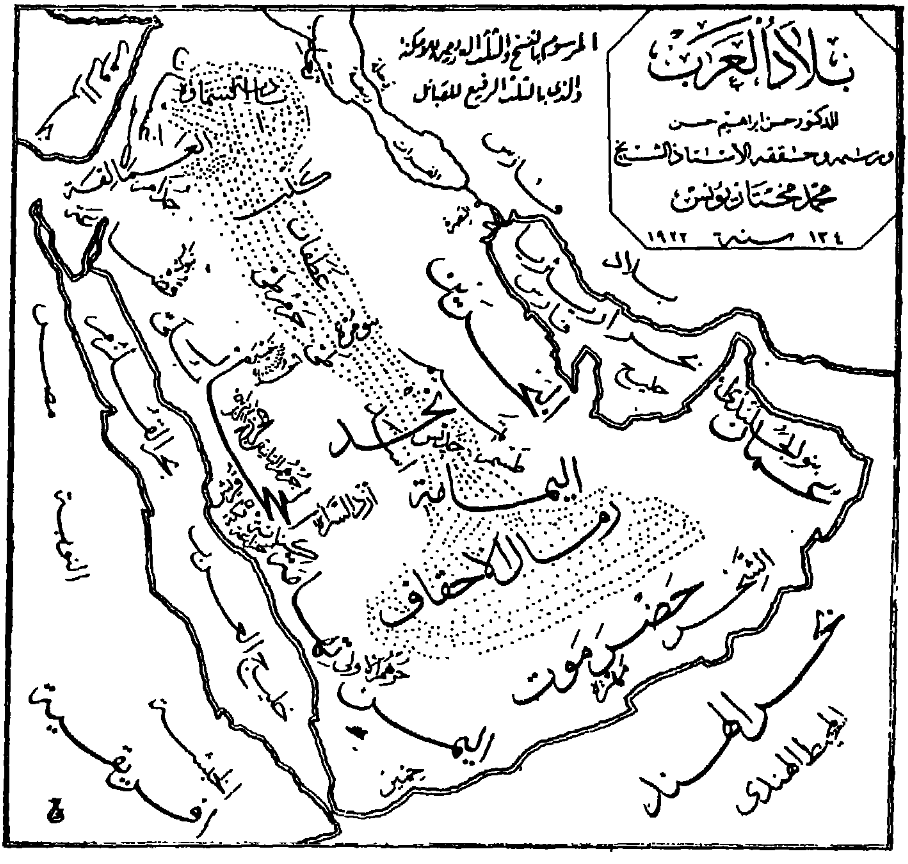
وقد ذكروا أن بني سهم كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام، ولسنا ندري حقيقة هذه الحكومة، ولكنا نعلم أن قد كانت العادة عند العرب وعند غيرهم من الأمم في عصورها الأولى أن تتقسم الأسر الكبيرة بينها الأعمال الاجتماعية. فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء. بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب إلى بني سهم، أو بعبارة أصح إلى زعماء بني سهم فيما كان يقع بينهم من الخصومات. هذا شيء يظهر أن ليس فيه من شك. فإذا عرفنا أن الذين قد اختصوا بالحكومة عند العرب في الجاهلية إنما كانوا أصحاب رأي وحلم ودهاء (وكلنا يعلم ما يروى عن أكثم بن صيفي وذي الأصبع العدواني وغيرهما من حكماء العرب). وإذا كانت الحكومة قد

بقيت محصورة فيهم زمناً طويلاً حتى كان الإسلام، فليس من شك فى أنهم قد احتفظوا بما كانت تستلزمه هذه الحكومة من عادة وخلق. ولا شك فى أنهم قد استبقوا بقدر ما استطاعوا دهاءهم وحلمهم وحزمهم بل لا شك فى أن هذا قد أصبح كأنه خلق يتوارثونه ويتناقلونه وليس من البعيد أن يكون لذلك شئ من الأثر فيما سيمتاز به عمرو من الحذق السياسى والدهاء العظيم.

وكانت لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم وهى أشبه شئ بالأوقاف العامة، ففى قبضة صاحب هذه الوظيفة الأموال المحجَّرة (كما كانوا يسمونها) يتصرف فيها على حسب ما تقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم، ولاشك فى أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الأموال. وهذا شئ قد ظهرت آثاره فى حياة عمرو كما سترى. فقد كان حسن العناية بجمع المال واستثماره. لم يقتصر فى ذلك وربما أسرف. وآية ذلك قوله لمعاوية حين سأله عما بقى مما يستلذه: مال أغرسه فأصيب من غلته وثمرته.

اشتهر بنو سهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار وغيرها من الصفات، فكان منهم قيس بن عدى الذى كان يضرب به المثل فى العز. فيقال كأنه فى العز قيس بن عدى، ومنهم من اشتهر بالكرم وقرى الضيف: وهو الحارث بن سعيد بن سهم، واشتهر نفر منهم بالشعر من أمثال عبد الله بن الزِّ بَعْرَى بن قيس بن عدى أحد شعراء قريش المعدودين، وكان من أشد الشعراء على المسلمين قبل فتح مكة.

ولا يفوتنا ما كان للعاص بن وائل أبى عمرو من السيادة والجاه والشرف فى الجاهلية (كما سيأتى) فقد كان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة. وكان تاجراً من ذوى اليسار فى مكة تجوب تجارته الشام واليمن وغيرهما من البلاد. وما كان لابنيه هشام



بلاد العرب
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
١٣٤ سنة ١٩٢٢
نجد
اليمامة
رمال الاحقاف
حضرموت
اليمن
عمان
الشحر
بحر الهند
المحيط الهندي
افريقية

الذى كان من المهاجرين الأولين واستشهد باليرموك. وعمرو ما كان لابنيه عبد الله ومحمد من الشهرة فى الأدب وإصابة الرأى. وقد اشتهر بنو سهم بإقامة دعائم العدل فى الجاهلية، وكانوا كذلك فى الإسلام، وكان أول من ولى القضاء بمصر منهم قيس بن أبى العاص بن عدى واشتهر بالشرف والثراء وقرى الضيف. وكان أول من بنى بمصر داراً للضيافة وولى القضاء بمصر أبنه عثمان بن قيس فى آخر سنة من خلافة عمر رضى الله عنه. واستمر على ذلك إلى سنة ٤٢هـ فى خلافة معاوية، ومنهم قيس وعبد الله أبنا حذافة ابن قيس بن عدى وكانا من السابقين إلى الإسلام، وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجرا إلى الحبشة. وحمل عبد الله كتاب النبى إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام.

تعلم مما تقدم أن بنى سهم اشتهروا فى الجاهلية والإسلام بالشرف والعز وفصل الخصومات والكرم وقرى الضيف واليسار والأدب والشعر والجاه وغيرها من الصفات التى أنبتت فى نفوس أبنائهم الأخلاق الفاضلة والعادات السامية. وكان لها أعظم الأثر فى تكوين أفراد أبنائهم النابهين.

وكان عمرو بن العاص أثراً من آثار قومه، ورث عن آبائه كثيراً من المواهب النادرة التى أهلته لأن يقوم بما عهد إليه من الأعمال خير قيام بما اشتهر عنه من بعد النظر والدهاء والشجاعة وعلو الهمة والفصاحة وغيرها.

لا نكران أن للبيئة التى يولد فيها الطفل ويترعرع تأثيراً كبيراً فى تكوينه[١].

---

١ - راجع خزانة الأدب جزء ٣ ص ١٠١ - ٣٠٢، الكامل للمبرد طبع باريس. والأمم والملوك لابن جرير الطبرى. الأغانى للأصفهانى طبع بولاق، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة. والإصابة فى تمييز الصحابة. وسبائك الذهب للسويدى.

ب - أسرة عمرو

(١) **العاص أبو عمرو**: هو العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب السهمى القرشى. كان من سادات العرب وأعيانهم وأشرافهم فى الجاهلية، وكان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم، اشتهر بطعنه عليه وإيذائه لأصحابه وإنكاره للدعوة الإسلامية. وهو القائل لما مات القاسم ثم عبد الله ابنا النبى عليه السلام[١]: إن محمداً ابتر. فأنزل الله فيه **﴿إن شانئك هو الأبتر﴾**: أى المقطوع عن الخير ومات بعد هجرة النبى بشهر وعمره خمس وثمانون سنة. كما رواه ابن الأثير فى تاريخه[٢].

وقد كان العاص بن وائل تاجراً فى الجاهلية ومن ذوى اليسار فى مكة، والظاهر انه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة إلى الشام، وببضائع الشام إلى اليمن. كالجلد من اليمن والطيب من الحبشة والزبيب والتين ونحوه من الشام.

واتفق ذات مرة أن ابتاع العاص سلعة من رجل من زبيد من اليمن فمطله العاص حتى عيل صبره وأعيته الحيل فعلاجبل (أبى قبيس) وقريش حول الكعبة وجعل يتظلم بشعر رقيق وهو يقول:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الحى والنفر

إن الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام كيومى لابس الغدر

١ – ذكر ابن الأثير أن العاص قال ذلك لما مات إبراهيم. وهو يخالف ماذكره ابن إسحق من أنه قالها لما مات القاسم ثم عبد الله وهذا أصح.

٢ – الكامل لابن الأثير جزء ٢ ص ٢٩.

فاجتمعت قريش، واجمعوا أمرهم على الاجتماع بدار عبد الله بن جدعان. حيث تحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم. فسمى هذا (حلف الفضول) وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذكر ياقوت فى معجمه أن سعيد بن المسيب[1] مر فى بعض أزقة مكة فسمع مغنياً يغنى من دار العاص بن وائل قصيدة منها:

تضوع مسكاً بطن نعمان إن مشت   به زينب فى نسوة عطرات

فضرب برجله الأرض وقال: هذا والله مما يلذ استماعه ومنها:

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها * وعضت بنان الكف للجمرات

وعلت بنان المسك وحفا مرجلاً * على مثل بدر لاح فى الظلمات

وقامت تراءى يوم جمع فافتنت * برؤيتها من راح من عرفات

ومن هنا نستدل على أن بنى العاص بن وائل كانوا مولعين بالطرب، محبين للأدب، ميالين لسماع رقيق الشعر ومستملحه. وقد ذكرنا فيما سبق نفراً من بنى سهم قالوا الشعر وأجادوا فيه ومن بينهم عمرو بن العاص (كما سيأتى) ولا يبعد أن يكون سعيد بن المسيب قد سمع هذه القصيدة من إحدى الجوارى فى بيت العاص أو من بعض أبنائه:

وكان للعاص من الأولاد عمرو وهشام. وكان هشام أصغر من أخيه عمرو. وأمه أم حرملة بنت هشام بن المغيرة وهى خالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) سلمى أم عمرو: سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال: سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عدى[1] أصابتها رماح

١ – ولد سعيد بن المسيب بعد خلافة عمر بسنتين. فإن كان سمع شيئًا من دار العاص فيكون بعد وفاته بأكثر من نصف قرن.

العرب فاشتراها الفاكه بن المغيره ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم أصبحت إلى العاص ابن وائل فانجبت فإن كان جعل لك شيئا فخذه.

وقد ذكر المبرد (ص ٤٧٧) في كتابه: سئل عمرو بن العاص عن أمه، ولم تكن في موضع مرضى فأتاه الرجل وهو بمصر أمير عليها فقال: أردت أن أعرف أم الأمير. فقال نعم كانت من عنزة[٢] تسمى ليلى وتلقب النابغة. اذهب وخذ ما جعل لك. وقيل له مرة آأنت أفضل أم هشام؟ فقال عمرو: إن لهشام على أربعة: أمه إبنة هشام بن المغيرة وأمي عنزية. وكان أحب إلى أبي مني وبصر الوالد بولده من قد عرفتم وأسلم قبلى واستشهد وبقيت. (كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٩٦).

وقال صاحب السيرة الحلبية (جـ١ ص٥٤): يقال أنه وطئها (أم عمرو) أربعة وهم: العاص وأبو لهب وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب، وادعى كلهم عمراً فألحقته بالعاص. وقيل لها: لم اخترت العاص؟ فقالت: لإنه كان ينفق على بناتي. وكان عمرو يعير بذلك. عيره على وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة.

وإذا صح ذلك فلا حق لهم في ذلك، ولا يؤاخذ عمرو وبما كان من أبيه واندفاعه في تيار شباب الجاهلية. ولا يلحقه العار من سبي أمه وطالما يحدث مثل هذه الأمور في الحروب، ويقع علية القوم في مخالب المحاربين حيث لا مناص من الوقوع. وكما أن أبا بكرة لم يلحقه العار بأمه سمية أم زياد، فكذلك عمرو، والإسلام يجُبُّ ما قبله.

---

١ - بنو عذرة بطن من قضاعة من القحطانية: وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة. وقد سكنت عدة عشائر من قضاعة في الأخطاط التي بين المدينة وينبع إلى الشمال في متسع من أرض الحجاز. وبلاد عذرة وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام.

٢ - بنو عنزة بطن من أسد بن ربيعة وديارهم عين التمر من برية العراق على ثلاث مراحل من الأنبار ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر فأقاموا هنالك.

جـ - ولادة عمرو

لم تتفق كلمة المؤرخين فى تحقيق ثبوت السنة التى ولد فيها عمرو، وفى سنه حين توفى. ولم يمكنهم بالطبع تحقيق الأمر الثانى، لأنه مبنى على الأمر الأول: أى سنة ولادته.

وقد روى ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) (جـ٥ ص٣) إن عمر عمرو بن العاص حين ولد عمر بن الخطاب كان سبع سنين وإنه مات بعد عمر بعشرين سنة.

وذكر ابن خلكان والواقدى، وأخرج ابن حجر عن يحيى بن بكير أن عمرو بن العاص عاش تسعين سنة. وقال العجلى إنه عمر تسعًا وتسعين سنة (الإصابة جـ٥ ص٣). وقال ابن قتيبة فى كتاب (المعارف ص٩٧) إنه مات وهو ابن ثلاث وسبعين، ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٣ أو ٥١ للهجرة[1] وإن ابنه عبد الله مات سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وإنه كان أصغر من أبيه عمرو بأثنتى عشرة سنة. أهـ.

وإذا صح ذلك فتكون ولادة عبد الله سنة ٧ق. هـ (٦١٥م) وولادة عمرو سنة ١٩ق. هـ (٦٠٢م). وتكون سن عمرو حين توفى (على ماذكره ابن قتيبة) أثنتين وستين سنة.

وقال ابن قتيبة أيضاً: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مات وهو ابن خمس وخمسين سنة. وأخرج عن الواقدى أن سن عمر بن الخطاب كانت حين حضرته الوفاة ثلاثاً وستين سنة. وعلى هذا تكون ولادة عمر سنة ٤٠ق. هـ(٥٨٢م)، وولادة عمرو سنة ٤٧ق. هـ(٥٧٥م): أى

١ - ذكر بطلر فى كتابه (ص٥٦٤) خطأ أن ابن قتيبة ذكر أن عمر مات وهو ابن إحدى وخمسين سنة. مع إنه لم يذكر هذا العدد إلا عند كلامه على وفاته فقال. وقد اختلف فى موته فقيل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٥١.

قبله بسبع سنين. فتكون سن عمرو حين توفى تسعين سنة.

ولا يمكن مع ما قدمناه الاهتداء إلى رأى قاطع لسببين:

١ - لأن سن عمر بن الخطاب حين توفى مشكوك فيها. فمن قائل إنه مات وله ٦٣سنة ومن قائل ٥٥سنة.

٢ - وكذلك فى عبد الله بن عمرو فقد ذكر ابن قتيبة إنه توفى سنة ٦٤. وذكر فى أسد الغابة (جـ٣ ص٢٣٣)، سنة ٦٣ وقيل سنة ٦٥ بمصر، وقيل سنة ٦٧ بمكة وسنة ٥٥ بالطائف وسنة ٦٨ وسنة ٦٣ مما يدل دلالة واضحة على التخبط البين فى روايات المؤرخين. بحيث لا نستطيع الجزم بأن عمرو بن العاص توفى وله تسعون سنة أو تسع وتسعون أو أكثر أو أقل.

ولم يقتصر المؤرخون على هذا. بل ذهبوا إلى أبعد منه فذكر أبو المحاسن أن عمرو بن العاص مات وله تسع وتسعون سنة وقيل مائة سنة، وذكر النووى أنه مات وسنه سبعون سنة.

وقد رجح بطلر قول النووى على غيره من الأقوال:

١ - لأنه لو مات وهو ابن تسعين سنة لكانت سنه حين فتح مصر ستا وستين سنة. أعنى أنه قد طعن فى السن. بحيث ما كان يمكنه أن يقود الجيوش إلى ساحات النصر. ويتحمل مشاق الحرب وهو فى مثل هذه السن.

٢ - ولإنه لا يتصور أن يقوم بتمثيل أدوار الحرب والسياسة فى موقعة صفين، وعند عقد التحكيم وقد ناهز الخمس وثمانين أو الاثنتين وتسعين وقد عزا هذا الترجيح إلى احتمال خطأ المؤرخين المتأخرين فى نقل لفظ (سبعين) إلى (تسعين) لما بين اللفظين من المشابهة (بطلر ص٥٤٨).

ولا ندرى لم يستبعد (بطلر) إن عمرو بن العاص فتح مصر وهو فى السادسة والستين لأن هذه السن تعوقه عن القيام بهذا الأمر. وقد شاهدنا أسماء كثيرين من القواد العظام فى الحرب الأوروبية العامة من أمثال (هندنبرج) و(مولتك) و(تربتر) و(فوش) و(جوفر) و(فرنش) وغيرهم قد خاضوا معامع هذه الحرب الطاحنة، وقادوا الجيوش الجرارة وقد ناهزت سنهم الستين؟ وهذا هو (كليمانصو) رجل فرنسا قد تولى قيادة الأمة الفرنسية كلها أثناء الحرب حتى أرسى سفينتها على ساحل السلامة. وهو شيخ تربو سنه على السبعين كثيراً، وقد رأيناه فى السنة الماضية وقد عم بياض الشيب رأسه وشاربيه وهو الآن يسيح فى بلاد الشرق الأقصى ويخطب فى النشئ فى المستعمرات الفرنسية وقد حفظ لنا التاريخ عن كثير من العرب أنهم كانوا يحاربون وهم فى أعظم من هذا السن. فإن عمرو بن معد يكرب الزبيدى كان ممن أبلى البلاء الحسن فى القادسية. وكان يحمل على الأعداء ويطعنهم بسيفه وقد ناهزت سنه المائة. ومع ذلك فقد بز الشباب حمية وبسالة وإقداماً وقوة.

وقول (بطلر) الذى يستبعد أن يفتح عمرو بن العاص مصر وهو فى سن السادسة والستين مردود عليه. لأنه إذا سلمنا بهذا القول جدلاً فإن عمراً قد فتح مصر الفتح الثانى وهو فى سن السادسة والستين أيضاً - أى قبل بلوغه السبعين بأربع سنين.

ولهذا لا نستبعد موت عمرو بن العاص وله تسعون سنة تقريباً وهى السن التى نختارها، وربما زادت أو قلت بسنة أو اثنتين.

أما قول ابن قتيبة إن عبد الله بن عمرو أصغر من أبيه بأثنتى عشرة سنة مما يزيدنا ارتياباً فى صحة هذه الرواية إذ لا يعقل مطلقاً أن تحمل أم عبد الله ولأبيه إحدى عشرة سنة تقريباً.

د - تربية عمرو

كان بيت العاص كما أسلفنا من البيوتات العالية الرفيعة العماد، وكان عمرو – ولا شك – قد شب فى حجر أبيه ونشأ مع أبناء الأشراف فى مكة الذين يترفع أباؤهم عن الدنايا فيصبغون أبناءهم بآدابهم، ويعلمونهم عالى الهمم، وجميل الخصال، لأنهم فخرهم الدائم ومجدهم الخالد. وكانت بلدهم مكة مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية. فكان يفد إليها العرب من كل صوب وحدب أيام الحج والمواسم فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض، ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف محتدهم. فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة، والقرائح الوقادة، والخصال الكريمة، والعادات السامية، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال واسمى الغايات.

وليس هناك سبيل إلى البحث عن تربية عمرو العلمية. فإن هذا النوع من التربية لم يكن موجوداً إذ ذاك. لأن العرب فى هذا الوقت لم يكن لهم بالعلوم عهد. ومع ذلك فقد كان عمرو كاتبًا قارئًا وكنا نود لو عرفنا متى وكيف تعلم ذلك ولكن المؤرخين لم يذكروا منه شيئاً. ويخيل إلينا أنه إنما كتب وقرأ بعد أن شب، وحين مارس التجارة، فما نظن أن مكة كانت فى هذا العصر تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة. إنما كان يشعر الرجل من أهلها بالحاجة إلى ذلك فيتعلمه.

وقد ذكر لنا التاريخ إن عمرو بن العاص كان يجيد الشعر. وقد روى عنه شعر كثير جيد. وإن كان الرواة لم يكادوا يتركون واحداً من الصحابة من غير أن يرووا له شعراً. واشتهر بالفصاحة والإبانة فى

القول[١] . يدلك على ذلك قوله حين شاوره معاوية فى أمر عبد الله بن هاشم بن عتبة ابن مالك بن أبى وقاص. وكان أبوه أحد فرسان على فى صفين فأشار عليه عمرو أن يقتل عبد الله فرأى معاوية العفو عنه فخرج عمرو مغضباً وكتب إليه.

أمرتك أمراً حازماً فعصيتنى * وكان من التوفيق قتل ابن هاشم

أليس أبوه يا معاوية الذى * أعان علينا يوم حز الغلاصم

فقتلنا حتى جرى من دمائنا * بصفين أمثال البحور الخضارم

وهذا ابنه والمرء يشبه عيضه * وتوشك أن تلقى به جد نادم[٢]

ولا أدل على فصاحة عمرو من السبائك الذهبية التى نظمها فى خطبه وكتبه – تلك الأقوال التى ينبعث منها الأخلاص فى العمل والسعى لترقية رعيته واستنهاض همم جنده قبيل المواقع الحربية. ولم يكن فى الوصف بأقل بلاغه منه فى الشعر فقد أقر أحد علماء الفرنجة إن وصف مصر لعمر بن الخطاب (كما سيأتى) من أكبر أيات البلاغة.

وإن نفس عمرو لتبين أجلى بيان من خلال أقواله المأثورة وحكمه البليغة.. فهى البرهان الساطع والدليل القاطع على رجاحة عقله وسمو مداركه وسرعة خاطره، وإصابة رأيه وحسن حديثه. ولندل الآن بشئ يسير من هذه الأقوال لكى تكون شاهداً على صحة ما نقول.

---

١ – هذه العبارة عن اليعقوبى (جـ٢ ص٦٢) وأبى المحاسن (جـ١ ص٧٢) وهذا ما يخالف ماوراه ابن حجر أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتلجلج فى كلامه فيقول: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد. وتروى هذه العبارة عن معاوية بن أبى سفيان. ولا معنى لها إلا أن الشخص الذى يراه قدماً عييًا هو وعمرو بن العاص ضدان لفصاحة عمرو وطلاقته وحسن بيانه مع أن خالقهما واحد، وممن سار على ذلك حضرة استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار والدكتور (بطلر).

٢ – الكامل للمبرد (ص ١٥٠).

من ذلك قوله: ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر، ولكنه الذى يعرف خير الشرين. وروى ابن عساكر عن عمرو بن العاص أنه قال يومًا لمعاوية: إن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع. فسد خصاصة (حاجة) الكريم وأقمع اللئيم.

وروى عن هشام الكلبى قال: قال معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟ قال: من كان رأيه راداً لهواه. قال: فمن أسخى الناس؟ قال: من بذل دنياه فى صلاح دينه. قال: فمن أشجع الناس؟ فقال: من رد جهله بحلمه. أهـ.

ومن غرر أقواله مارواه صاحب كتاب سراج الملوك وهو: موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة. وما رواه المبرد (ص٢٨) أن عمرو بن العاص قال لمعاوية حين وصف عبد الملك بن مروان: أخذ بثلاث. تارك لثلاث. أخذ بقلوب الرجال إذا حدَّث، وبحسن الاستماع إذا حدِّث، وبايسر الأمرين عليه إذا خولف، تارك للمراء، تارك لمقاربة اللئيم. تارك لما يعتذر منه كقوله:

فقلت له تجنب كل شئ * يعاب عليك إن الحر حر

وقوله وقد نظر على بغلة قد شمط وجهها هرمًا فقيل له: أتركب هذه وأنت أمير مصر؟ فأجاب: لا ملل عندى لدابتى ما حملتنى ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى ولا لصديقى ما حفظ سرى. إن الملل من كواذب الأخلاق. وقوله: إذا أنا أفشيت سرى إلى صديقى فأذاعه فهو فى حل، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا كنت أحق بصيانته[1].

---

١ – الكامل للمبرد (ص ٢٨).

ومن أخبار عمرو التى تدل على علمه وتعقله وبعده عن الأوهام أنه لما كان بالإسكندرية انكسف القمر فقال له رجل من القوم: لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة. فقال رجل من الصحابة: كذب عدو الله هذا هم علموا ما فى الأرض فاعلمهم ما فى السماء! فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له: إنما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون. ثم قرأ الآية: **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرضٍ تموت إن الله عليم خبير﴾**

فانظر كيف دحض عمرو حجة الرجل بهذا الدليل النقلى الذى يدل على إلمامه بأسرار كتاب الله العزيز، فبزَّ الصحابى، وأقام الدليل على أن العقل إذا نما ونضج سهل عليه الاهتداء إلى معرفة أسرار الطبيعة والوصول إلى معرفة كثير من مكنونات الكون.

والظاهر أن ممارسة عمرو التجارة من صغره، وكثرة أسفاره إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها، ومخالطته لأقوام مختلفين قد أكسبته فوائد جمة من معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية. مما كان له تأثير كبير فى تثقيف عقله وسمو مداركه وإفاده فائدة تذكر. وسيظهر من سيرته أنه لم يكن تاجراً فحسب. بل كان شاعراً وسياسياً محنكاً وقائداً ماهراً حتى عدوه من دهاة العرب وأبطالهم وذوى الرأى فيهم.

والخلاصة أنه سوف يتجلى من استقصاء أخبار عمرو أنه قد أوتى من الشجاعة والإقدام وحسن البلاء، وكذا العلم والحكمة والحزم والوفاء وثبات العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات مما لم يجتمع مثلها لمثله إلا فى القليل النادر من مشاهير الرجال، ممن أتم الله

نعمته عليهم وهداهم إلى التوفيق فى أعمالهم والفوز فى جميع فعالهم. ولهذه جميعها كان عمرو فريداً فى عصره، ونابغة بين قومه، ونابا من أنياب العرب، وليثًا من ليوثهم، ودعامة من أقوى دعائمهم. صادق العزيمة قوى الحجة. ثابت الجأش. ومن كانت هذه صفاته، وتلك أخلاقه فهو كفء للقيام بعظائم الأمور.

هـ - احتراف عمرو التجارة

من المعلوم أن تربة مكة صخرية تبعد عنها المزارع. وقد ذاعت شهرة قريش، وامتازوا على غيرهم من العرب بالنشاط، وكان لهم احترام فى نفوس غيرهم من القبائل، ومكانة لا تنكر، لأنهم ولاة الكعبة الذابون عن حياضها. الحافظون مجدها. ولكن تربة بلدهم حالت دون اشتغالهم بالزراعة. إلا أن مركز مكة الجغرافى قد ساعد قريشًا على ممارسة التجارة. فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة. فامتازوا بالنقل بين هذه البلاد. وكانت ميناء جدة التى تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة. فكانت تحمل كنوزها (الحبشة) فى جزيرة العرب إلى القطيف فى أقليم البحرين. حيث تنقل فى القوارب مع واللؤلؤ الذى كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسى إلى مصب الفرات.

وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوبًا والشام شمالاً. وكانت إبل قريش تحمل الطيب من أسواق صنعاء، ومن موانئ عمان واليمن، ومن أسواق بصرى ودمشق كان يشترى القمح والمصنوعات. لذلك كانت قريش حضرا أهل تجارة، وتجارتهم قائمة بالحجاج الذين يفدون إلى مكة من جميع الجهات فى المواسم. فكانت الكعبة مصدر أرزاق أهلها، ولولاها ما استطاعوا الحياة فى ذلك الوادى، وهو غير ذى زرع. وقد اكسبتهم أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدين فى أطراف العراق والشام، وفى بلاد الحبشة واليمن خبرة وتجربة وذكاء حتى صاروا أوسع العرب علمًا وأكثرهم خبرةً ودرايةً. لذلك بذلوا العناية القصوى فى إدارة شؤون الكعبة، وسهلوا على الناس القدوم إليها. وقد بلغ من اهتمامهم بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وكانت بلاد العرب وعرة إلا عليهم فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من

سبيل لولوج هذه الفيافى والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما، واستقلوا بتبادل سلعها، وقد كان من وراء تبادل تلك التجارة وانتشارها فى مكة ما عاد على أهلها بالأرباح الطائلة. ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم[1].

كان عمرو بن العاص أحد أبناء هؤلاء الأشراف تاجراً فى الجاهلية. والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة إلى الشام وببضائع الشام إلى اليمن كالجلد من اليمن يتجر به فى الحبشة. والطيب من هذه والزبيب والتين ونحوه من الشام. وقد ذكر الكندى أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر وهى الأدم والعطر[2] والظاهر من قول الكندى أن أنواع السلع التى كان يتجر فيها عمرو ويختلف إلى الشام والحبشة واليمن ومصر من أجلها كان أخصها الأدم والعطر. وقد عادت ممارسة التجارة على عمرو بأعظم الفوائد مادية كانت أو أدبية. فقد اكتسب شيئاً كثيراً من أسفاره المتصلة واختلاطه بأقوام على جانب عظيم من المدنية والارتقاء إذ ذاك. فتولدت فيه المواهب النادرة، ونمت وازهرت فتجلت مظاهرها فى جميع أدواره وكل فعاله، مما كان له أعظم الأثر فى مواقفه السياسية والحربية. وهذه الأسفار قد اكسبت عمراً شيئاً من الدهاء غير قليل، وضرب به المثل واخترعت فيه الروايات. من ذلك ما رواه صاحب الأغانى قال:

بعد أن مشت قريش بعمارة بن الوليد المخزومى إلى أبى طالب خرج هو وعمرو بن العاص، وكان كلاهما تاجراً إلى النجاشى مشركين وشاعرين فاتكين وهما فى جاهليتهما. وكان عمارة معجباً

---

١ - جبون جـ ٩ ص ٩٤.

٢ - كتاب القضاة والولاة (ص ٧).

بالنساء ومحادثتهن فركبا سفينة فأصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبليني. فقال لها عمرو: قبلى ابن عمك. فقبلته. وحذر عمرو على زوجه فرصدها ورصدته فجعل عمرو إذا شرب معه أقل وأرق لنفسه بالماء مخافة أن يسكر فيغلبه عمارة على أهله. وجعل عمارة يراودها عن نفسها فتمتنع. ثم أن عمراً جلس إلى جانب السفينة فدفعه عمارة فى البحر فسبح حتى أخذ بالقلس فارتفع فظهر على السفينة فقال له عمارة: أما والله لو علمت ياعمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت. فاضطغنها عمرو وعلم أنه أراد قتله. فمضيا على وجههما ذلك حتى قدما إلى أرض الحبشة ونزلاها. فكتب عمرو إلى أبيه العاص أن اخلعنى وتبرأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وجميع بنى مخزوم وذلك أنه خشى على أبيه أن يتبع بجريرته وهو يرصد لعمارة ما يرصد. فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى فى رجال من قومه إلى بنى المغيرة وغيرهم من بنى مخزوم فقال. إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر، وهما غير مأمونين على أنفسهما ولا ندرى ما يكون من أمرهما، وإنى أبرأ إليكم من عمرو ومن جريرته وقد خلعته. فقالت بنو المغيرة وبنو مخزوم. أنت تخاف عمراً على عمارة وقد خلعنا نحن عمارة وتبرأنا إليك من جريرته فخلّ بين الرجلين فقال الأسود بن المطلب: بطل والله دم عمارة بن الوليد آخر الدهر.

فلما اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمرة أن دبّ لامرأة النجاشى فادخلته فجعل إذا رجع يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره فجعل عمرو يقول: ما أصدقك أن قدرت على هذا الشأن إن المرأة أرفع من ذلك. فلما أكثر على عمرو مما كان يخبره به أراد عمرو التثبت. وكان عمارة يغيب عنه حتى يأتيه فى السحر وكان فى منزل واحد معه. وجعل عمارة يدعوه إلى الشرب فيأبى عمرو، وكان يريد أن يأتيه بشئ لا يستطيع دفعه. فقال له عمرو فى بعض ما يذكر له من أمرها: إن كنت

صادقاً فقل لها تدهنك من دهن النجاشى الذى لا يدهن به غيره، فإنى أعرفه. لو أتيتنى به لصدقتك فأتى عمارة بقارورة من دهنه فلما شمه عرفه فقال له عمرو: صدقت، لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد مثله قط من العرب، ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثل هذا ثم سكت.

بعد هذا دخل عمرو على النجاشى فقال: أيها الملك إن ابن عمى سفيه وقد خشيت أن يعرنى عندك أمره وأردت أن أعلمك شأنه حتى استثبت، وإنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر. هذا الدهن قد أعطيه ودهننى منه. فلما شم النجاشى الدهن قال: صدقت هذا دهنى الذى لا يكون إلا عند نسائى. ثم دعا بعمارة بالسواحر فنفخن فى إحليله ثم خلى سبيله فخرج هارباً (فكان الجزاء من جنس الفعل) قالوا فقال عمرو فى ذلك:

تعلم عماراً أن من شر شيمة * لمثلك أن يدعى ابن عم له ابنما
وإن كنت بردين[1] أحوى مرجلاً * فلست براء لابن عمك محرمًا
إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه * ولم ينه قلبًا غاوياً حيث يمما
قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت * إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
فليس الفتى ولو أتمت عروقه * بذى كرم إلا بان يتكرما
صحبت من الأمر الرقيق طريقه * ووليت عنى الأمر من قد تلوما
من الآن فانزع عن مطاعم جمة * وعالج أمور الموت لا تتندما.[2] اهـ

---

١ – قال الواقدى (عن الأغانى جـ٨ ص ٥٠): ان عمراً قال لعمارة: إن كنت تحب ان أصدقك بهذا أو اقبله فائتنى بثوبين أصفرين. فلما رأى النجاشى الثوبين عرفهما.

٢ – الأغانى (جـ ٨ ص٥٠) بتصرف.

و - سفر عمرو إلي مصر في الجاهلية

ذكر السيوطى فى (حسن المحاضرة جـ٢ ص٤١) أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس بتجارة فى نفر من قريش. وكان عمرو يرعى فى بعض جبالها إبله وإبل أصحابه. وكانت رعية الإبل نوبا بينهم. فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر عليه شماس، وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فأسقاه عمرو من قربة له حتى روى. ثم نام الشماس فى مكانه وكان إلى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها. فلما استيقظ الشماس وعلم بذلك أقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال له: قد أحيانى الله بك مرتين: مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية. ثم قال له الشماس: وكم ترجو أن تصيب من تجارتك؟ قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيراً فتكون لى ثلاثة أبعرة. فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى؟ فقال: مائة من الإبل. فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير. قال: تكون ألف دينار. فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد وإنما قدمت أصلى فى بيت المقدس، وأسيح فى هذه الجبال شهراً جعلت ذلك نذراً على نفسى وقد قضيت ذلك، وإنما أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله تعالى قد أحيانى بك مرتين؟ فقال له عمرو: وأين بلادك؟ قال: مصر. فى مدينة يقال لها الإسكندرية. فقال له عمرو. لا أعرفها ولم أدخلها قط[1] فقال له الشماس: لو دخلتهالعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو: تفى لى بما تقول،

---

١ - وهذا يخالف ماذكره الكندى أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر فى الجاهلية.

وعليك بذلك العهد والميثاق. فقال الشماس: نعم لك الله على بالعهد والميثاق أن أفى لك، وأن أردك إلى أصحابك. فقال له عمرو: كم يكون مكثى فى ذلك؟ قال: شهراً تنطلق معى ذاهباً عشراً وتقيم عندنا عشراً وترجع فى عشر ولك علىّ أن أحفظك ذاهباً ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا. فقال له: أنظرنى حتى أشاور أصحابى. فانطلق عمرو إلى أصحابه، وأخبرهم بخبر الشماس وما عاهده عليه، وتعاهد معهم أن يقيموا ريثما يعود إليهم وأن يشاطرهم ذلك المال على أن يصحبه رجل منهم يأنس به. فاتفقوا على ذلك، وانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية. فرأى من عمارتها وآثارها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال: مارأيت مثل مصر وكثرة ما فيها من الأموال. ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد تعجباً على تعجبه.

ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم كرة من ذهب مكاللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروه من تلك الكرة إن كل من وقعت فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس إلا كرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة. وبينما هم يتلقونها بأكمامهم رمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو. فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة. أترى هذا الأعرابى يملكنا؟ هذا لا يكون أبداً. وإن ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندرية وأعلمهم أنه أحياه مرتين وأنه قد ضمن له ألفى دينار، وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو. فانطلق عمرو وصاحبه، وبعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً وزودهما وأكرمهما الإكرام كله حتى

رجع هو إلى أصحابهما. فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالاً. فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفاً. قال عمرو: فكان هذا أول مال تأثلته. أهـ بتصرف.

والذى نراه إن هذه القصة ملفقة والتلفيق فيها ظاهر ظهوراً بيناً سنكشف الستار عنه.

ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عمرو بن العاص قد زار الإسكندرية (كما ذكر الكندى) فعرف مسالك البلاد وطرق القدوم إليها. على أن شهرة مصر وعاصمتها الإسكندرية لم تكن لتخفى على عمرو بن العاص، بعد أن فتحت أكثر مدائن الشام على يديه، ووقف بنفسه على أخبار مصر التى أخصها هجرة الألوف من المصريين إلى بلاد الشام لاضهاد الروم لهم، وقتل اليعاقبة منهم. فانتهز هذه الفتن وانشغال الروم بقمع هذه الثورات فرصة سانحة لاستيلائه على مصر.

والذى يدعو إلى العجب من هذه القصة ترامى الملوك بالكرة ووقوعها فى كم عمرو. وأن من وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم. والتاريخ لم يذكر لنا رومانيا تعين حاكمًا لمصر ينطبق عليه قول السيوطى. ومن المعلوم أن حكام مصر كانوا يعينون من قبل إمبراطور الروم مباشرة، ومن طبقة الفرسان أو من أهالى الإسكندرية الذين يتمتعون بالحقوق الرومانية المدنية وأن أباطرة الرومان حظروا على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ذوى الأنساب الدخول فى وادى النيل من غير ترخيص منهم[1]. وإذا كان كذلك فأين كان هؤلاء الملوك الذين

---

١ – ملن (ص ٣).

ذكر السيوطى إنهم كانوا يترامون بالكرة فى ذلك الاحتفال. ولم يتمكن أحد من الروم من دخول مصر. اللهم إلا إذا كان تاجراً غير مشهور، أو سائحاً لا حيثية له لزيارة هذه البلاد؟ ثم بأى لغة كان الحديث بين عمرو وبين الشماس أكان باليونانية أو القبطية، وعمرو يجهلهما، أم كان بالعربية وما كان أهل مصر يعلمونها؟ ثم كيف يعده هذا الشماس بألفى دينار، فإذا أتى إلى الإسكندرية مشى فى أهلها ليجمع هذا المال؟

الباب الثاني

عمرو منذ أسلم

إلى أن انتهت حروب الردة

أ - إسلام عمرو

وقد ذكر الطبرى سبب إسلام عمرو بن العاص قال: قال عمرو:

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإنى قد رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فإنا أن نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدى محمد، وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا لرأى. قلتُ فاجمعوا له ما نهدى إليه، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشى سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى اجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقى. أهديت لى شيئاً من بلادك؟ قلت: نعم أيها الملك قد أهديتُ لك أدمًا كثيراً ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. فغضب ثم مدّ يده فضرب به أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره: فقلت: والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله؟ فقلت: أيها الملك: أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو.

أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: قلت فتبايعنى له على الإسلام؟ قال: نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى، ثم خرجت عامداً لرسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح (بستة أشهر) وهو مقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم وان الرجل لنبى، أذهبُ والله أسلم فحتى متى؟ فقلت: والله ما جئت إلا لأسلم. فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتقدم خالد بن الوليد وأسلم وبايع. ثم دنوتُ فقلت: يا رسول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من دينى ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمرو بايع فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها ثم انصرفت. أهـ (الطبرى جـ٣ ص١٠٣ – ١٠٤).

وروى ابن عساكر فى تاريخه عن الزبير بن بكار قال: قيل لعمرو بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك؟ فقال: إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فَجّاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم، ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم. فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه، فإذا الأمر بين. فوقع فى قلبى الإسلام فعرفت قريش ذلك فى إبطائى عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم، فبعثوا إلىّ فتى منهم فقال: أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد. فقلت له: يا ابن أخى إن كنت تحبُّ أن تعلم ما عندى فموعدك الظلُّ من حِراً. فالتقينا هناك فقلت: أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك. أنحن أهدى أم فارس والروم؟ قال: اللهم بك نحن. فقلت: أفنحن أوسع معاشاً وأوسع ملكاً أم فارس والروم؟ قال:

بل فارس والروم. قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً. قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن فى الآخرة بإحسانه والمسيئ بإساءته. هذا يا ابن أخى الذى وقع فى نفسى ولا خير فى التمادى فى الباطل. أهـ.

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضى الله عنهما: لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟ فقال له عمرو: وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده! فقال عمر: صدقت. أهـ.

ومن نظر فى أمر قريش ومسلكها مع النبى صلى الله عليه وسلم عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حملة شديدة فى جهاد الإسلام فى أول الأمر، وكان انتصار النبى لا يزيدهم إلا شدة وحماسة. ولكن هذا الانتصار قد تكرر وعظم أمره فى جميع البلاد العربية، وقتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها. فأخذ الشبان وأصحاب المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم. رأوا قوةً من جهة وضعفاً من جهة أخرى. فكانوا يودون لو انضموا إلى هذه القوة الناشئة فنفعوا وانتفعوا. ولكنهم كانوا يخشون سوء رأى قومهم فيهم، وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية من جهة أخرى. فمنهم من تغلب على هذه المخاوف فذهب إلى المدينة وأسلم. ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً، حتى إذا ثبت له من غير شك أن أمر محمد ظاهر على قريش أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح. من الأولين خالد بن الوليد ومن الآخرين عمرو الذى اعتزل البلاد العربية، وذهب إلى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الأمر. فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة وبين النجاشى، وأيقن أن أمر الإسلام سينتهى بالظفر وأن سقوط مكة قريب، وإنه إن أراد أن يدخر لنفسه

مكانة بين أقرانه الذين سبقوه إلى الإسلام فليس له بد من أن يسلم طائعاً، قبل أن يسلم كارهاً.

وقد قدمنا ما كان من اعتذار عمرو حين سئل عن سبب إبطائه عن الإسلام، فزعم أنه كان يأتمُّ بسادة قريش. وليس من شك فى أن هذا الجواب إنما كان يراد به التخلص من مسألة كانت تورط من تلقى عليه، ولم يكن هذا أمر عمرو وحده، وإنما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين. ولسنا نشك فى أن عمراً حين أسلم كان وثق بأن أمر الإسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب، بل هو متجاوزها إلى غيرها وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح. ولسنا نزعم أنه إنما أسلم طلبًا لحسن المكانة فحسب، وإنما كان يطلب إلى ذلك أن ينفع المسلمين بما أوتى من قوة وحزم. وليس من شك فى إنه كان قد أعد لنفسه برنامج عمل هو الذى أنفذه حين بدأ المسلمون بالفتح. على أن الرجل لم يكد يبايع النبى صلى الله عليه وسلم حتى صحت عزيمته على أن يبذل ما ملك من قوة لرفع شأن الإسلام. ولسنا نستطيع أن نصف مقدار ما كان لعمرو من الإيمان الدينى، ولكنا نستطيع أن نجزم بأن إيمانه الوطنى وحرصه على إعلاء كلمة العرب، وبسط أعلامهم على ما جاورهم من البلاد كانا عظيمين جداً. يدلك على ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص. وكل ما سنقوله منذ الآن يبين هذا الرأى.

ب - احترام الرسول عليه السلام

مقدرة عمرو وتنصيبه قائدًا لأحد الجيوش

على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفته شئ من ذلك، ولم يرد أن يفرق بين هؤلاء الذين أسلموا بعد تردد وبين من سبقوا إلى الإسلام، وإنما علم من كثير منهم صدق النية فقربهم ومن الآخرين الخوف والريبة فأمنهم، وأراد أن ينتفع الإسلام بهم جميعاً.

روى عن عمرو أنه قال: ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى حربه منذ أسلمت. وقد وثق بصدق عزيمة عمرو ونصحه للمسلمين منذ أسلم. وكان يعلم من دهائه وذكائه ما عرفه الناس، فولاه قائداً على سرية (ذات السلاسل) وهى تلك السرية التى كانت تضم بين رجالها ثلاثة من عظماء الإسلام وأقطابه وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم. كذلك ولاه على سرية لهدم (سُواع) واستعمله على عُمان.

جـ - سرية عمرو إلي ذات السلاسل

كان النبى صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا إلى القبائل يدعوهم إلى الإسلام. وكان أخوال العاص بن وائل من بلى[1] وعذرة من أرض جذام. وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قضاعة أرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قضاعة كى يستألفهم بذلك، سيره بثلاثمائة من أشراف المهاجرين والأنصار حتى إذا كانوا على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف عمرو على من كان معه لقلتهم، فبعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستمده فأمده بأبى عبيدة بن الجراح وبمائتين من سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وزوده بالنصائح، وحذره عاقبة الاختلاف فخرج حتى قدم على عمرو.

ومما يسترعى الأنظار أنه كاد يقع ما حذر النبى صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة عاقبته، وكادت تتطاير نيران الشقاق بين عمرو وأبى عبيدة، لولا أن تلافى أبو عبيدة الشر. ذلك أن أبا عبيدة أراد أن يؤم الناس فقال عمرو: أنما قدمت علىَّ مدداً، وأنا الأمير ولا إمارة لك. فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. فتشبث عمرو برأيه واستمسك بكلمته، فتذكر أبو عبيدة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطاع له، وبذلك حسم النزاع وزال الخلاف[2].

ثم سار الجيش إلى العدو وحمل المسلمون عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فتشتت شملهم، وتمزقت جنودهم فهربوا فى البلاد وتفرقوا.

---

١ - بلىّ: قبيلة كبيرة ينسبون إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. وعذرة قبيلة تنسب إلى سعد بن قضاعة وبلادهم وراء وادى القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام (السيرة النبوية جـ٢ ص٢٩٦).

٢ - السيرة النبوية (جـ٢ ص٢٩٧)، وتاريخ ابن الأثير (جـ٢ ص١١١).

ولما هزم المسلمون الأعداء طمعوا فيهم وأرادوا أن يقتفوا أثرهم فحال عمرو بينهم وبين ما يشتهون. ثم أرادوا أن يوقدوا ناراً يصطلون عليها من البرد، فمنعهم أيضًا وأمر بأن من يفعل ذلك يقذف به فيها فشق على المسلمين ذلك، ولم يحتملوا تلك الشدة التى عاملهم بها عمرو وهى تلك الشدة التى رآها من مستلزمات الخطط الحربية التى لا غنى للقائد المدبر عنها. فلما انصرفوا شكوا منه إلى النبى صلى الله عليه وسلم. فكلمه فى ذلك فقال له عمرو قولاً يدل على كفاءته فى الحرب وبعد نظره فى عواقب الأمور: كرهت أن أذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد.

فأُعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما إعجاب وحمد رأيه(١).

---

١ – السيرة الحلبية (جـ ٣ ص ٢٧٣).

د - سرية عمرو إلي سواع

وسـواع صنم لهـذيل على ثلاثـة أمـيال مـن مكة. وكـان هـذا الصـنم على صـورة امـرأة.. يحـجون إليه ويعبدونـه على نحو ما كـان بين العـرب وبين سائر أصنامهم. فـبعث رسـول الله صلى الله عـليه وسـلم عـمـرو بن العـاص في جـمـاعـة من أصـحـابه إلى سـواع ليكسـروه. فـلمـا وصـل إلى سـواع قـال السـادن: مـا تريد؟ فـقـال عـمـرو: أمـرني رسـول الله صـلى الله عليـه وسلـم أن أهـدمـه. قـال: لا تقـدر على ذلك فـقـال عـمـرو: ولمَ؟ قـال: تمنع. فـقال له عـمـرو: حـتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك وهـل يسـمـع أو يبصـر؟ ودنا منه عمرو وكسـره وأمـر أن يهدموا بيت خـزانته فلم يجـدوا فيها شـيئاً ثم قال للسـادن: كيف رأيت؟ فـقـال: أسـلمت لله رب العـالمين(١): أهـ بإيجاز.

ولم يذكـر المؤرخـون عـدد من كـان مع عـمـرو. علـى إننا نرجح إنه كان فـي رجال لا يتـجاوزون عدد أصـابع اليـد لأنه لم يكن على هـذا الصـنم غـير السـادن. وإنما نرجح أن وجـود هـذا العدد مع عـمـرو كان لهـدم بيت خزانته.

---

١ - السيرة النبوية جـ ٢ ص ٢٧٩، وتاريخ ابن الأثير جـ٢ ص ٢٧٣.

هـ - تولية عمرو على الصدقة بعمان

لا نرى من مؤرخ أو باحث بيننا إلا وهو متفق معنا على مقدرة عمرو الحربية وتصرفه فى الأمور بحكمة وروية نادرتين. فلا غرو إذا وضع النبى صلى الله عليه وسلم ثقته فيه لكفاءته ومهارته، وأسند إليه تولية الأعمال السياسية والدينية الخطيرة. ففى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملكى عمان(١) جيفر(٢) وعباد ابنى الجلندى كتاباً مع عمرو بن العاص يدعوهما إلى الإسلام. وكان دين تلك البلدة المجوسية وهذا نصه: -

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبّاد ابنى الجلندى: سلام على من اتبع الهدى - أما بعد فإنى أدعو كما بدعاية الإسلام - أسلما تسلما. فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما. أهـ.

لم يستخدم النبى صلى الله عليه وسلم عمراً فى الحرب فحسب. بل استخدمه فى السياسة أيضًا لعلمه بدهائه وبعد نظره. فبعث به سفيراً إلى جيفر وعبّاد ملكى عمان، حتى إذا ما انتهت سفارته ونجحت دعوته وأسلم أهل عمان على يديه عينه والياً للصدقة عليها جزاء خدمته العظيمة؛ فتقلد هذه الوظيفة السامية حتى وفاة الرسول عليه السلام. ولابد أن يكون لعمرو سابق معرفة ببلاد عمان لتردده عليها قبل إسلامه، ومعرفته بأحوال أهلها وعاداتهم. فتمكن بحسن سياسته من

---

١ - عمان (بضم العين وتخفيف الميم) بلدة باليمن سميت باسم عمان بن سبأ. وأما عمان (بفتح العين وشد الميم) بلدة بالشام.

٢ - جيفر على وزن جعفر.

توطيد دعائم الإسلام فى أرجائها. وفضلاً عما كان لهذه الخدمة من الأهمية الدينية، فقد كانت لها أهمية سياسية كبيرة ليس لها إلا أمثال عمرو كما سترى.

فخرج عمرو حتى انتهى إلى عمان، حيث قابل عباداً وكان أصغر من أخيه جيفر وأحلم وأسهل خلقاً منه، فسأله عبّاد عن حاجته فأجابه عمرو: إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال: أخى المقدّم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه كى تقرأ كتابك عليه. ثم سأله عما يدعو إليه هذا الدين، وهل أسلم أبوه أم مات على غير الإسلام؟ ومتى أسلم عمرو وأين كان إسلامه؟ وما الذى يأمر به هذا الدين وينهى عنه؟ فأجابه عمرو بما اشتهر عنه من الأبانة فى القول وإقامة الحجة حتى أقنعه وأراه الحق عيانا فمال قلب عباد إلى الإسلام ورغب فيه. يدلك على ذلك قوله: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به. ولكن أخى ضنٌ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا (تابعًا) بعد أن كان متبوعًا. فقال له عمرو: إن أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقرائهم، فأعجب عباد بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أعجاب لما فى ذلك من مواساة الفقراء وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المعوزين.

أقام عمرو بباب جيفر أيامًا من غير أن يقابله وعباد يخبر أخاه بكل ما يدور بينه وبين عمرو من أطراف الحديث حتى دعاه عباد يوما ليدخل على أخيه: ولما تم لعمرو ما أراد من مقابلة جيفر أذن له هذا بالحديث فدفع إليه الكتاب مختومًا بختم النبى صلى الله عليه وسلم فقرأه ثم دفعه إلى أخيه فقرأه كذلك. وحينذاك سأله عما صنعت قريش فقال عمرو: إما راغب فى الدين وأما مقهور بالسيف وأن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك (رجالك) فأسلم تسلم فيوليك

على قـومـك وتبـقى على ملكك مـع الإسـلام، ولا تدخل عليك الخـيل والرجال، وفى هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال.

ودعـاه جـيـفـر أن يمهله يومًا ريثما يعمل فـكره ويرجع إليه فى اليوم الثانى. فلما كـان الغد عاد عمرو إلى أخيه الذى استصحبه إلى الملك فـأجـابه بـالنفى وصمم على أن لا يسلم تراث ملك آبائه وأجداده لأحد وأظهر استهانته بما تضمنه خطاب النبى صلى الله الله عليه وسلم بأنه لا يتسنى للمسلمين التغلب على بلاده مع ما هو فيه من بعد الشقة وزوده بأنه سوف يقف فى سبيل المسلمين ويبعدهم عن بلاده فهمّ عمرو بالانصراف غير أن عباداً فطن لعواقب هذا العناد فنبه أخاه ونصح له بتلبية دعوة النبى صلى الله عليه وسلم واعتناق الإسلام فأرسل إلى عمرو وأجاب للإسلام هو وأخوه، وخليا بين عمرو والصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا عونًا له على من خالفه، وأسلم معهما خلق كثير.

ظل عمرو متوليا هذا المنصب الدينى السياسى الكبير زُهاء سنتين يهدى الناس إلى الإسلام فيدخلون فى دين الله أفواجًا، وكان يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء. ولم يزل مقيمًا هناك حتى جاءه نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاه كتاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه مختومًا وفيه أن لا يحلّ عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لا يعقل عقالاً لم يعقله رسول الله. فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً، وحزن حزنًا شديداً، ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه.

و - عمرو وردة العرب

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الأمة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها، وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها. فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة، وكان من وراء ذلك ما هو معلوم. ولو كان عمرو فى المدينة إذا ذاك لما ظل ساكنا هادئاً. بل لا بد أن يكون قد دخل فى هذا الخلاف، ولعب فيه دوراً مهما وإن كان اليعقوبى قد ذكر أنه كان له ضلع فيه، فإنه لا سبيل إى تصديقه، إذ ليس من شك فى أنه كان لا يزال بعمان حتى دعاه أبو بكر. ولكنه اشترك فيما كان بين الأمة العربية فى كافة أنحاء الجزيرة عقب تولية أبى بكر. ذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب فى أن تخضع لسلطان قريش، وقد أخضعوا إما طوعًا أو كرهاً. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل إليهم أن هذا السلطان منحل، لأن بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبى. فلما تحققه شك فى الدين، وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعدما مات زعيمهم، ولأنهم كرهوا سيادة قريش التى ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، ولكى تحافظ على هذه السلطة كان لابد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها، فرفضت أكثر قبائل العرب أن تخضع لسلطان أبى بكر، وامتنعوا عن أداء الزكاة. ومازال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الأخرى، حتى تزعزع مركز الإسلام، وانكمش إلى مدن مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس).

أما عمرو بن العاص فقد أرسل فى طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فأقبل حتى قدم إلى بلاد بنى عامر، ونزل بقرة بن هبيرة، وقرة

يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى عامر فأكرم قرة مثواه ولما أراد الرحيل خلابه قرة وقال: يا هذا. إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة (الرشوة) فإن أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم[1].

ولكن ماذا صنع عمرو؟ أظهر لديه من الشهامة والشمم مالا يقوى عليه الأصناديد الرجال وليوثهم، فأجابه على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب، وينم عن الهول والثبور لكل من ناوأ الدين أو أراد به شراً أو أذى حين قال: أكفرت ياقرة؟ تخوفنا بردة العرب! فو الله لأوطئن عليك الخيل فى حفش[2] أمك، وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى المدينة. ولما قدم بقرة بن هبيرة أسيراً على أبى بكر استشهد قرة بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عمراً فسأله فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرة: مهلاً يا عمرو. فقال: كلا والله لأخبرته بجميعه. فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه[3].

أما نصيب عمرو فى قتال أهل الردة فإن أبا بكر[4] أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاعة، وكان قد حاربهم فى حياة النبى صلى الله لعيه وسلم فى غزوة «ذات السلاسل» وأصلاهم ناراً حامية، وقتل منهم مقتله عظيمة، وعاد من بقى منهم إلى الإسلام.

---

١ – تاريخ ابن الأثير جـ٢ ص ١٠٧.

٢ – الحفش بيت ينفرد فيه النفساء.

٣ – تاريخ ابن الأثير جـ ٢ ص ١٧٠ – ١٧١.

٤ – عقد أبو بكر الألوية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل والمهاجرين امية المخزومى القرشى وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وحذيفة بن محسن الغلفانى من حمير وعرفجة بن هرثمة البارقى من الأزد وشرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة ومعن بن حاجز السلمى وسويد بن مقرن من أوس والعلاء بن الحضرمى حليف بنى امية.

وكانت قضاعة قد أنست فى المسلمين الضعف بعد وفاة الرسول عليه السلام، وهم لم يسلموا رغبة فى الإسلام واهتداء بهديه. بل دخلوا فى هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف، أو طمعاً فى مال أو جاه يصيبونه. فلم يكن قد تمكن الإسلام من قلوبهم. فلما أنفذ إليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه فى الطريق الذى سلكه من قبل حتى وصل إلى بلاد قضاعة فأعمل السيف فى رقابهم، وغلبهم على أمرهم، وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع إلى الإسلام وعاد إلى أمير المؤمنين حاملاً لواء النصر والظفر.

الباب الثالث

عمرو في فتح الشام وفلسطين

أ - كتاب أبي بكر لعمرو وهو بعمان وإنقاذه الجيوش لغزو سورية وفلسطين

انتصرت قريش على العرب. فكان همُّ أبى بكر أن يشغل العرب والجيوش التى قهرتهم بالحروب الخارجية. وكانت هذه الحروب تفى بما أمر الدين من نشر الإسلام من جهة، وبما كان العرب فى حاجة إليه من الاشتغال بالأعمال الخارجية عن خلافاتهم الخاصة الداخلية. فإنه ما كادت حروب الردة الطاحنة التى شنها العرب بعضهم على بعض تنصرم، حتى وجدنا تلك الأمة الفتية تتأهب لفتح البلاد، وتمصير الأمصار. ولم تكن همة عمرو الكبيرة وعزيمته الماضية لتقف به عند هذا الحد، بل رأيناه يخوض غمارها. تارة يقود الجيوش الجرارة، وأخرى ينشر الإسلام فيدخل الناس فى دين الله ذرافات ووحدانا. فاشترك اشتراكاً فعلياً فى فتح الشام وفلسطين، وعلى يديه فتح العرب مصر.

وقد كان حكام الروم فى آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسقونهم العذاب. فتأفف من جورهم أهالى البلاد التى كانت تحت سلطانهم، ومالوا إلى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد وتغيير الحال التى أصبحوا فيها على أى شكل كان. ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم. فخامر نفوسهم شئ من اليأس. فساعد هذا تلك الأمة الطموحة مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد.

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جرّاء

الغارة التى شنها على بلادهم أسامة بن زيد. فجمع الإمبراطور (هرقل) جيشاً جراراً عسكرية على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين.

فدعا أبو بكر الصديق رضى الله عنه المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب، فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين. وكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه: إنى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كه مرة، وسماه لك أخرى، مبعثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته. وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك (الطبرى جـ٤ ص٢٨).

فكتب إليه عمرو: إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعُد الله الرامى بها والجامع لها. فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحى.

وسرعان ما أنفذ أبو بكر الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لأربعة من الأمراء هم:

١ – أبو عبيدة بن الجراح: ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية.

٢ – عمرو بن العاص: ووجهته فلسطين.

٣ – يزيد بن أبى سفيان: ووجهته دمشق.

٤ – شرحبيل بن حسنة: ووجهته وادى الأردن.

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضاً وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة. وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وعليه أن يمد الجيوش الأخرى – إذا دعت الحاجة إلى ذلك[1].

---

١ – الطبرى (جـ٤ ص٨٢)، وابن الأثير (جـ٢ ص ١٩٥). والأمير على (ص ٣٤ – ٣٦)، وإيرفنج (ص١٢) وموير (ص٦٧).


فتح الشام وفلسطين
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الأستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
طوروس
سلوقية
اسكندرونة
انطاكية
حلب
صفين
اللاذقية
قبرص
طرسوس
حماة
حمص
طرابلس الشام
بيروت
بعلبك
هي اسوتلسة
البحر الأبيض المتوسط
صيداء
صور
دمشق
عكاء
حيفا
طبرية
قيسارية
بحر الروم
يافا
اجنادين
بيت المقدس
الرملة
عسقلان
غزة هاشم
بيت لحم
رفح
العريش
بلبيس
منف
طور سيناء
بحر القلزم

ب - وصية أبي بكر لعمرو بن العاص عند مسيره إلي فلسطين

وقد آثرنا أن نقتطف من هذه الوصية البليغة بضع شذرات علنا نقف على شئ من أخلاق عمرو، وحرص أبى بكر على المسلمين، وسلوك الأمراء مع الأمم التى فتحها العرب. قال الواقدى:

دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال: قد وليتك هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهو ازن وبنى كلاب) فانصرف إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته. اتق الله فى سرك وعلانيتك واستحيه فى خلواتك فإنه يراك فى عملك. وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة، وأقدم حرمة. فكن من عمال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله. وأسلك طريق إيلياء حتى تنتهى إلى أرض فلسطين.

وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن، وإياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به. واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فأكرمهم، وأعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول: إنما ولأنى أبو بكر لأنى خيرهم. وإياك وخدائع النفس، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك. والصلاة ثم الصلاة. إذّن بها إذا دخل وقتها. واحذر من عدوك، وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم. وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم، واتق الله إذا لاقيت العدو، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك.

وإذا وعظت فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك. وإذا رأيت عدوك فاصبر، ولا تتأخر فيكون ذلك فخراً منك. والزم أصحابك قراءة

القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها. فإن ذلك يورث العداوة بينهم. وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك. وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن إذ يقول الله تعالى: **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾**.

ثم قال لعمرو: أمض بارك الله فيك وفيهم. فساروا فى تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين[1]. أهـ.

ومن أنعم النظر فى هذه الوصية التى ترجمها كثير من مؤرخى الفرنج مثل جبون وأيرفنج الفيناها آية فى البلاغة لما لها من الأهمية فى هذا الظرف. يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاولة على من معه. وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم، فيقيم بينهم ويجلس معهم. وأن يكون مثالا حسناً لمن معه فينصلح أمرهم بصلاح أمره، وأن لا يباشر عملاً حربياً إلا بعد أن يخبر عدوه، ويبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح بهم فى مهاوى التهلكة. ويرغبه فى الآخرة فإنها أفضل من دار القرار .

ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما تفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدى إلى النصر المبين.

---

١ – فتوح الشام للواقدى (جـ ١ ص ٩ – ١٠).

جـ - شروع عمرو في قتال الروم بفلسطين

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر فى وصيته التى كانت أشبه شئ بالخطة الحربية. فسار فى طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين ونزل «بغمر العربات» فلما علم (هرقل) بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوة المسلمين. وبلغ عمرو بن العاص أن مع الروم أكثر من مائة ألف مقاتل، مما أوقع الرعب فى قلوب المسلمين فعقد راية وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وضم إليه ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم وحمل بنفسه على كبيرهم وطعنه طعنةً نجلاء فخر ميتاً. فداخل الفزع والهلع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان قتالاً أسفر عن انهزام الروم فولوا الأدبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الأسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير. وقتل من المسلمين على ما رواه الواقدى (جـ ١ ص١١ – ١٢) سبعة[١]. اهـ باختصار.

عمرو بن العاص يقاتل مائة ألف[٢] من الروم

ولما لاح صباح اليوم التالى أشرفت على المسلمين عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف. فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل فى الميمنة الضحاك وفى الميسرة سعيد بن خالد وعلى الساقه أبا الدرداء. وثبت هوفى القلب ومعه أهل مكة، وأمر الناس أن يقرءوا القرآن، وجعل يحببهم فى القتال، ويرغبهم فى ثواب الله وجنته، وهم كالبنيان

---

١ – ولم يرو الطبرى هذه الموقعة ولعل الطبرى أكثر احتياطاً فى رواية الأخبار.

٢ – الواقدى (جـ ١ ص١٣). أما الطبرى فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفاً وذكر ابن الأثير أنه كان تسعين ألفاً.

المرصوص. فلما شاهدهم (روييس) بطريق الروم انكسرت حميته وسقط فى يده.

ثم باشر الفريقان القتال، وعمل المسلمون الحيلة فى الأعداء وبعجوا دوابهم بالأسنة، وحملوا عليهم حملة منكرة، ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل. إذ أتى الله المسلمين بالنصر وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين. وبينما كان المسلمون يتعقبون الفالة إذ دهمتهم قوة من الروم فقتلوا سعيد بن خالد أخا عمرو بن العاص لأمه. وقد كانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر ألفًا، وخسارة المسلمين مائة وثلاثون. ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لأبى عبيدة: قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له (روييس) فى مائة ألف فارس فمنّ الله علينا بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله علىّ فلسطين، بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً، فإن احتجت إلىّ سرت إليك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1] اهـ.

لا ندرى من أى مصدر جاء الواقدى بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو إنه تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة والروم مرابطون فى جميع أرجائها، وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم، ولم يفتحوها إلا بعد اليرموك ودمشق، وكيف قوى المسلمون على مائة ألف من الروم وزيادة ولم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف مقاتل؟ أضف إلى ما تقدم أن خسارة المسلمين فى اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانوا سبعة) وكذا خسارة الروم فى هذه الموقعة قد أغفلت. فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر ألف. وما ذكره (الواقدى) فى هذا

---

١ – الواقدى (جـ ١ ص١٣). أما الطبرى فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفًا وذكر ابن الأثير أنه كان تسعين ألفًا.

الكتاب يناقض ما ذكره (الطبرى) و(ابن الأثير) و(الأمير على الهندى) من أن عمرو بن العاص حين رأى (هرقل) قد سير إليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة مما أدخل الفزع والحيرة فى قلوب القواد كاتب أبا بكر وشاور قواد الشام عمراً فى أمرهم فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو. إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة، ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك، فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو[1].

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص، وإن لم يكن أمير المسلمين فى حرب الشام فقد عرف له المسلمون أصالة الرأى وبُعد النظر فاستشاروه فى مهام الأمور، ويكفيه فخراً أن جاء جواب أبى بكر مطابقاً كل المطابقة لرأيه. وكان من وراء رأيه ما جناه المسلمون من ثمار الانتصار فى موقعة اليرموك، مما أضعف العدو وسهل عليهم اجتناء ثمار الفوز والظفر فى الوقائع المتوالية.

ولسنا نشك فى أن حزم عمرو وحسن رأيه هذين إلى ما أظهره من الخدمة والمهارة من قبل – كل ذلك قد أهله لثقة عمر فيما بعد. فمع أن عمراً وخالد بن الوليد كانا يكادان أن ينزلا منزلة واحدة فى الإسلام، ومع أن خالداً قد أظهر من التفوق فى حرب الردة وفتح العراق والشام ما كان يعده لأحراز المكانة العليا، فإن عمر لم يرض عنه، ولم يثق به، ورضى عن عمرو ووثق به طول حياته.

---

١ – الطبرى (جـ ٤ ص٣١)، وابن الأثير (جـ ٢ ص١٩٨)، وموير (ص ٦٨ – ٢٨)، وايرفنج (ص ٣٧).

د - اشتراك عمرو في وقائع اليرموك[1] ودمشق والأردن

ومما يذكر لعمرو فى موقعة اليرموك التى كانت على حدود فلسطين وبلاد العرب أن الروم حملت على المسلمين حملة هائلة فانكشفوا فولى صاحب رايتهم منهزمًا واللواء بيده. فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق إليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون وانهزم جيش الروم.

ومما يذكر له ايضًا انه كان له نصيب كبير فى يوم التعوير الذى أصاب فيه رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ولم يثبت غير أصحاب الرايات وقاتلت الأمراء بأنفسها ومن بينهم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وعبد الرحمن بن أبى بكر. واشتركت النساء فى القتال مع هذا النفر اليسير. وكان بعضهن يضمدن الجروح أو يسقين الماء وكثير منهنّ يقوين المسلمين الفارين فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماس فى قلوب الرجال فكروا على العدو كالجبال الراسيات حتى كان النصر[2].

ومن هذه الحادثة تتجلى شجاعة عمرو، وكأنه أراد أن يكون ارتداد العدو على يديه، فسبق خالداً لأخذ الراية، وقد أحاطت به جند الروم

---

١ - اليرموك نهر معقد وهبته الطبيعة أسراراً والغازاً ينبع من مرتفعات حورات ويصب فى الأردن جنوبى بحيرة طبرية بأميال قليلة. وعلى نحو ثلاثين ميلاً من التقائه بالأردن يكون فى الطرف الشمالى فتحة على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير. وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة. وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التى فى الداخل، وهذه البقعة تسمى (الواقوصة) ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الإسلامية (الأمير على ص٣٧).

٢ - جبون جـ ٩ ص ٢٢٦، وموير ص ٧٠ - ٧١ وايرفنج ص ٦٨.

فنسى نفسه حبًا للجهاد وما بالى بمن حوله من الروم حين جاهد مع غيره من الأمراء وصبروا على قتالهم صبر الكرام وقاتلوهم قتال المستميت وهم نفر يسير.

مات أبو بكر وتولى عمر فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فإنه ضم خالداً إلى أبى عبيدة وأمر عمراً بمعونة جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها. وقد سار جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة عقب كتيبة وعلى المقدمة عمرو بن العاص فى تسعة آلاف، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم. فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب (الفراديس) وشرحبيل بن حسنة بباب (توما) وقيس بن هبيرة بباب (الفرج) وأبو عبيدة بباب (الجابية) وبقى خالد بالباب الشرقى. وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوماً، ولم تجدهم منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع فتيلاً. وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ونفدت المؤن من عندهم فجنحوا إلى الصلح.

وبعد فتح دمشق سار المسلمون نحو فحل وعليهم شرحبيل بن حسنة، فبعث خالداً على المقدمة وعمرو بن العاص على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار ابن الأزور وعلى الرجل عياض، فاستولى المسلمون على فحل وبيسان وطبرية وقتلوا من الروم ثمانين ألفًا كما ذكره الطبرى وياقوت (جـ١ ص٣٤٠).

هـ - عمرو وموقعة أجنادين[1]

اشترك عمرو بن العاص فى وقائع اليرموك ودمشق وفحل وبيسان بعد أن هزم للروم الجيوش الجرارة بفلسطين. فكأن أعماله الحربية لم تكن قاصرةً على فلسطين فحسب. بل شملت الأردن وامتدت إلى سورية: أعنى أنه منذ وطئت قدمه هذه البلاد قضى وقته فى الطعن والنضال وقيادة الجيوش. ولما تم له ما أراد صرف همته إلى القضاء على قوة الروم بفلسطين وفتح مالم يفتح بعد من بلادها. فبينما كان أبو عبيدة يفتح المدن الواقعة شمالى الشام كحمص وحماه وقنسرين وحلب واللاذقية وغيرها لم تكن فتوح عمرو بفلسطين وانتصاراته الباهرة بأقل نجاحاً منها.

وقد كان على فلسطين والٍ رومى يدعى (أرطبون)[2] كان عند الروم كعمرو بن العاص عند العرب فى الدهاء وقد وضع جنداً. عظيماً ببيت المقدس وغزة والرملة بينما خيم بجنده الكثيف بأجنادين[3].

ولما رأى عمرو أن القوة التى مع الروم أقوى مما كان يظن كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر. فقال عمرو: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكتب أمير المؤمنين إلى القواد أن يسيروا إلى قيسارية والرملة وإيلياء (بيت المقدس) كى يشغلوا الروم عن عمرو.

---

١ - ذكرها ياقوت فى معجمه فقال: اجنادين (بالفتح ثم السكون ونون وألف) وهو موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين وهى من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم.

٢ - ذكر بطلر (ص ٢١٥) أن لفظ (أرطبون) الذى يطلقه العرب على هذا القائد خطأ. والصحيح «أريطيون».

٣ - الطبرى (جـ ٤ ص ١٥٧)، وهورت (جـ ١ ص ٢٨٤).

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة وعالج كسر قوة (أرطبون) فلم يوفق ولم تشفه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. فحدث أرطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله، وفطن له عمرو فاحتال بما عرف عنه من الدهاء ونجا من شره. وعلم (أرطبون) بحيلته فقال: خدعني الرجل هذا أدهى الخلق، وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمر ولله عمرو. ووقف عمرو بنفسه على حالة الروم فزحف بجنده واقتتلوا قتالاً شديداً لا يقل هولاً عن قتال اليرموك فانهزم (أرطبون) في ثمانين ألف من الروم، وأوى بالفالة إلى إيلياء. وكان ذلك سنة ١٥هـ. (٦٣٦م).

وقد اضطربت كلمة المؤرخين في السنة التي هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين. فذكر بعضهم «كالواقدي وياقوت وإيرفنج» إن ذلك كان سنة ١٣هـ عقب فتح بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجنادين، وقد علموا أن «هرقل» أنفذ إليهم مائة ألف من الروم تحت قيادة «وردان»[1] وأن موت أبي بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ أيضًا. وهو يخالف ما ذكره غيرهم «كالطبري والبلاذري واليعقوبي وابن الأثير» أن موقعة اليرموك لا أجنادين هي التي سبقت فتح دمشق: أعني سنة ١٣هـ. وأن واقعة أجنادين كانت سنة ١٥هـ. على أن المؤرخين الإفرنج ومعهم الواقدي قد ذكروا أن العرب اشتبكوا بأجنادين مرتين: مرة قبل فتح دمشق أي سنة ١٣هـ، ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥هـ. ونحن نميل إلى أن أجنادين كان بها واقعتان، أحداهما سنة ١٣ ثم اشتغل الفريقان بغيرها من البلاد، ثم عاد إليها المسلمون بعد ذلك.

---

١ – قال ياقوت (جـ١ ص١٢٦) إن قائد الروم كان (أرطبون) كما ذكرنا.

على أن رواية الطبرى عن ابن إسحق «جـ٤ ص٤٥» توافق ما ذكره الفرنج، وهو أن فتح أجنادين كان سنة ١٣هـ حيث اجتمع المسلمون مدداً لعمرو بن العاص.

إلا أن الفرنج والواقدى يقولون إن عمرو بن العاص أتى مدداً لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المتفرقين بالشام (الواقدى جـ١ ص ٣٤).

فإذا أغفلنا واقعة أجنادين الأولى تيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة. وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع فليس هذا من شأننا.

وقد يكون التخبط فى ترتيبها راجعًا لوقوع بعضها فى أوقات واحدة، وإذ ثبت لدينا أن هذه الوقائع قد وقعت بالفعل فما علينا إلا أن نذكر منها ما عسى أن يكون له علاقة بعمرو بن العاص، لأن التصدى للبحث فى الترتيب يخرج بلا ريب عن موضوع رسالتنا.

وكان من نتائج انتصار عمرو على «الأرطبون» إن أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكاء وبيروت واللد والجبلة، وفتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس.

و - عمرو وفتح بيت المقدس

كان عمرو بن العاص المتولى فتح فلسطين وكانت حاضرتها بيت المقدس - أو إيلياء -حيث لجأ إليها الفالة من موقعة أجنادين فعسكروا فيها ونصبوا على أسوارها المنجنيقات.

وكان عمرو قد أخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها، ففتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين.

فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر (الأرطبون) مخابرة حبية ويطلب إليه تسليم المدينة، والأرطبون ممتنع عليه وكتب إلى عمرو بن العاص (وعمرو لا يزال بأجنادين) كتاباً يقول فيه:

إنك صديقى ونظيرى، أنت فى قومك مثلى فى قومى، والله لا تفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقى الذين قبلك من الهزيمة.

فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالرومية فأرسله إلى (أرطبون) وأمره أن يغرب ويتنكر وقال:

استمع ما يقوله حتى تخبرنى به إذا رجعت وكتب إليه:

جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة -تجاهلت فضيلنى، وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد.

فخرج الرسول حتى أتى (أرطبون) فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فاقترأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على (أرطبون) فقال من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر. وكتب إلى عمر يستمده

ويقول: إنى أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادخرت لك فرأيك[1].

والذى نميل إليه أن عمرو بن العاص لما عالج الشدائد من قتال الروم وأشجوه وأشجاهم كتب بأمره إلى عمر فرأى أنه الجد، فخرج إلى الشام واستخلف على بن أبى طالب وكتب إلى الأمراء الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال ولا يتخوفون أن يداهمهم عدو وأن يوافوه بالجابية فوافوه.

فلما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة وأم الأرطبون مصر ورق بقية جند الروم وأهل البلاد فطلبوا الصلح - وممن سار على هذا الرأى حضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار.

أنزلت المنجنيقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد أتاهم الشتاء. وقد ظل المسلمون على حصارها أربعة أشهر لم يمض منها يوم واحد من غير قتال.

فشاهد أهل إيلياء من المسلمين الجد فى الحرب والصبر فى القتال، وقد عدوا الاستيلاء عليها دينياً أكثر منه سياسياً، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها معبد الأرض المقدسة، ومقر وحى عيسى عليه السلام، وبها قبور كثير من الأنبياء. وقد كتب أبو عبيدة إلى أهالى إيلياء يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية وأن أبوا فيحل جند المسلمين بأرضهم، ويفتكون برجالهم، ويستحلون عيالهم. فارتاعوا من هول هذا التهديد

---

١ - الطبرى (جـ٤ ص١٥٧) وقد قيل إن عمراً انقذ ابا عبيدة لفتح إيلياء. فوجه يزيد بن أبى سفيان فى خمسة الاف ثم لحقه هو ببقية جند المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص. وبعيد جداً أن يفرق «ارطبون» بين لفظى عمرو وعمر.

وعقد رؤساؤهم الاجتماعات المتواصلة للنظر فى حالهم، والعمل على تخفيف ما حل بهم[1].

نظر أهل إيلياء إلى حالهم فوجدوا أنفسهم فى ضنك عظيم وحصار شديد، وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة، وأن دولة الروم دالت وسلطهم عن البلاد زالت، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى، لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء، وما بذلوا فى قتالهم من الدماء، ولما تحقق عندهم أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين، لأنه محل الإسراء ومقر الأنبياء. والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون، وقبلتهم المقدسة إن يحرمها منهم الفاتحون. فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للأمان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه. ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريرقهم (سفرونيوس) على الأسوار طالباً التسليم على أن يكون المتولى للصلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكاتبه الأمراء فى ذلك فرضى عمر ورحل إلى الجابية، وكتب لأهل إيلياء كتاباً أشهد فيه القواد من المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص. وقد وردت صورته فى كثير من كتب التاريخ. وكان فتح إيلياء سنة ١٦ للهجرة أو أواخر سنة ١٥هـ (٦٣٥م)[2].

١ – اجبون (جـ ٩ ص ٢٤٩ – ٢٥٠).

٢ – راجع: الطبرى (جـ٤ ص٢٤٩)، اشهر مشاهير الإسلام (جـ٢ ص٢٤٦) وبطلر (ص١٦٦) وهورت (جـ١ ص٢٣٥) وموير (ص١٤٣ – ١٤٤).

ز - عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل

ظل عمرو مع جيشه بفلسطين ردحًا من الزمن للقضاء على القوة التى كانت لا تزال مع (قسطنطين بن هرقل) فسار إلى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف. وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية فى قبضة العرب وهروب والده من أنطاكية، وتوهم وقد تملكته الهواجس أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة، فانسل من قصره هو وأسرته خفية، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل. ولما أصبح الصباح، وقد علم الأهلون بهرب أميرهم – سلموا لعمرو فقبل منهم. وسرعان ما وافق على الشروط، وقد تاقت نفسه للرحيل لغزو مصر. وكان ذلك سنة ١٧هـ (٦٣٩هـ).

اضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون فى غضونها المشاق والأهوال وقاسوا طويلاً من شدة بردها، وقتل من جندهم عدد غير قليل، سيما فى وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب، فكان عدد من قتل فى حروب الشام كما ذكر (إيرفنج) يناهز خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً، والدماء التى أهدرت عزيزة.

وقد رأينا أن عمراً قد وقف فى هذه الحروب موقف الذى لا يضن بحياته ولا بقوته على المسلمين، وهو مع ذلك كان يبذل ما يستطيع من جهد لحقن دمائهم، وبذل أقل ما يمكن منها فى سبيل الحرب.

فهو فى الوقت نفسه قائد شجاع ومدبر ناصح، له من الحزم والأناة حظ قلما ظفر به غيره من قواد المسلمين إذ ذاك.

الكتاب الثانى

عمرو كزعيم من

زعماء الدولة العربية

الباب الأول

{ حال مصر قبيل الفتح الإسلامي }

ولنترك الآن عمراً فى فلسطين يتهيأ للزحف على مصر، ونلقى نظرةً فى حالة هذا البلد الجديد، فنرجع للوراء زهاء قرنين لنأتى بمجمل حال تلك الأمة الدينية والسياسية من أيام قسطنطين: أى منذ القرن الرابع الميلادى حتى الفتح الإسلامى. ليتبين كم قاسى أبناؤها من حمل النير الأجنبى، ولنعرف كم كانت ترزح تحت أعباء تلك الفتن، وتئن أنين الثكلى، مما كان يفتك بأهلها من الظلم، ويستنزف دماءهم من المكوس والضرائب، وتستأصل زهرة شبابهم الاختلافات الدينية والحروب الأهلية، حتى أصبح أهلها يفضلون الموت على حياة كلها تعاسة وشقاء وظلم وبلاء.

أ - الحالة الدينية

كانت الأمة المصرية وثنية إلى عهد القيصر (أغسطوس) الرومانى حيث ولد المسيح عليه السلام.

فأصبحت تتوالى النقم من قياصرة الروم على النصارى قتلاً وتعذيبًا وتشريداً حتى جاء القيصر (دقلديانوس) فأغلق كنائسهم، وأسرف فى قتلهم، ولم يفتر عنهم يومًا واحداً لاستئصال شأفتهم وإبطال النصرانية.

وكان يرجع وقوع ثورة المصريين فى عهد (دقلديانوس) إلى سببين: أحدهما سياسى، والآخر دينى.

ففى الشطر الأول من حكم (دقلديانوس) قامت الثورات فى الإسكندرية، فقد ثار أحد الضباط المدعو (لوسيوس دميتيوس دومتيانوس) وكان رومانيا لقبه المصريون أخيلوس، ونادوا به إمبراطوراً، لذلك اضطر دقلديانوس إلى الحضور بنفسه إلى مصر لإخماد هذه الثورة التى لم يفرغ منها إلا سنة ٢٩٦م. وحاصر مدينة الإسكندرية ثمانية شهور، ثم استولى عليها عنوة، وكانت نتيجة هذا

الحصار الطويل أن دمر أكثر أبنية المدينة. وقد حلّ بالإسكندرية البؤس والشقاء من جراء الحصار الذى حصل فى ثورة إمليانوس حتى أن دقلديانوس أصدر أمراً بأن جزءاً من الغلال التى كانت ترسل إلى رومة يوزع على الأهلين فيها.

أما الشطر الأخير من حكم دقلديانوس فكان عصر هياج واضطراب بسبب اضطهاد المسيحيين.

وكان يرمى نظام الحكومة الجديد إلى التشدد فى تقديس الإمبراطور وإكباره الدينى، فبعد أن كان فيما مضى الرئيس الدينى الأعظم أصبح فى عصر دقلديانوس، وبواسطة التأثير الشرقى أشبه بإله تقدم له القرابين، ويعبد كما تعبد الآلهة، ليكون بذلك أكثر أماناً على نفسه من الاغتيال كما حصل لكثير من الأباطرة العسكريين الذين تقدموه فى القرن الثالث كله.

فأثارت هذه السياسة سخط المسيحيين ودفعتهم إلى المقاومة. وكان الشجار الذى أثاره هذا العمل فى مصر أشد منه فى أى بلد آخر، مع أن تقاليد المصريين القديمة هى التى سهلت الأمر على الحكومة وجعلتها تتوقع نجاح سياستها، وتنتظر من الأمة العمل من أول الأمر بأكثر من رغائبها، فيتسابق المصريون إلى تأليه دقلديانوس كما ألهوا كاليجولا من قبل، غير أن التعصب المصرى لدينهم كان لا يزال شديداً ينفجر بركانه لأ وهى الأسباب حتى عند الذين اعتنقوا الدين المسيحى – لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه الإمبراطور – على الرغم من مجهوداتهم الكثيرة – مقاومة عنيفة وعناداً كبيراً وصلا إلى حد الجنون. (ملن ص٨٧).

والظاهر أن دقلديانوس وغيره من أباطرة الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين خارجين على الدولة والدين الرسمى، فلم يكن بد من

الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم إلى الوثنية - وعلى ذلك فلم يكن قصدهم اضطهاد المسيحيين - بل ردهم إلى الطاعة والخضوع للقوانين العامة، وإن كان بعضهم قد أسرفوا فى قتلهم وتعذيبهم إسرافًا شنيعاً جرّ عليهم سخطهم وكراهيتهم كما أسرف بعض الأباطرة المسيحيين فى اضهاد الوثنيين حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية.

ومن الصعب الجزم بعدد من قتلوا فى مصر فى عهد دقلديانوس، إلا أنه من المؤكد أن عددهم كان عظيمًا، وأن الاضطهاد تناول جميع الطبقات. وقد بدأ الاضهاد بالبلاد المصرية سنة ٣٠١م. وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهة المصريين وحنقهم، حتى ظلوا يرون فيه إلى اليوم مثالاً للظلم والاستبداد، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ق.م) ويسمى هذا التاريخ عندهم «تاريخ الشهداء» كما هو معروف.

ولما جاء (قسطنطين) (٣١٣ - ٣٣٧م) اعتنق المسيحية سنة اعتلائه العرش، فأصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، ولكن المسيحيين فى مصر ماكادوا يخلصون من اضطهاد الحكومة حتى وقعوا فى اختلافات مذهبية دينية لم يصلوا بعد إلى التوفيق بين بعضها وبعض. وكان النزاع الذى قام بين «أثناسيوس» و«أريوس» على كنه العلاقة التى يمكن أن تكون بين الله وبين عيسى، أو بين الأب والابن، فوق ماله من الأهمية الدينية سبباً لنتائج سياسية غيرت وجه تاريخ الديار المصرية تغييراً كلياً. فإن العلاقات بين الإمبراطور والشعب الإسكندرى لم تكن سلمية يومًا من الأيام. فإن هذا الشعب قد ساعد (مكسيمينوس) و(لسينوس) خصميه اللدودين، وربما كان هذا الحادث الذى دعا الإمبراطور إلى جعل عاصمته مدينة بيزنطية، ولم يكد «تيودوسيس» (٣٧٨ ٣٩٥) يقبض على زمام الأحكام حتى أصدر سنة

٣٨١م قراراً يقضى بتنصير الإمبراطورية، فأغلقت الهياكل والمعابد ولاقى الوثنيون فى مصر أثناء ذلك مالا يقل هولاً عما لاقاه النصارى قبلهم(١).

ولم يكن بين المصريين والروم ما يفرق بينهم من حيث معتقداتهم الدينية، ولكن حصل بعد ذلك ما فرق بينهم فى المعتقد لاختلاف المذاهب، وقسمهم إلى قسمين متفاوتين: يعقوبية، وملكية.

فاليعقوبية: هم الذين يعتقدون أن الطبيعة الإلهية والبشرية فى المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة. وعليه فلم يعد إنساناً كاملاً، فكان عند التجسد ذا طبيعتين، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة.

والملكية: هم الذين يعتقدون أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح.

فاتفق البابا مع القيصر «مرقيانوس» (٤٥٠ – ٤٥٧م) على عقد مجمع عام فى (خلقدونية) سنة ٤٥١م. فانتهى الأمر بعزل (ديوسقوروس) بطريرق الإسكندرية ومؤسس اليعقوبية، وبحطه من كل خدمة كهنوتية، وكتب إلى جميع مملكته أن كل من يقول بقول ديوسقوروس يُقتل.

وأنفذ مكانه أسقفاً أرثوذ كسياً. غير أن الأهلين جاهروا بالثورة ضد البطريرق فاضطرت الفرق الأمبراطورية التى كانت ترافقه إلى الضرب على أيديهم وزج زعماء الثورة فى هيكل (سيرابيس) الذى أحرق بمن فيه، وأبيحت المدينة للسلب والنهب قبل أن يتمكن الأسقف الجديد من الجلوس على كرسى البطريرقية فى الإسكندرية – وعقب

١ – ملن ص ٩٦.

ذلك أصدر الحاكم الأوامر المشددة بإبطال أيام الأعياد العمومية، وإقفال الحمامات، وإلغاء إعانة الغلال[1].

ومازالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لمصائب المصريين – إن قام قيصر ملكى أمر باضطهاد اليعاقبة وإذلالهم – وإن قام قيصر يعقوبى فعل العكس، والرزايا على كلتا الحالتين تنتاب الرعية. وأشنع ما أصاب المصريين فى هذا السبيل كان فى عهد القيصر «يوشينانوس» (٥١٨ – ٥٢٧م) الذى تساهل فى بادئ الأمر منتظراً سنوح الفرصة لحسم النزاع – وقد أنفذ بطريقاً ملكياً إلى الإسكندرية، فجاهر الأهالى بالثورة، ووقعت على أثر ذلك معركة دموية فامتلأت الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند، وأحرقت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الثالثة.

وأقام الأهالى بطريقاً يعقوبياً، وانسحب البطريرق الرومانى أو الملكى، ولم تقو القوى الإمبراطورية على شد أزره.

لما رأى (يوستنيانوس) أن بغض المصريين لبطارقة الروم قد بلغ أشده، وأيقن أن التساهل لن يجديه نفعًا، عول على مقابلة الشدة بمثلها، فأنفذ «إپوليناريس» إلى الإسكندرية – فدخل المدينة فى زى العسكرية (٥٥١ق. م) ووزع الجنود المسلحين فى الشوارع، وأحاط بهم أسوار الكنيسة، وأكثر منهم فى صدرها للمحافظة على شخصه. ولما طلع المنبر نزع ثياب الجند، فظهر لهم مرتديًا بثياب بطريرق الإسكندرية. فأخذت الدهشة من الأهلين كل مأخذ، وهمَّ إپوليناريس يقدّس فانهالت عليه اللعنات من جميع الحاضرين، وأخذوا يرجمونه بالأفواه والحجارة. ولم تكن إلا إشارة واحدة من البطريرق حتى داهمت جنوده الأهلين، وأعملوا السيف فيهم، حتى خاض الجند فى الدماء. قال

١ – ملن ص ١٠١ – ١٠٢.

(جبون) : ويقال إنه قتل بالسيف فى هذا اليوم مائتا ألف – وكانت نتيجة هذه الموقعة أن انتقلت جميع أملاك الكنيسة فى مصر إلى يد حاكم الإسكندرية[1].

والظاهر أن قيصر الروم لما رأى أن يضع حداً لهذا الشجار منح البطريرق مركز الحاكم فى مصر حتى يتسنى له تحصيل الجباية، وتموين رومة بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام.

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفترون عن إيقاع الأذى بالمصريين – فرفض هؤلاء لغة اليونان وعاداتهم، وأصبح كل ملكى فى نظرهم غريباً عنهم، وكل يعقوبى منهم. وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم فى المناصب جريرة لا تغتفر.

ولم تكن طاعتهم للإمبراطور وتنفيذ أوامره إلا إرغاماً تحت ضغط قوته الحربية.

وكان أقل مجهود يكفى لإنقاذ الدين ورد حرية مصر المسلوبة. وقد كان من المتيسر أن تخرج الأديرة (وعددها زهاء ستمائة)، عشرات الآلاف من المقاتلين الذين أصبح الموت أحب إليهم من الحياة المفعمة بالبؤس والشقاء، ولكن التجربة قد دلت على العكس، ذلك أن هؤلاء المتعصبين لدينهم الذين كانوا يتحملون آلام (الخازوق) وغيره من آلات التعذيب بلا تأوه سرعان ما كانوا يرتجفون ويولون الأدبار أمام عدو مسلح. فلم تكن لديهم من سبيل للخلاص مما هم فيه إلا بقوة أجنبية كقوة خسرو ملك العجم (٦١٥ – ٦١٧م) التى أنقذت اليعاقبة من نير الروم ردحاً قصيراً من الزمن انتصر بعدها هرقل (٦٢٧م) على العجم وجدد الفظائع وزاد عليها، ففر البطريرق بنيامين إلى الصحراء.

---

١ – ملن ص ١٠٠ – ١٠١، ولين بول ص ٢، وجبون جـ٨ ص ١٠٧.

إلا أن صوتاً قوياً أمره عند فراره «انتظر» حتى إذا ما تم عقد عشر سنوات سارت نحو بلادهم قوة أجنبية لخلاصهم مما حل بهم من الظلم وما حاق ببلادهم من الفقر: وهذه القوة هى جند العرب.[1] اهـ. بتصرف.

هذا مجمل حال المصريين الدينية. سيما فى القرن الذى كان قبل الهجرة، فقد كان أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولاً. أصابهم فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصبهم من القياصرة الوثنيين.

وكانت هذه الرزايا سبباً لكراهة المصريين حكم الروم عليهم وتشوقهم إلى الخلاص من هذه النكبات؛ وكان بنيامين هذا ممن يبغضون الروم بغضاً شديداً، وذلك أن (هرقل) لما قدم إلى مصر بعد هزيمته للفرس طلب (بنيامين) ليقتله فلم يظفر به لفراره - وظفر بأخيه «مينا» فأحرقه بالنار عداوةً لليعاقبة، لذلك لما ورد المسلمون مصر كان (بنيامين) هذا يكتب إلى من فى طريقهم من الأقباط ألا يهتموا بدفع العرب ولا حربهم. فكان عمرو لا يدافع أثناء مسيره من الفرما إلى بابليون إلا بالشئ الخفيف عدا بلبيس، وأم دنين، وعين شمس، فقد لقى فيها حرباً.

يعلم مما تقدم، كم عانى المصريون من المحن والأهوال فى سبيل معتقداتهم الدينية.

---

١ - جيبون جـ ٨ ص ٣٠٠.

ب - الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ق. م، فأصبحت كملك خاص للإمبراطورية، وفى عهدهم تحولت العناية إلى الزراعة، فكانت كأنها مخزن غلال لروما تفى بحاجتها من الحبوب، فدرست آثارها ،وانحطت درجة العلم التى كانت بها.

وكانت الدولة الرومانية وثنية النزعة، وفى عهدها دخل الدين المسيحى مصر كما ذكرنا فقاسى أتباعه الشدائد والمحن. وقد انتهت هذه الدولة (وهى الدولة الرابعة والثلاثون) بقيام طيوروسيس (٣٧٨ - ٣٩٥م) وتقسيمه المملكة الرومانية بين أولاده سنة ٣٩٥م[١].

ومن عهد هذه الدولة (وهى الخامسة والثلاثون) انتشرت الفتن الدينية. وكانت أفظع الفتن التى حلت بمصر فى القرن الذى قبل الهجرة، ففيه تفاقم النزاع بين الملكية واليعاقبة.

وكثيراً ما سببت هذه الفتن النحس للأهالى، فقد زاد القيصر (نيرون) المال المقرر على البلاد المصرية، فأصاب الأهالى من جراء ذلك محن ثقيلة، فكثرت الفتن، وظهر العصيان، وقام الأهالى فى الأزقة والحارات، وكثرت الحرائق فى كثير من الجهات، واضمحل الأمن فى القرى، وكثر قطاع الطرق، ولم يكن لكل هذه البلايا من سبب سوى الاختلافات الدينية.

---

١ - نقل قسطنطين عاصمة الدولة من روما إلى (بيزنطة) سنة ٣٣٠م. وسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة إلى قسطنطين الأكبر. وبعد وفاة قسطنطين قسمت الدولة بين أولاده الثلاثة، ثم اتحدت، ثم انقسمت مرة أخرى إلى أن تم تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥م. إلى قسمين: الدولة الغربية وعاصمتها روما، والشرقية وعاصمتها القسطنطينية.

كانت مصر محرومة من الحقوق الرومانية، وقد منع أغسطوس الإسكندريين من الوصول إلى هيئة مجلس الشيوخ. فوقف ذلك المنع حجر عثرة أمام كل كفاءة تسمح لهم بتقلد الوظائف الرومانية العالية فى إدارة المالية والنيابة عن العامة والقضاء والقنصلية، إلا أنه فى عهد سبتيم سيفير (١٩٢ - ٢١١م) منح الإسكندريون مجلسًا للشيوخ وأنشأ الإمبراطور مجلسًا بلديًا فى بعض مدن أخرى. وبهذه المنحة خفف على المصريين ذلك الضغط، فأصبح فى الإسكندرية نواب وتبوأ اسكندريون فى رومة مقاعد أعضاء مجلس الشيوخ. وفتح تبعًا لذلك الوصول إلى الوظائف العالية التى كانت محرمة على الإسكندريين الحاصلين على الحقوق السياسية الرومانية.

وقد حدث انقلاب أشد خطورة من الانقلابات التى حصلت من قبل حين أعطى (كراكلا) جميع رعايا الدولة الحقوق الوطنية، فشمل هذا المنح المصريين، إلا أنهم لم يمنحوا سلطة عليا، ولم يسند إليهم عمل مما يعهد لأعضاء مجلس الشيوخ.

فتحت أمام الإسكندريين أو بالحرى اليونانين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان أبواب المناصب العالية بينما حرم غيرهم من المصريين الوصول إلى هذه الوظائف، مما قضى عليهم بالضعف والخمول، وزاد سخط المصريين على الحكم الرومانى، بينما رفعت عن عواتقهم (اليونان) بعض الضرائب مما كان يدفعه المصريون، وقد زادت الضرائب فى عهد الرومان زيادة فاحشة حتى لم يعد شئ من الأشياء يخلو من ضريبة مفروضة عليه.

وقد أثقلت هذه الضرائب كاهل الناس فقد شملت كما قال المؤرخ (ملن) الأشخاص والأشياء. فكانت على الرؤوس والصناعات على

اختلاف أنواعها، وعلى الماشية والأرضين، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع، بل كانت تجبى على المارة رجالاً ونساء – تجاراً وغير تجار – وما معهم من سائر الأشياء حتى الموتى. ومن صناع السفن، ومن العاهرات، ومن زوجات الجنود، وعلى تذاكر المرور، ولختم التذاكر، وعن أثاث المنازل، وعن شراعات السفن، وعلى الصارى، وعن كل جنازة تخرج إلى الصحراء. ولم يقتصر الأمر على هذه الضرائب التى كانت تدفعها الأهالى الذين أصبحوا فى شر ما يكون من الفاقة. بل كانت هناك تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون، وأخصها إيواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم فى الكور، وتقديم مايلزم لهم من الحاجيات، وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك إتمام سفراتهم. ولقد أثقل هؤلاء الموظفون على الأهالى وحملوهم من الكلفة ما أنوا منه كثيراً. وفى السنين الأخيرة من الحكم البيزنطى كان على المصريين أن يقوموا بغذاء الجنود(١).

وكان للانقسامات الدينية التى حدثت فى الكنائس المسيحية فى مصر أهمية سياسية لا يستخف بها، فقد كانت هذه الاختلافات الدينية فاتحة للاختلافات الكثيرة التى انتهت بفصل كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينية، وكان من نتائجها ضم السلطتين الروحية والرومانية فى شخص (أبوليناريس) المتقدم ذكره. وكان من نتائج الاختلافات الدينية التى قامت بمصر دخول هذه البلاد تحت حكم الفرس فترة قصيرة من الزمن، ثم تحت حكم العرب وضياعها من الروم إلى الأبد(٢).

---

١ – ملن ص ١١٥ – ١٢٥ بتصرف واختصار.

٢ – على أن كل هذه الآلام لم تكن قاصرة على المصريين، إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الإمبراطورية، وهى من الأسباب التى سهلت سقوطها وفتح العرب إياها.

حالة مصر إزاء ما كان بين الروم والفرس فيها

هدد الفرس الروم أثناء القرن السادس كله، وظلوا يتقدمون نحو حدود الدولة الرومية فى جموع كثيفة. وشعر الناس بخطورة هذا التقدم فى البلاد المصرية فى الوقت الذى آل فيه الملك لهرقل (٦١٠ - ٦٤١م) فإن الجيوش الفارسية بينما كانت تتقدم نحو الغرب كان أهل سورية وفلسطين يغادرون أوطانهم زرافات ووحداناً فراراً من وجه المغيرين ملتجئين إلى مصر، ولما وصل الاعتداء إلى الدلتا، وأغاروا عليها آوى المهاجرون إلى الإسكندرية للاعتصام بها، فلم تلبث تلك المدينة أن اكتظت بشعوب مختلفة لا مرتزق لها إلا ما يجود به أهل الخير من الصدقات، فكان من الصعب لكثرتهم تدبير أمر غذائهم فى وقت قد تهددها فيها القحط عقب سنة قلّ فيها المحصول، بحيث أصبح غير كاف لغذاء الوطنيين أنفسهم، فلم ير القائد الرومى «نيكيتاس» بدأ من ترك مصر للفرس سنة ٦١٥م[١].

استولى الفرس على مصر فرحب بهم المصريون، ورضوا عن طيب خاطر بحكمهم، ولم ير الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فى ذلك إلا تغييراً فى شخص الحاكم. ويقول «ملن» ص ١٤٤ إنهم فضلوا حكومة شرقى على حكومة إغريقى. ولا وجه لهذا الاحتمال بالنسبة للمصريين إذا عرفنا أنهم قاسوا الأمرين من حكومة الروم، واشتد عليهم البلاء من فداحة الضرائب واستبداد الحكام، فرأوا أن حكم الفرس قد يكون أخف وطأة من حكم الروم.

وفى أثناء حكم الفرس لم يكن فى مصر من الأمور ما يكدر صفاء المصريين بعد أن أطلقت حرية معتقداتهم التى جرّت عليهم المحن

١ - ملن ص ١١٣ - ١١٤.

والأهوال فى غضون حكم الروم، فعين فى عهدهم البطريرق (بنيامين) بطريرقًا للديار المصرية فأذعن لسلطانه أهل البلاد قاصيها، ودانيها، فتمكن من ارجاع الكنيسة إلى حالتها القديمة، من حيث النظام والعظمة وعاش فى الإسكندرية آمنا مطمئناً أثناء حكم الفرس.

غير أن حكم الفرس لم يدم فى مصر أكثر من عشر سنوات، فإن قيام العرب بعد أن جمع الإسلام كلمتهم، حرم الدولة الفارسية من خيرة جنودها، وهيأ الفرص للروم لاسترداد بعض أقاليمهم المفقودة فى الشرق، فقد سار «هرقل» مخترقًا البلاد السورية إلى مصر وطرد أعداءه الفرس، فغادر البلاد معهم البطريرك بنيامين، الذى كان قد جلس على كرسيه. فعكرً طمأنينة المصريين طردُ الفرس من مصر وعودة الروم إليها، فعقد بنيامين مجمعًا عامًا للقسس والرهبان وأوصاهم بالصبر والجلد والاعتصام فى الجبال، ثم هرب فى كنف الليل إلى وادى النطرون[1] ومن ثم عادت مصر إلى حكم الروم وتولدت الاختلافات الدينية من جديد، فاتخذها هرقل وسيلةً لإضرام نيران الحقد والانتقام التى كانت تتأجج فى صدره من جراء ترحيبهم بالفرس ورضائهم حكمهم[2]، فاحلّ بهم هرقل كل صنوف الظلم والاضطهاء لقبول مذهب خلقدونية، ومن أبى عُذب وضرب بالسياط حتى الموت.

---

١ - بطلر ص ١٨٤.

٢ - يخالف بطلر (ص٨٣ - ٨٧) بعض المؤرخين مثل «شارب» و«ملن» فى ذلك ويقول أن المصريين لم يرحبوا بالفرس بل بالعكس لاقوا الأمرين من حكمهم لأنهم أجهزوا على الإسكندريين، وقتلوا الآلاف، الأهلين فى الوجهين القبلى والبحرى - ويبرهن على صحة دعواه بالإشارة إلى ان «الأنبا شنوده» قد تنبأ بما سوف يحل بالأهلين من جراء غزوة الفرس. وان خلف «الأنبا شنوده» قد أثبت هذا التنبؤ عندما كتب تاريخ حياة سلفه. وإن الراهب «بيز نطيوس» فر من وجه المغيريين بالوجه القبلى، وأعلن استياءه الشديد لما حل ببلاده من المصائب، وما حاق بقومه من الظلم. ونحن نستبعد ذلك لأن الفرس لم يتعرضوا لديانة المصريين، فاثبتوا بطريرقهم. وبعد وفاته عينوا (بنيامين) خلفًا له. ولم يتعرضوا لشئ من المبانى، بل زادوا عليها.

وإنا ذاكرون حادثة «مينا» أخى «بنيامين» فقد مثلوا به أشنع تمثيل. حيث أوقدوا المشاعل وأحرقوه بها حتى تساقط الدسم من جنبيه على الأرض، ولما وصل به التعذيب إلى هذا الحد لم يزدد إلا اعترافًا بمذهبه، فاقتلعت أسنانه، ثم وضع فى حقيبة ملاىء بالرمل وحمل إلى الشاطئ، وعرضت عليه حياته ثلاث مرات إذا اعترف بمذهب خلقدونية فأبى ثلاث مرات، فاغرق فى البحر(١). وهكذا أصبح قتل البطارقة علماً يعرف به الروم.

وبعد هذه الشدة التى دامت عشر سنين أصبح كل أمل فى الصلح والسلام بين الفريقين محالا، وقد علم المصريون بانتشار الإسلام وقيام العرب وفتحهم الشام، فتمنوا الخلاص مما هم فيه على أيدى المسلمين، وظنوا أن قدومهم مصر إن هو الأوباء أنزله الله لأعدائهم الروم الظالمين(٢). وإلى هذا الحد المحزن ساء حكم الروم فى مصر، فهيأوا بذلك للعرب الأسباب لفتح هذه الديار، التى نقم أهلها على الحكم الرومى وودوا الخلاص منهم، وبهذا اتيح لعمرو بن العاص فتح مصر بجيشه القليل.

من هذا يعلم أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية، وأصبحت أبعد ما تكون من الاعتماد على نفسها، أو محاولة التخلص من الأجنبى، وإقامة حكومة وطنية، وإنما كان كل ما ترجوه هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه. فسوء سيرة الروم، وضعف المصريين كانا - كما سنرى - من أهم الأسباب التى سهلت على عمرو فتح مصر، ولننظر كيف سلك عمرو سبيله إلى هذا الفتح.

---

١ - بطلر ص ١٨٤.

٢ - بطلر ص ٢٩١.

الباب الثاني

{ عمرو وفتح مصر }

١ - أ - كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر، وكيفية مسيره إليها

لما كانت سنة ثمانى عشرة[١] من الهجرة (٦٣٩م) وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به فقال: يا أمير المؤمنين إئذن لى أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب»، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر، ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن إلى ذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك[٢]، ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال عمر: سر وأنا مستخير الله فى مسيرك، وسيأتى كتابى إليك سريعاً إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك، واستعن بالله، واستنصره: فسار عمرو فى جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك. فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح. أهـ[٣].

ونحن نستبعد مسير عمرو فى نفس اليوم الذى أذن له فيه عمر،

---

١ - يقول ابن الأثير (جـ٢ ص٢٧٧) وابن خلدون (جـ٢ ص١١٤) إن عمرو بن العاص سار إلى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢أو سنة ٢٥ من الهجرة وهو خطأ، بدليل التخبط الظاهر فى ذكر السنين.

٢ - عك بلد فى اليمن واسم قبيلة أيضاً كان.
فتح بيت المقدس سنة ١٥.

٣ - فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص٥١، الخطط للمقريزى (جـ١ ص٢٨٨)، كتاب الولاة والقضاة للكندى ص٨٧، وحسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى (جـ١ ص٤٦).

لأن عمرو بن العاص لم يسر إلى مصر إلا بعد فتح قيسارية وهزيمة قسطنطين، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس بأكثر من سنة.

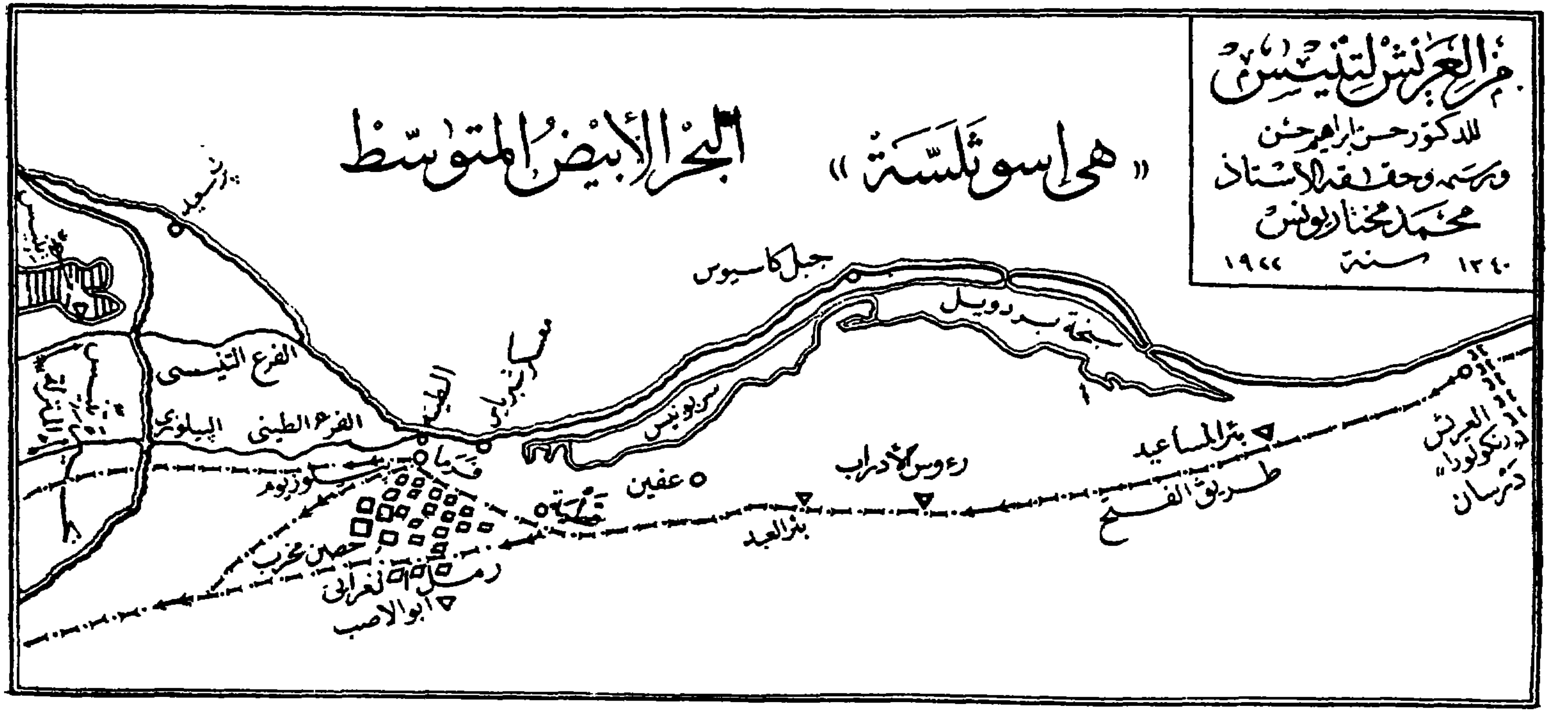
وقد أخرج ابن عبد الحكم والمقريزى أن عمرو بن العاص كان بفلسطين، فتقدم عمرو وأصحابه إلى مصر بغير إذن، فلما فقده أمراء الأجناد، واستنكرو الذى فعل، ورأوا أن قد غرر رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب. ثم إن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر: كتبتُ إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجروء، وفيه إقدام وحب للإمارة. فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا. فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقاً مما قال عثمان. فكتب إليه: إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوقتك. أهـ(١).

ولا ريب أن مسير عمرو بن العاص كان بأذن أمير المؤمنين عمربن الخطاب، ونحن نؤيد الرواية القائلة بأن المسير كان عند أمر أمير المؤمنين. ونرى أن عمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص بالمسير لفتح مصر. فلما علم عمر بمسير عمرو ندم بعد أن أبان له عثمان حرج مركز عمرو لقلة من معه، فيعرض المسلمين للهلكة، وكان عمر أحرص الناس على حياة المسلمين كما هو معروف.

لم يكن عمرو بن العاص من البساطة والبله بالمكان الذى يدفعه إلى تخطى أمر الخليفة والافتيات عليه، فيركب المركب الوعر باقتطاع فريق من جند المسلمين بلا عهد من الخليفة، يزج بهم فى بلاد مترامية الأطراف، ويهجم بهم على بلاد مصر – وما كان جند المسلمين الذى يطيع أميراً لم يؤيده الخليفة، ولا بالذى يتوجه إلى بلاد بغير أمر من

---

١ – فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٥٢، ايرفنج ص ١٠٧.


من العريش لتنيس
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
البحر الأبيض المتوسط
« هي اسوثلسة »
جبل كاسيوس
سبخة بردويل
سربونيس
بئر المساعيد
طريق الفتح
رءوس الأدراب
بئر العبد
عفين
الفرع التنيسي
الفرع الطيني البيلوزي
حصن مخرب
ابو الاصب

الرئيس الأعظم – ولو فعل عمرو ذلك لوجد من عمر سلطاناً يحسن تأديبه ويرده إلى الطاعة والجماعة. ولم يرد فى أى تاريخ عبارة أو إشارة إلى غضب عمر عليه فى افتيات كان منه.

أدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه، وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل: إنها من أرض مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن ارجع، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر؛ فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه(١).

والذى نراه أن عمر بن الخطاب لم يكشف لرجال شوراه نيته فى فتح مصر إلا بعد مسير عمرو، فلما علم عثمان بذلك حذر عمر سوء عاقبة مسير عمرو بجيشه القليل، فكتب إليه عمر كتابه الآنف الذكر ووعده بإمداده إن كان قد دخل أرض مصر. وكان عمرو يوجس خيفة من أن يكون الكتاب يصرفه عن وجهه، فدافع الرسول حتى يكون بأرض مصر ويوجد له العذر إذا مضى لطلبته.

والذى يثير العجب أنه كيف جرأ عمرو بن العاص على المسير إلى أرض مصر بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف مقاتل يريد أن يهزم بهم جند الروم؟ سؤال يسهل الجواب عليه إذا علم الإنسان أن عمرو بن العاص كان محبًا للإمارة، ذا نفس عالية لا ترضى إلا الجليل من الأعمال مهما قام فى سبيلها من العقبات – يدلك على ذلك ما قاله عثمان رضى الله عنه «إن عمراً لمجروء وفيه إقدام وحب للإمارة».

---

١ – معجم البلدان لياقوت، والخطط للمقريزى (جـ١ ص٢٨٨).

وقد بلغ من حب عمرو للإمارة أنه حين أراد أن يعقد أبو بكر الألوية لحرب الشام كلم عمرو بن العاص عمر بن الخطاب أن يخاطب أبا بكر فى تأميره على جيوش المسلمين بدل أبى عبيدة، وقد قدمنا أن عمراً كان أمير على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وغيرهم أيام النبى صلى الله عليه وسلم.

قال رفيق بك العظم فى كتابه «أشهر مشاهير الإسلام».

ومن تصفح تاريخ حياة عمرو بن العاص ووقف على أعماله-سواء فى الفتح والإمارة- أو فى دخول غمار الفتنة علم أنه رجل فذّ قلّ أن تنجب مثله الأمهات - لولا طمع فيه، ربما أوخذ عليه أحياناً. على أنه لم يكن فى دنيات الأمور، بل فى أبعدها غاية، وأعصاها على غيره منالاً. وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر، ويرغب فى تدويخ أرض الفراعنة بجيش يقلّ عن أربعة الاف مقاتل يريد أن يقهر به أمة يربو عددها عن عشرة ملايين! وكان فى البلاد من حامية الروم وحدها أضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها. أهـ.(جـ٢ ص ٥٧٤).

والذى نراه أيضاً أن عمراً إنما رغب فى فتح مصر لأنه وقف بنفسه على أحوالها عند قومه إليها فى الجاهلية، وعرف مقدار ثروتها وخيراتها وأيقن أن دولة الروم قد دالت، وقد تولى جنودهم الضعف واستولى على نفوسهم اليأس، وأن قبط مصر قد ملوا حكم الروم لظلمهم وجورهم. كل هذه الأسباب لم تخف عمرا، بل حببت إليه فتح مصر، أضف إلى ذلك ما جبل عليه من الشجاعة والأقدام، ودرايته بأساليب الحرب، وحبه للقتال، وعلمه أنه سوف ينال الجزاء الحسن من الله عز وجل، لانفراده بهذه المأثرة العالية، مأثرة فتح مصر.

ويرى حضرة أستاذنا «الشيخ عبد الوهاب النجار» أن عمرو بن العاص رأى ما كان من تزجية أبى بكر للجيوش التى وجه بها لفتح سورية على قتلها، فلما صاروا مع جموع الروم وجهاً لوجه، تابع عمر بن الخطاب الإمدادات إليهم حتى كثر سوادهم، ونالوا الظفر، فلم يرد أن يثقل على عمر بن الخطاب فى أول الأمر بطلب جيش كبير يغير به على مصر، واثقًا بأنه متى صار مع الروم وجهاً لوجه فى أرض مصر، واحتاج إلى الجنود بعث بها إليه عمر بن الخطاب على الصعب والذلول، ولا يمكن أن يخذله، أهـ.

ب - شروع عمرو في الفتح واستيلاؤه علي العريش

سار عمرو بن العاص بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى دخل أرض مصر على نحو ماذكرنا، فوصل إلى العريش[1] حيث أدركه النحر فضحّى عن أصحابه يومئذ بكبش (١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ - ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م) وفتحها بدون عناء[2].

والذى ساعد على استيلاء لعرب على العريش أمور منها:

١ - عدم منعة حصونها، والظاهر أنه قد تطاول عليها العهد فوهنت.

٢ - عدم وجود حامية رومانية، بدليل أن الحاميات الرومانية هى التى قاتلت العرب، وصبرت على قتالها طويلاً فى الأمكنة الأخرى، كما سيأتى عند الكلام على قتال العرب بالفرما وبلبيس وأم دنين وبابليون وغيرها.

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن بطريرق القبط كان إذ ذاك بالإسكندرية واسمه (أبو ميامين) وهو يخالف ما ذكرناه من قبل أن (بنيامين) قد فرّ من وجه الروم إلى أحد الأديرة، وأن الروم تعقبوه فلم يظفروا به، بل ظفروا بأخيه (مينا) فقتلوه عداوة لليعاقبة[3].

---

١ - يقول بطلر ص١٩٧ (نقلا عن كتاب البلدان لليعقوبى) : إن المسافر من فلسطين إلى مصر يسير إلى الشجرتين على حدود مصر، ثم إلى العريش وفى قسم الحدود، ثم إلى قرية البقارة ثم إلى الورادة الواقعة وسط التلال المرملة ثم إلى الفرما، وهى أول مدينة مصرية يصل إليها. ثم إلى مدينة الجرير ثم إلى جيفة ثم إلى الفسطاط.

٢ - فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص٥٣)، الخطط للمقريزى (جـ١ ص٢٨٩)، حسن المحاضرة(جـ١ ص٤٦).

٣ - فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص٥٣).

جـ - استيلاء عمرو علي الفرما

غادر عمرو العريش وما حواليها من حراج النخيل متجهًا نحو الغرب على بعد من الشاطئ مجتازاً صحراء جرداء يكتنفها فى بعض الأمكنة قرى ومواضع يجرى فيها الماء. وكان هذا الطريق الموصل إلى بلاد مصر منذ الأحقاب المتطاولة هو الطريق الذى سار فيه المهاجرون والفاتحون، فهو طريق إبراهيم ويوسف وقمبيز والإسكندر، كذلك كان طريق التجار والسائحين والحجاج فى كل العصور، بل وطريق القوافل الذى يصل آسيا بأفريقية - ولم يشتبك مع جند الروم فى قتال - حتى وصل إلى الفرما (پيلوز) وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة. وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل، وكانت الفرما بمثابة مفتاح مصر ذات أهمية كبرى.

حاصر عمرو هذه المدينة نحواً من شهر[1] وأخيراً استولى المسلمون على أحد أبواب المدينة، بينما كان جند الروم مشتغلين برد حملة العرب، فوقعت المدينة فى أيدى المسلمين.

وكان من المحتمل استيلاء عمرو عليها فى أقل من شهر، لولا قلة جنده. ولم يدم جيش الفرس فى الزمن السابق على حصارها طويلاً بعد أن صدّع جوانب أسوارها، وخرب معظم كنائسها. ولابد أن يكون قد رمم الروم مادمره الفرس أثناء غزوتهم لمصر، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين. لذا نرى أن عمرا قد عمد إلى حصارها، وبحسن صبر المسلمين وجلدهم تمكنوا من هزيمة الروم والاستيلاء على المدينة.

---

١ - وقد ذكر ياقوت فى معجمه أن القتال ظل شهرين، وهو يخالف ماذكره المقريزى وابن عبد الحكم والسيوطى وابن الأثير وغيرهم من أن النضال دام نحواً من شهر.

وكان استيلاء المسلمين على الفرما حوالى منتصف يناير سنة ٦٤م على مارواه (بطلر) وكان أول المحرم سنة ١٩هـ(يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠م).

وقد ذكر (بطلر) أن المقريزى وأبا المحاسن (الذى نقل من الأول) قرّرا أن القبط كانوا للعرب أعواناً، وهم على حصار الفرما. وقد أجاب بأن هذا القول لا أساس له من الصحة. وبرهن على صحة ما يقول بما ذكره «يوحنا أسقف نقيوس» من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين إلا بعد استيلائهم على إقليم الفيوم، على أن هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة. أهـ.

وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، وتبعد عن مصر بنحو ثلاثين ميلاً، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ونصره نصراً عزيزاً.

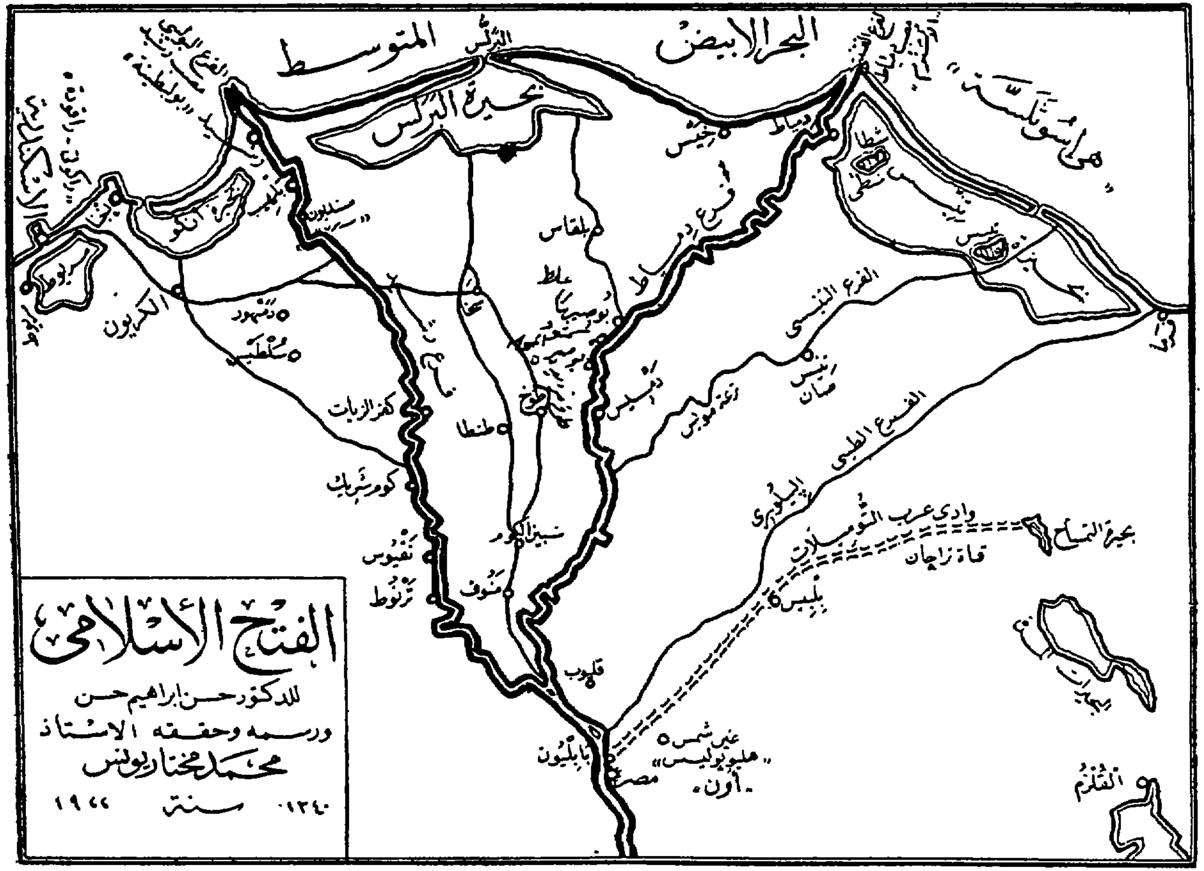
هذا ما ذكره لنا ابن عبد الحكم والمقريزى وغيرهما من المؤرخين المشهورين عن استئناف مسير عمرو من الفرما إلى بلبيس واستيلائه عليها. وهو كما لا يخفى قول مقتضب يحتاج إلى كشف الطريق الذى اجتازه عمرو، وهل هو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل، أم هو غير هذا الطريق؟ وما هى المدن التى مر عليها عمرو، واستولى عليها فى طريقه؟

هذا ما أردنا أن نقف عليه، وقد كفانا «بطلر» مؤونة البحث الكثير فنقول:

ومن هذه البقعة الريفية المغطاة بالملح التى تحيط بالفرما، مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت إلى رمال حتى وصل إلى مجدل[1] نحو الجنوب والغرب، ومن ثم إلى الجهة

---

١ - مجدل مدينة قديمة تلى الفرما وواقعة فى الصحراء على مقربة من شاطئ البحر.


الفتح الإسلامي
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
البحر الابيض المتوسط
بحيرة البرلس
بحيرة ادكو
مريوط
الكريون
دمنهور
كفر الزيات
كوم شريك
نقيوس
ترنوط
طنطا
منوف
شبين الكوم
بلقاس
فرع دمياط
دمياط
الفرع التنيسى
الفرع الطبلى
قليوب
بابليون
مصر
عين شمس
هليوبوليس
أون
بلبيس
قناة زاجان
بحيرة التمساح
القلزم

المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس، حيث يتغطى سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب، وفى خلالها بقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب.

ثم أخذ فى السير إلى الصالحية أو القصاصين، ومن ثم اتجه منحرفاً نحو الجنوب مجتازاً تلال وادى الطميلات[1] (رأس الوادى) على مقربة من التل الكبير الآن وقريباً من بلبيس.

وقد أتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقًا غير هذا مثل قمبيز الذى سار من الفرما متجهًا نحو الغرب إلى سنهور وتنيس (صان الحجر)، ومن ثم إلى بلبيس، ولكن فى هذا الوقت (أى حين الفتح الإسلامى) انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره. إذ لم يكن لدى عمرو وجنده (وكانوا فرساناً) من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور.

ونرى أن عمراً لو اتخذ غير الطريق الذى اتخذه لنفدت قوته قبل أن يصل إلى حصن بابليون وهو بيت القصيد، لأن هذا مما يعيق سيره ويتطلب بذل مجهود كبير للاستيلاء على المدن واحدة فواحدة، وترك قوة فى كل منها حتى لا يقطع الروم عليه خط الرجعة لو أرغم على الارتداد.

وقد كان الأرطبون[2] قائد الروم فى بيت المقدس بالأمس قائدهم فى بلبيس اليوم. ولابد أن يكون قد عول على الثبات والمقاومة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. أراد أن يوقع داهية الروم بالعرب ويهزم

---

١ – وموقعة بقرب التل الكبير.

٢ – وقد فر الأرطبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب.

داهيتهم عمراً، فأخذ المسلمين على غرة وداهم معسكرهم فى جنح الليل، ولكن أبى الله إلا هزيمة الأرطبون حيث قطع المسلمون قوته إرباً، ولكن ما فتئت بلبيس ممتنعة على عمرو شهراً كاملاً، لم ينقطع فيه القتال، حتى استولى عليها بعد أن لحقت بجنده بعض الخسائر، ولكن خسارة الروم كانت فادحة إذ قتل منهم ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف، وكان ذلك سنة ٦٤٠م وسنة ١٩هـ. وبهذا أصبح عمرو على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا.

هـ - استيلاء عمرو على أم دنين[1]

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس تقدم حتى أتى (أم دنين) شمال بابليون، وقد ذكر هذا الموضع كل من ياقوت والمقريزى وابن عبد الحكم، أن أم دنين هى المقس وكانت واقعةعلى النيل، وتقع فيها حديقة الأزبكية الآن تقريباً (عند جامع أولاد عنان) وفى هذه الجهة نشب القتال بين المسلمين والروم. وكان هؤلاء قد أعدوا للقتال عدته، وعولوا على الثبات فى هذا الموقع الحصين، بما فيه من المرفأ والسفن مما جعل له الأهمية الحربية العظمى.

وقد احتدم القتال بين الفريقين عدة أسابيع، وأبطأ على عمرو الفتح، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده فأمده بأربعة آلاف مقاتل، وفيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد[2].

---

١ - أم دنين (بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون): موضع بمصر ذكر فى أخبار الفتوح - قيل هى قرية كانت بين القاهرة والنيل ختلطت بمنازل ربض القاهرة. وكان اسمها قبل الفتح «تندونياس» التى سماها العرب فيما بعد المقس، وقد ذكر هذا الاسم الرومانى «بطلر» نقلاً عن «يوحنا اسقف نقيوس».

٢ - كان الأربعة القواد العظام الذين اعتبر عمر كلا منهم بألف رجل: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، من نخبة الصحابة رضى الله عنهم. وممن شهد فتح مصر من الصحابة أيضاً غير عمرو بن العاص؛ خارجة بن حذافة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب؛ وقيس بن أبى العاص السهمى، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح؛ وشرحبيل بن حسنة. وأبناه عبد الرحمن وربيعة، ووردان مولى عمرو بن العاص، ومحمد بن مسلمة الأنصارى. وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وغيرهم من مشاهير الصحابة وصناديد العرب.

وقد كان مركز عمرو حين حصاره لأم دنين من أحرج المراكز، إذ استولى اليأس على قلوب المسلمين لمن كان يقتل منهم كل يوم. أجل كبّدَ المسلمون الروم الخسائر الفادحة، ولكن كانت خسارة المسلمين كبيرة لقلتهم، وخسارة الروم قليلة بالنسبة لكثرتهم، وإن كانت فى نفسها عظيمة. لهذا بعث عمرو إلى عمر يلح فى إرسال المدد على جناح السرعة، ولبث تحين قدومه على غير جدوى.

قال «بطلر»: فرأى عمرو أن يحول وجهه شطر الفيوم فيستولى على هذا الإقليم. أهـ.

ولكن لم تكن همة عمرو العالية وعزيمته الماضية بالتى تتأثر إلى هذا الحد، فألى على نفسه أن لا يجعل لليأس سبيلاً إلى قلبه، فلا يطمع العدو فيه، فقوى نفوس المسلمين، ولم تكن إلاَّ عشيةً أو ضحاها حتى اقتحموا الحصن وغلبوا الروم على أمرهم، واستولوا على سفنهم التى أفادتهم فيما بعد فائدة تذكر.

و - عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس

اضطربت كلمة المؤرخين في ترتيب وقائع الفتح الإسلامي لمصر اضطراباً لا يقل عنه في ترتيب وقائع الشام، وأغفل بعضهم ذكر بعض الوقائع الهامة، ومن ذكرها منهم فقد مرَّ عليها مسرعًا بطريقة لا تشفي الغلة، ولا تكشف اللثام عن كنه الحقيقة، ولا يتيسر لنا بذلك الإقرار بصحة ما ذكروه أو دحض ما قالوه، وللأسف لم يقتصر هذا الأمر على مؤرخي العرب فحسب، بل تعداهم إلى غيرهم من الفرنجة. ولكنه عند هؤلاء أخف وطأة منه عند العرب. وقد رأينا أن نأتي بما ذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن ترتيب هذه الوقائع، ثم نأتي برأينا ونؤيده بالأسباب التي حملتنا على هذا الإقرار. وليكن كلامنا على غزو الفيوم وواقعة عين شمس. اللتين هما جوهر الخلاف بين المؤرخين فنقول:

من المؤرخين من ذكر وقائع مصر على هذا الترتيب: العريش. الفرما. بلبيس. أم دنين. بابليون. وهم ابن عبد الحكم والمقريزي والسيوطي. والظاهر أن هؤلاء استقوا تواريخهم من مصدر واحد، وهو ابن عبد الحكم (وهو أقدم مؤرخي مصر) إذ العبارة واحدة لا تختلف حتى في اللفظ - وزاد عليهم (بطلر) أن غزو الفيوم وموقعة (هليوبوليس)كانتا قبل حصار بابليون أو قصر الشمع.

وقد ذكر الواقدي ورفيق بك العظم هذه الوقائع على الترتيب السابق عدا واقعة أم دنين فقد أغفلت. وكذلك واقعة عين شمس.

وذكر الطبري وعنه أخذ ابن خلدون الوقائع مرتبة على هذا النمط: الفرما. بلبيس. عين شمس. وقد زعما أن استيلاء عمرو على عين شمس. حيث كان جمع الروم (والذي نراه أنهما يقصدان بابليون) ومنها أرسل أبرهة بن الصباح إلى الفرما، وبعث عوف بن مالك إلى

الإسكندرية فى أن واحد، وهذا خطأ كما سيظهر من أن عمراً هو الذى توجه بنفسه إلى الإسكندرية عقب. حصار حصن بابليون، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون قد أرسل بعض الجنود لمشاغلة الروم قرب الإسكندرية وليمنعهم من إسال المدد إلى بابليون. وإن كنا لم نعثر فيما رأيناه من التواريخ على رأى يؤيد ذلك. ولم يذكر (إيرفنج) و(موير) غير واقعتى الفرما وبابليون. وأطلق الأخير منهما على واقعة بابليون - (هليوبوليس) كما فعل الطبرى وابن خلدون.

يعلم من ذلك مبلغ اختلاف هؤلاء المؤرخين، ومن سار على أسلوبهم، وإذا وفقنا بين ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه، وبين (بطلر) (عدا غزو الفيوم) أصبحت وقائع الفتح الإسلامى مرتبة على هذا الترتيب:- العريش . الفرما. بلبيس. أم دنين. هليوبوليس. قصر الشمع.

والآن نتكلم بإيجاز عما ذكره (بطلر) عن غزو الفيوم وواقعة عين شمس، ثم نؤيد رأينا بالبراهين الدالة على صحة ماذكره «بطلر» أو دحضه فنقول:

ا - غزو الفيوم(١)

لما استولى عمرو على أم دنين الواقعة على النيل أصبح تحت إمرته سفن كثيرة، ولما رأى أن مامعه من المقاتلة لا يكفى لفتح حصن

---

١ - قال «بطلر» مؤيداً قوله بما نقله عن يوحنا اسقف نقيوس الذى يعتبره اكبر حجة فى سرد ووصف وقائع فتح مصر: ولا ريب كما يلوح لى أن غزو الفيوم حدث فى الوقت، وعلى الترتيب الذى ذكرته وان هذا الترتيب لم يذكره اى مؤرخ من مؤرخى العرب أهـ. وهذا حقيقى كما يظهر مما ذكرناه عند كلامنا على اختلاف روايات المؤرخين فيما يتعلق بترتيب الوقائع - وهذا يخالف ما ذكره السيوطى (جـ١ ص٦٢) أن عمرو بن العاص لم يتم له فتح الفيوم إلا بعد سنة، وكذلك البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) فإنه ذكر أن الفيوم والوجه القبلى عموماً قد فتحت بعد استيلاء العرب على حصن بابليون.

بابليون، ولم يكن قد وصل إليه المدد بعد، أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج في القوارب إلى الفيوم ماراً بمدينة «منف» الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل تجاه حصن بابليون فاستولى عليها، واستأنف مسيره حتى صار على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم على مقربة من مدينة اللاهون الواقعة على بحر يوسف حيث عسكر بها الروم.

فتقدم عمرو إلى البهنسا، واستولى عليها فاقتفى «يوحنا» قائد الروم أثره بقوة صغيرة مؤلفة من خمسين مقاتلاً من الروم لاستطلاع حركات المسلمين على أن هذا القائد شعر بخطورة مركزه فعرج على معسكره في «أبواط»[1] فأدركه عمرو وقتل الروم في هذه الجهة عن آخرهم.

لا يمكننا أن نفهم ما يقوله «بطلر» من أن عمرو بن العاص يزاول موقعه، ويترك البلاد التي افتتحها ورسخت أقدامه فيها، ويترك العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ويذهب إلى الفيوم والبهنسا، وإذا كان فعل ذلك فأي مانع للروم من أخذ هذه البلاد وإعادتها إلى حكمهم، وشحنها بالمقاتلة وقتال المدد الذي يأتي إلى عمرو عن كل شبر من الأرض، فيفت ذلك في عضدهم. على أن حدوث وقائع البهنسا ونحوها من بلاد الصعيد لم نقف عليه في كتاب يقام له وزن. والذي يغلب على ظننا أن «بطلر» وقف على بعض القصص الموضوعة على الخيال. فذكر البهنسا ووقائع المسلمين فيها، ورأى العامة من المسلمين يعتقدون أن لهم شهداء، فلم يجد طريقاً للجمع بين الأخبار الصحيحة وبين ذلك إلا بأن يذكر ذهاب عمرو بجنده إلى الفيوم.

---

١ – يقول املينو: إن هذه المدينة بمديرية بني سويف قريبة من بوصير وواقعة شرقي حجر اللاهون تماماً.

والذى يكاد يكون اعتقاداً لنا أن الشهداء بالبهنسا إنما هم شهداء الأقباط الذين قتلوا فى عهد الاضطهاد. فلما غلب الإسلام وكان اسم الشهداء غالباً دعوهم بغير سلطان أتاهم.

ولما سمع «تيودور» قائد الروم بما حل بجنده فى هذه الواقعة أسقط فى يده، واستدعى جميع جند الروم من كافة أرجاء الديار المصرية ليعزز بهم حصن بابليون، وفى هذا الوقت انسحب عمرو من البهنسا مركز قيادته من غير أن يتغلب على مدينة الفيوم[1] ولكنه تمكن من ضرب الروم فى عدة وقائع وأمن الأخطار التى قد تحدق به لو بقى فى أم دنين حيث شغل جيشه فى مكان أبعد خطراً ريثما يأتى إليه المدد. وسار عمرو فى النيل على جناح السرعة ليلحق بالمدد الذى علم بدنوه من عين شمس، حيث التقى بأربعة آلاف مقاتل[2] مدداً من عمر بن الخطاب وعليهم الزبير بن العوام.

وقد ابتدأت غزوة الفيوم عى ماذكره «بطلر» فى نحو أوائل مايو سنة ٦٤٠م، واستغرقت عدة أسابيع كانت نتيجتها فى مصلحة

---

١ – بطلر ص ٢٢١ – ٢٢٩ باختصار.

٢ – اختلف المؤرخون فى هذا العدد. فذكر ابن عبد الحكم انهم كانوا أربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، وعنه أخذ (جبون) وأخرج ابن عبد الحكم ايضاً أن عمر بن الخطاب بعث الزبير بن العوام فى إثنى عشر ألفاً، وذكر السيوطى والمقريزى انهم كانوا أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل بمقام ألف بحيث أصبح جيش عمرو على هذا الزعم اثنى عشر ألفاً. وذكر البلا ذرى أنهم كانوا عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً. وقال ياقوت: وقيل إن المدد كان أثنى عشر ألفاً. وذكر الكندى والسير (وليم موير) أن جند عمرو أصبح بعد وصول المدد خمسة عشر ألفاً وخمسمائة. وذكر «يوحنا اسقف نقيوس» أن المدد كان أربعة آلاف. ولا يمكننا الاهتداء إلى رأى قاطع لاختلاف هذه الروايات، إنما نرجح أن المدد لم يزد عن اربعة آلاف، إذ لا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر بأربعة آلاف مقاتل ثم يمده عمر بضعف هذا العدد. وربما بلغ المدد إثنى عشر ألفاً بالتدريج.

المسلمين. وفى ٦ يونية وصل المدد إلى (هليوبوليس) أو عين شمس التى اتخذها عمرو مركزاً لقيادته، وشرع يعد للموقعة الدائنية عدتها.

٢ - واقعة هليوبوليس:

أما «تيودور» قائد الروم فقد عوّل على أن يسير بعشرين ألفاً من جند الروم يريد أن يزحزح بهم جند المسلمين عن (هليوبوليس)، على أن هذا الرأى كان ولا ريب فى مصلحة عمرو بن العاص الذى رغب فى أن يشتبك مع الروم فى العراء. حيث يسهل عليه كسرهم أكثر مما لو تحصنوا فى حصن بابليون المنيع. فزحف «تيودور» على عين شمس فوضع عمرو كميناً فى موضع خفى من الجبل الأحمر[1] وآخر فى النيل قريبًا من أم دنين ولاقى (تيودور) بالفريق الأكبر من الجيش. ونشب القتال فى منتصف المسافة بين الجيشين تقريبًا فى حى العباسية الآن. وقد أيقن الفريقان أن على النجاح فى هذا الميدان يتوقف حظ مصر، فحمى وطيس القتال بين الفريقين، ولما بلغ أشده خرجت قوة خارجة بن حذافة من الجبل وانقضت كالصاعقة على ساقة الروم. فاختل نظام جندهم وعرجوا إلى الغرب نحو أم دنين. فقابلتهم قوة العرب وأصبحوا بذلك بين جيوش العرب الثلاثة التى سحقتهم سحقاً فلم يبق منهم سوى عدد قليل سار بعضهم فى النيل وفر البعض الآخر رجالاً إلى بابليون[2].

وقد ذكر «تاريخ مصر إلى الفتح الإسلامى» المقرر تدريسه بالمدارس الثانوية أنه لم يبق من جند الروم عقب هزيمتهم فى واقعة عين شمس سوى ٣٠٠ مقاتل. وقد أخذ هذا من كتاب (بطلر) الذى يقول: إن العرب المنتصرة استولوا ثانية على أم دنين، وقد قتل جميع

---

١ - شرقى العباسية.

٢ - ستانلى لين پول ص٥، بطلر ص ٣٢٠ - ٣٢٣.

حـاميـة الروم فى هذا الحصن فى المـعـركـة إلا ٣٠٠ مـقـاتل، ويؤيد ذلك أيضـًا مـا ذكـره «لين پول»: واحـتل المسلمـون تندونيـاس (أم دنين) التى هـلكت حاميتها إلا ٣٠٠ مقاتل.

إلا أنه لا يعـقل أن يفقـد الروم تسعـة عشـر ألفاً وسـبعمـائة مقـاتل من جندهم، وعدده لم يزد على عشرين ألف مقاتل.

اعـتمد (بطلر) على تاريخ (يوحنا أسـقف نقـيـوس) فيـمـا يتـعلق بغزو الفيوم وواقـعة عين شـمس مرجحـاً مـا ذكره هـذا المؤرخ على غيره من مـؤرخى العرب الذين لم يرد فى تواريخـهم ذكر لغـزو الفيـوم، اللهم إلا مـاذكره بعضـهم سيمـا «السيوطى» أن فتح الفيوم لم يتم إلا بعد سنة: أى بعد حصن بابليون.

وقـد استـدل «بطلر» على ترجيح «غزو الفـيوم» قـبل فتح حـصن بابليون بأن عمـراً تأكد أنه لا يتسنى له أن يقتـحم الحصن بجنده القليل، فرأى أن يشـغل جنده فى جهـة بعيدة الخطر كـالفيـوم، فيفت فى عـضد العدو بانتـصاره عليه فى سلسـلة وقائع جزئيـة. على أنه فات «بطلر» أن هـذا مما كان يجـعل جند عمـرو فى أحرج المراكز، إذ يتـسنى بذلك للروم أن يسـتـردوا مـا اسـتـولى عليه عـمـرو من المـدن، فـتـضـيـع منه العـريش والفرمـا وبلبيس وأم دنين وغيـرها، فيقـطعون عليه خط الرجـعة. أضـف إلى ذلك أن مـسـيـر عـمـرو إلى الفـيـوم كان فى النيل الـذى يشـرف عليـه حـصن بابليـون، فـيـتسنى لـلروم أن يلحـقوا بالمسـلمين خـسـارة فـادحـة أثناء مـرورهـم فى النيل. وعلى هـذا يضـطر المدد لاسـتـرداد هـذه المدن من الروم أثناء مـسـيـره إلـى (هـليـوبوليس) فـتـحـلـق به خـسـارة كـبـيـرة فى طريقه. ولـم يثبت مما رأيناه من التـواريخ أن هـذا المـدد قد لاقى أية مقاومة قبل وصوله إلى (هـليوبوليس) والظاهـر أن «بطلر» قد اعتمد على ما رآه فى بعض التـواريخ عن شـهـداء البـهنسـا التـى حدثت فـيـهـا مـوقـعـة بين

الروم والمسلمين على مارواه عن يوحنا أسقف نقيوس، فتوهم أن هذا حدث عند غزو الفيوم التى استولى عليها العرب بعد حصن بابليون من غير حرب أو قتال. ولعل هذا الحادث يرجع إلى قتل الروم لليعاقبة، فأطلق على القتلى الذين استشهدوا بالبهنسا «شهداء البهنسا» فتوهم البعض أن هذا كان وقت الفتح الإسلامى، وليس ببعيد أن يكون عمرو قد وقف على حصار حصن بابليون حتى وصل إليه المدد، فشرع يعمل لفتحه.

أما عين شمس فكان من السهل أن يستولى عمرو عليها قبل حصاره حصن بابليون، لأنه لم تكن بها حامية كبيرة من جهة، ولأنها كانت فى طريقه. وربما استولى عليها قبل أم دنين، ثم نشب بينه وبين الروم القتال بعد وصول المدد إليه من عمر على أثر تقهقره إلى هذه المدينة. حيث رأى من مصلحته الحربية أن يستدرج الروم إلى العراء فيضعف حامية الحصن، فلا تقوى على المقاومة طويلاً.

٢ - حصار عمرو لحصن بابليون

وقبل أن نطرق هذا الباب يحسن أن نعرف مَن المقوقس

أ - المقوقس

اتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم وقت فتح مصر، وأنه هو الذى صالح العرب عليها. ولكن اتفاقهم وقف عند هذا الحد، فاختلفوا في اسمه وجنسه ووظيفته، والعمل الذى عمله، ومعنى اللقب الذى عُرف به. وقد كثر الجدال فى هذه المسائل الآن، وللأسف لم تؤد هذه المناقشات إلى رأى قاطع يمكن أن نتخذه حجة دامغة، بحيث يكفى الغير مؤونة البحث.

ومن المؤرخين الذين عُنوا باستطلاع خبر المقوقس عناية خاصة الدكتور (بطلر) فى كتابه (فتح مصر والاسكندرية) (ص٥٠٨ - ٥٢٦) حيث أفرد له باباً خاصاً، والمسيو (أميلينو) الذى كتب مقالة شائقة فى المجلة الأسيوية فى نوفمبر سنة ١٨٨٨م تقع فى أكثر من عشرين صحيفة (ص ٣٨٩ - ٤١٠).

وقد اتفق هذان المؤرخان على أن المقوقس كان عاملاً على مصر من قبل الروم، وبطريرقاً ملكياً، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى. أما مؤرخو العرب فقد خبطوا فى هذا الموضوع خبط عشواء. وقد رأينا أن ننقل بعض ماذكره (بطلر) وغيره من أقوال كثيرين من المؤرخين الأوروبيين المحدثين فنقول:

قال المؤرخ «فون رانكى» إن المقوقس كان واليًا على مصر، وأنه من القبط. و«دى غويه» الذى قال: يظهر أن مؤرخى العرب خلطوا أحياناً بين المقوقس وفيرس بطريرق الإسكندرية، مع أنهما شخصان

مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين. والمستر «ملن» الذى قال فى كتابه «مصر فى عهد الرومان» إن المقوقس هو «جُريج بن مينا» الذى ذكره «يوحنا أسقف نقيوس» وقال إنه كان واليًا على أتريب، وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب (ص٢٢٤) و«ستانلى لين پول» (ص٦) يميل إلى رأى المستر «ملن» فيما يتعلق باسمه، بالرغم مما ذكره مؤرخو العرب، وهو أنه كان والياً على ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولكنه اتفق مع هؤلاء على أنه كان من القبط... وقال الأستاذ «بُرى» فى كتابه (الإمبراطورية الرومانية فى عهدها الأخير) إنه كان والى مصر كلها، وكان من القبط.

ونحن نزيد على ما نقلناه عن مؤرخى الأفرنج ما قاله «جبون» (جـ٩ ص٢٦٨) وهو أن المقوقس كان مصرياً وثرياً نبيلاً، وما قاله «إيرفنج» (ص ١٠٨) وهو أنه كان والى مصر؛ وكان من عنصر مصرى (أعنى قبطيًا) وفى مرتبة الأمراء أو النبلاء، وأنه كان منافقًا عظيمًا، وكان يعقوبى الذهب. ولننقل ما قاله بعض مؤرخى العرب المعدودين فى هذا الصدد فنقول:

١ – قال البلاذُرى فى «فتوح البلدان» (ص٢٢٢ – ٢٢٣ – ٢٢٨) إن المقوقس صالح عمرا، ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه (هرقل) وأنه اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول. وذكر بعض الرواة أنه كان قد مات قبل مجئ (منويل) لاسترداد الإسكندرية. ويظهر من هذا أن البلاذرى لم يسم لنا المقوقس.

٢ – وقال الطبرى (ص٢٢٧) : فلقيهم هنالك (أمام حصن بابليون) أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف، بعثه

المقوقس لمنع بلادهم، وقال فى مكان آخر إنه (المقوقس) صاحب الإسكندرية.

٣ - وقال سعيد بن البطريق[١] : إن المقوقس كان ملكيًا وكان عامل الخراج على مصر من قبل (هرقل)، وكان يعقوبياً فى الباطن ملكيًا فى الظاهر، وكان أيضًا قد أقطع أموال مصر حين حاصر الفرس القسطنطينية.

٤ - وقال (ساويرس بن المقفع)[٢] أسقف الأشمونين فى كتابه «سير البطارقة»: ولما ملك (هرقل) أقام الولاة فى كل موضع، وأنفذ إلى مصر (فيرس) ليكون واليًا وبطريركًا. فلما وصل إلى الإسكندرية أعلم الأب بنيامين ملاك الرب به، وأمره أن يهرب هو ومن معه ههنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم ... ثم قال عن سنى الاضطهاد: وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر... وقال أيضًا فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس، وأيضًا: خاف (بنيامين) الكافر - وهو كان والى الإسكندرية

---

١ - هو سعيد بن البطريق بطريرق الإسكندرية. قال فى «عيون الأنباء» إنه من أهل فسطاط مصر، وكان طبيبًا نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعمله. ولد سنة ٢٦٣هـ وجعل بطريرقاً على الإسكندرية وسمى «أوتيخوس» وعمره نحو ستين سنة، وبقى فى الكرسى والرئاسة نحو سبع سنين وستة أشهر ومات سنة ٣٢٨ للهجرة. وله كتب كثيرة فى الطب والتاريخ.

٢ - قال (بطلر) إنه أسقف قبطى كتب تاريخ البطارقة. ويوجد من كتابه ثلاث نسخ معروفة، واحدة فى المتحف البريطانى وهى من القرن الخامس عشر، وواحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر، والثالثة أقدم منهما، وهى عند مرقس سميكه بك (باشا) فى القاهرة. وكانت فى القرن العاشر للميلاد، وفى نسخة باريس مقدمة لمحبوب بن منصور أحد شمامسة الإسكندرية كتبها فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر.

وبطريرقها وأخيراً يخاطب بنيامين نفسه عن سنى الاضطهاد «الذى نزل بى لما طردنى المقوقس». فيتبين مما يقوله ساويرس أن بنيامين قد طُرد من كرسى البطريرقية بمجرد وصول (فيرس)، فبناء على ما ذكره ساويرس هذا يكون فيرس هو المقوقس.

وبعد موت ساويرس مرت حقبة من الدهر لا تقل عن قرنين حتى جاء.

٥ - إبن الأثير فقال: فأخذ المسلمون (باب إليون) وساروا إلى مصر، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم... ثم قال: فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا، وسار عمرو إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه إلى ذلك. وقال: لقد لقينا ملككم الأكبر (هرقل) فكان منه ما بلغكم، فقال المقوقس لأصحابه صدق...[١] إلى غير ذلك من الخبط الكثير، ولا سيما فيما رواه عن تنسيق الحوادث التى وقعت فى أوائل الفتح.

٦ - وقال أبو صالح الأرمنى[٢]. وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد سير حاطب بن أبى بلتعه من لخم إلى المقوقس صاحب الإسكندرية (فى السنة السادسة للهجرة أى سنة ٦٢٧م). وقال فى الكلام عن دير فى الصعيد: وكان يأوى بنيامين

---

١ - الكامل لابن الأثير (جـ٢ ص٢٧٨ - ٢٧٩).

٢ - كان معاصراً لابن الأثير أو سابقاً له فقد قال فى أول كتابه: نبتدئ بعون الله وإرشاده أن فى عصرنا هذا فى ابتداء سنة اربع وستين وخمسمائه كان بناء الكنيسة التى على اسم مارى يعقوب بناحية البساتين.

مختفياً فى ملك هرقل الخلقدونى المذهب، وجُريج بن مينا المقوقس بمصر إلى انقضاء مدة عشر سنين خوفًا منهما كما أوحى إليه الملاك. ثم استرسل أبو صالح فى الكام فقال: وهذه كانت مدة عشر سنى الاضطهاد. وهى المدة التى قاسى منها الأرثوذ كسيون (القبط) صعوبات جمة. وقال أبو صالح: إنه وجد فى كتاب الجناح: وكان الأسقف من الروم بمصر والإسكندرية يسمى فيرس.

٧ – وقال ياقوت فى معجمه: إن أمير الحصن كان وقت الفتح المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى، الذى كان ينزل الإسكندرية.

٨ – وقال المكين إن المقوقس كان والى مصر من قبل هرقل، وأنه صالح عمراً هو وكبار القبط.

٩ – وقال ابن خلدون: إن المقوقس كان من القبط.

١٠– وقال ابن دقماق: إن المقوقس كان نائب هرقل وكان رومانياً.

١١– وروى المقريزى: ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ المندفور، الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى. وكان المقوقس ينزل الإسكندرية، وهو فى سلطان هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون. وتابع المقريزى ابن عبد الحكم فى إبقاء المقوقس إلى زمن فتنة «مانويل» وتابع ياقوت فى وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليونانى. وقال أنه كان للقبط بطرق فى الإسكندرية اسمه «أبو ميامين»، وأن المقوقس صالح العرب، لكن هرقل أرسل إليه يقبح رأيه.

١٢ – وقال الواقدى: إن ملك القبط كان يومئذ المقوقس بن راعيل.

١٣– وذكر أبو المحاسن أن بنيامين كان بطرق القبط بالإسكندرية وأن أمير الحصن يومئذ «المندفور» الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليونانى.

وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون. ونقل عن «ابن كثير» أن جاثليق مصر كان أبا مريامين.

١٤– أما السيوطى فلم يخالف أبا المحاسن فيما قاله.

ويظهر للمتأمل لما ذكره مؤرخو العرب مبلغ الخلط الذى وقعوا فيه من حيث تعدد الأسماء التى أطلقت على المقوقس، والاختلاف الكثير فى معرفة وظيفته ومذهبه وغير ذلك. ولكن يستخلص من التواريخ العربية أن هناك ثلاثة رجال وهم: المقوقس، وأبو مريم، والأعرج.

١ - الأعرج والأعيرج:

لقبه ياقوت «بالمندفور» ولعل النساخ حرفوها عن «المندطور»: أى الأمير. وتابعة أبو المحاسن والسيوطى وزاد الأخير فى تحريف هذه الكلمة فجعلها «المندفول». وقد رأى (بطلر) أن (الأعرج) تحريف كلمة (جُريج) وأن اسم أمير الحصن كان «جُريج» و«جورج». ويرى «لين پول» أن الأعرج أو الأعيرج ربما يشبه (أرطبون).

٢ - أبو مريم:

قال «لين پول» إنه جاثليق مصر، ومعنى جاثليق بطريرك. وقد ذكره أولاً بهذا اللقب الطبرى، لأنه لقب لبطارقة الكنائس النسطورية والأرمنية، وكان مألوفاً عنده لاتصاله ببلاد الفرس. وقال الطبرى إنه

كبير بطارقة النصارى، وكناه بأبى مريم. ومعلوم أنه كان فى مصر فى زمن الفتح بطرقان (قيرس) و(بنيامين): فابن مريم لا يصح أن يكون محرفًا من قيرس ولكن يصح أن يكون محرفًا من بنيامين، وزاد تحريف الاسم فى زمن ابن الأثير فصار «أبو مريم» وسماه السيوطى «أبا ميامين» وواضح أن بنيامين حرّف فصار أبا ميامين ثم أبا مريم.

٣ - المقوقس:

إن المؤرخين الأقدمين الذين أشرنا إليهم كالبلاذرى والطبرى وساويرس اسقف الأشمونين وابن الأثير لم يكنوا المقوقس. وأول من قال إنه ابن مينا، أبو صالح الأرمنى. وقال ياقوت: إنه ابن قرقب اليونانى.

وقد خطأ (بطلر) الطبرى لقوله إن المقوقس كان عظيم القبط، وإنه كان فى الحصن عند استيلاء العرب عليه، أعنى أنه لم يكن يعقوبياً، ولم يكن حاضراً فى الحصن عند اقتحام العرب له؛ وكذلك خطأ «أوطيخا» (وكان ملكيا) لقوله إن المقوقس كان يعقوبياً، لكى لا تقع على الملكيين تبعة ما فعله.

ثم قال (بطلر): لا يكشف ما غمض من أمر المقوقس إلا ساويرس أسقف الأشمونين. وقد ألف كتابه من كتب كثيرة كانت محفوظة فى المكتبة فى دير مقاريوس فى مجاميع خاصة. ولاشك فى أنه تصعب قراءة مؤلفة لعدم ضبطه وإتقانه. ومع ذلك فالمعلومات التى وجدتها فى كتابه جمة لا توجد فى المؤلفات القديمة التى أطلعت عليها. وهذا ما يقوله (ساويرس): أقام هرقل قيرس والياً على مصر بعد أن استردها الروم من الفرس ليكون بطريرقًا للإسكندرية، وأنه أقام عشر سنين اضطهد الكنيسة القبطية فيها اضطهاداً شنيعاً. وهذه المدة بينها بنيامين «بالعشر سنين التى أقام فيها هرقل والمقوقس مسلطين على

ديار مصر» ويلقب قيرس بالكافر الذى كان واليًا وبطريركًا للإسكندرية من قبل الروم. ويقول عن سنى الاضطهاد «الاضطهاد الذى نزل بى لما طردنى المقوقس»... ولم يبق إذ ذاك أدنى شك فى أن ساويرس جعل المقوقس هو «قيرس» وميزه من «بنيامين».

ثم أقام بطلر الأدلة على أن الأسقف ساويرس مصيب فيما ذكره وأن ما ذكره مورخو العرب خطأ محض.

والذى يظهر لنا مما ذكرناه أن مؤرخى العرب متفقون على المركز الذى كان يشغله المقوقس، وهو أنه كان والياً على مصر من قبل هرقل، وبطريركًا للإسكندرية، وأنه هو الذى صالح العرب. ولكن لم يتفقوا على حقيقة اسمه، بل شاع الخلط بينهم، وكذلك بين الأفرنج، ومنهم إميلينو الذى قال إن (قيرس) لابد أن يكون قد ترك مصر فى سنة ٦٣٩م، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل (قيرس) حيث يغلب على الظن أنه (المقوقس) كان عدو (قيرس). وبعد أن رجح «أميلينو» كون المقوقس ملكياً فى مقاله الذى نشره فى المجلة الآسيوية عارض نفسه فقال: إذا كان هذا صحيحاً (كون المقوقس ملكيًا) فكيف يتأتى لمؤرخى القبط الذين أرخوا تواريخهم بالعربية مثل أوطيخا والمكين وأبى الفرج أن لا يقولوا شيئاً عنها(١)؟

أما خلاصة ما ذكره إميلينو عن المقوقس فهى كما يأتى:

١ - ان المقوقس كان يسمى چورج بن مينا وابن قرقب، وينبغى أن يكتب ابن فرقب.

٢ - إن المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة. إن لم يكن من جهتين، وكان فى خدمة الإمبراطور (هرقل) وكان فى

---

١ - رد (بطلر) على هذا بقوله إن أبا الفرج لم يكن قبطياً البتة، ولا مصرياً، وكذلك أوطيخا، أما المكين فقد قال إنه مؤرخ، وليس من وراء تاريخه فائدة كبيرة.

الأصل ملكي المذهب.

٣ - وأنه كان بطريرقًا ملكيًا، ولا يمكن أن يُعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين.

٤ - إن لفظ المقوقس كان كنيةً مشتقةً من (كوكيون باليونانية)، اسم نوع من النقود. وكذلك قال (بيريرا) ولم يصوب (بطلر) هذا الرأى، بل قال إن اللفظ الحبشى لهذه الكلمة هو المقوقس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل (قيرس) إلى مصر من بلاد القوقاز، فلا يبعد أن يكون لقب فى مصر بالقوقاسى وهى (أوقوقاسيوس) باليونانية، و(بكوخيس) بالقبطية، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حرفت فى نقلها إلى العربية فصارت (مقوقس) أو قدمت عليها الميم للنسبة (كالمصر لمن أقام فى مصر).

أما الأمر الذى يهمنا بحثه وإبداء رأينا فيه بنوع خاص، فهو مذهبه، وهل كان المقوقس ملكياً أو يعقوبياً فنقول:

قد أورد أصحاب المقتطف (الجزء الثامن والعشرين سنة ١٩٠٣من (ص٢٣٢-٢٣٦) خلاصة ما ذكره (بطلر) عن المقوقس. وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم: ويظهر لنا أنه (بطلر) عن المقوقس. وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم: ويظهر لنا أنه (بطلر) حل عقدةً غامضة من عقد التاريخ، وأبان أن البحث الدقيق يجلوا أغمض المسائل. أهـ.

أما نحن فنعترف للدكتور بدقة البحث وإصابة الرأى، ولكن ليته حل حقيقة هذه العقدة أو تلك العقد المرتبطة باسمه وجنسه ومذهبه، فأنها لا تزال مستعصية عليه كما شاهدنا.

ونحن نذكر ما عسى أن يكون له مساس بما ذكره (بطلر) خاصاً

بمذهب المقوقس، أيعقوبيًا كان أو ملكيًا، وإذا كان ملكيًا فلم صالح العرب وساعدهم؟

مما تقدم يعلم أن «بطلر» اعتمد على مارواه ساويرس أسقف الأشمونين من أن المقوقس كان ملكياً، فجزم بصحة ماذكره ساويرس وأنه طرح كلام مؤرخي العرب والأفرنج جميعًا، بعد بحث طويل ومجهود كبير، وأن ماذكره سواه خطأ محض، فبنى حكمه على ما قرأه في كتاب هذا الأسقف. ولكن للأسف قرر بطلر في سياق مدحه له أنه يستحيل على القارئ قراءة كتاب ساويرس لنقص في الإتقان، وكيف يجزم بطلر بصحة ماذكره ساويرس وكتابه مهمل عديم التنسيق؟

فإذا سلم بطلر بأن (أوطيخا) الملكي المذهب قد جعل المقوقس يعقوبيًا لكي لا تقع على الملكيين تبعة عمله، فلم لا يظن أيضًا أن (ساويرس) اليعقوبي المذهب قد جعله ملكياً لأنه خان البلاد وصالح العرب عليها كما عدّ غيره من المؤرخين عمل المقوقس خيانة عظمى ومن بينهم بطلر؟

وإذا كان المقوقس رومانيًا ملكياً محبباً للروم لا يخشى سوءاً إذا احتفظ بمصر فلم التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكي؟ وقد قدمنا أن اليعاقبة كانوا يعتبرون مجرد الاشتراك مع الملكيين في أي عمل خيانة عظمى لا تغتفر.

وإذا كان المقوقس ملكي المذهب، وأنه هو الذي نكل بالقبط عشر سنين فكيف يعقل أن يكون القبط في صفه، وأن تتركه الروم وشأنه ولم ينقض الصلح مع القبط، بينما استمر الروم في الدفاع عن البلاد إلى النهاية؟

لهذا لا نوافق (بطلر) ولا غيره منالمؤرخين الذين رأوا أن المقوقس

كان ملكياً، ونميل إلى القول بأن المقوقس كان قبطياً يعقوبى المذهب من أصل يونانى، عينه (هرقل) لما رأى فيه من الحزم والنبل واحترام القبط له، وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الأفعال. وإذا كان ملكياً فى الظاهر، ولكنه اعتنق المذهب اليعقوبى سراً، كى لا يعلم بذلك (هرقل) فينقم عليه، ويصب عليه جام غضبه، وإذا قيل إن البطريرق (بنيامين) فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته إلى مصر قبيل الاضطهاد الذى دام عشر سنين، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على (بنيامين) بالالتجاء إلى أحد الأديرة كى ينجو من ظلم الروم.

والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التى قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره فيمثل به (هرقل) رواية الغدر، لأن الروم كانوا يقتفون أثر من اشتهر بمخالفة مذهب خلقدونية أو عرف بالميل إلى اليعاقبة أعداء هذا المذهب، ولا يبعد أن يكون (قيرس) والمقوقس شخصين مختلفين كما رأى أيضًا دى غويه، فكان للأول السلطة العسكرية، وللثانى السلطة المدنية. وكان (قيرس) ملكياً متعصباً لمذهبه فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاء الديار المصرية، ولم يكن للمقوقس وهو الحاكم الملكى للبلاد من النفوذ والقوة بحيث يتمكن من إيقاف تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة. فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر، وأن البلاد واقعة لا محالة فى أيديهم، وأن سلطان الروم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال، سُرعان ما اتجه بقلبه وقالبه إلى العرب، وعمد إلى ممالأتهم هو والقبط، لأنه كان له نفس طموحه.

هذه كلها فروض نفرضها، ولكننا لا نستطيع أن نزعم صحتها لنقص الأدلة التاريخية.

٢ - حصار عمرو لحصن بابليون
ب - ومراسلة المقوقس عمرًا بشأن الصلح

لما تم للمسلمين النصر على الروم فى واقعة عين شمس (هليوبوليس) سار عمرو لحصار حصن بابليون أو قصر الشمع فى أوائل سبتمبر سنة ٦٤٠م وسنة ٢٠هـ: أى زمن فيضان النيل. وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشامخة يحيط بها النيل، وقد ارتفع ماؤه فامتلأ الخندق الذى حوله. وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار، بل وغير قادرين على استعمالها استعمالاً يكفل لهم أن يلحقوا بالروم خسارة كبيرة. كل ذلك أطال أمد الحصار حتى بلغ سبعة أشهر – كما اتفق المؤرخون على ذلك.

ولما حاصر المسلمون (بابليون) أو (باب إليون) كان بالحصن حاكم مصر المقوقس وكان قائد الحماية رجل يقال له الأعرج. ولم تكن قوته بأكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف مقاتل على مارواه (بطلر) ولكنا نشك فى صحة هذا العدد ونرجح أن يكون أكبر من هذا بكثير لورود الفالة إليه بكثرة عقب الوقائع المتقدمة.

صفَّ عمرو جند المسلمين حول الخندق ووضع عليه المنجنيق. وهو أعظم آلات الحصار إذ ذاك، وقد جعل الروم للخندق أبواباً وجعلوا حسك الحديد (الأهرام الفارغة) موتدة بأفنية الأبواب، وظل القتال بين الفريقين شهراً كاملاً. ولما رأى المقوقس الجد من العرب، وصبرهم على القتال، وأنهم سوف يقتحمون الحصن، خرج هو ونفر من قومه من الباب القبلى حتى لحقوا بالجزيرة، حيث أرسل المقوقس إلى عمرو ابن العاص:

إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم

فى أرضنا، وأنتم عصبة يسيرة. وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل. وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه. ولعلكم تندمون أن كان الأمر مخالفاًلطلبتكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن وهم به من شئ. أ هـ.

وقد أخطأ المقوقس فى فهم عمرو بن العاص، فخفى عليه أنه لا يؤتى بالتهديد والتخويف، فأرسل إليه مع رسله هذه العبارة التى تشتم منها رائحة الإرهاب والتهديد إذ توهم أن جموع الروم وما معهم من العدة والسلاح تحول دون تنفيذ إرادة عمرو أو تؤثر فيما أوتيه من صدق الإيمان وحسن اليقين وعدم المبالاة بالموت ابتغاء مرضاة الله ونصرة الإسلام.

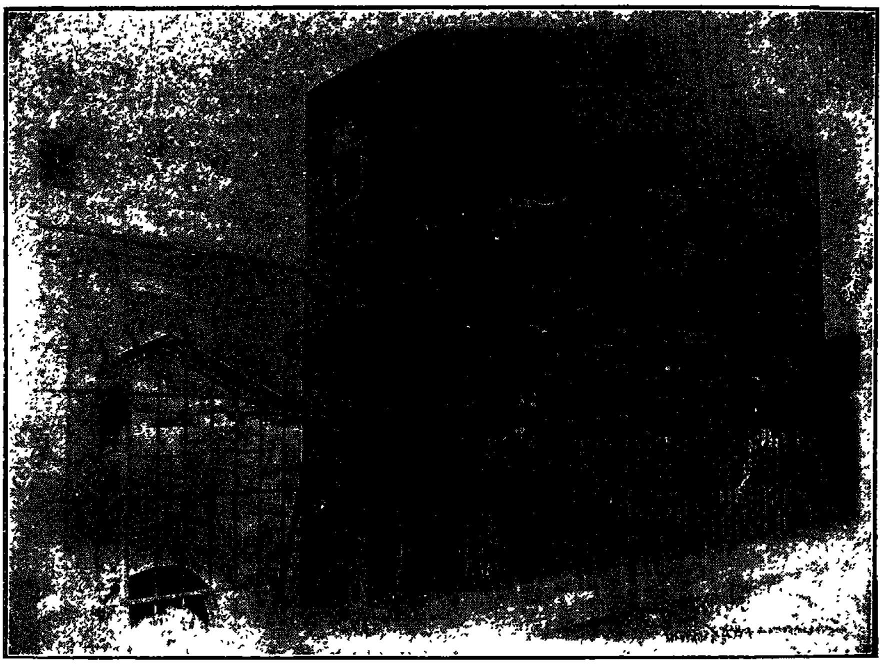
فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لقومه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم؟ ولم يدر المقوقس أن عمراً إنما أبقاهم ليروا حال المسلمين. وبعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلاً: إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:

١ – أما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا.

٢ – وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣ – وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

سر المقوقس بقدوم رسله، وسألهم عن حال العرب فأجابوا:



حصن بابيلون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح

رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة - ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم.

فأرهب المقوقس هذا الكلام، وعلم أن قومًا هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن، وينتصرون عليهم. وأشار على قومه باغتنام فرصة الصلح قبل فواتها. فأجيب إلى طلبه، فأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلاً منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح للفريقين.

فبعث عمرو بن العاص إليهم عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم - وأن لا يجيبهم إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث - فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس، هاب هذا عبادة لسواده وفرط طوله، وأراد أن يتقدم إليه غيره ليكلمه فقال المسلمون: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنا نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به. أهـ.

ونحن نرى أن المقوقس قد توهم أن عمرواً أمر عبادة - هذا الأسود - أن يكون متكلم القوم تصغيراً لشأن المقوقس، وإلا فإن المقوقس لم يعدم أن يكون فى قصره العشرات من العبيد.

فلم ير المقوقس بداً من محادثة ومفاوضة عبادة. وابتداء هذا الحديث وقال: إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيًا، ولا طلب للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحلّ لنا ذلك؛ وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالاً. وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب، أو كان لا يملك إلا رهماً؛ لأن غاية أحدنا

من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله، واقتصر على هذا الذى بيده. إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وبذلك أمرنا الله، وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه. أهـ. باختصار.

فأمَّن المقوقس على كلام عبادة، وأراد أن يسلك طريق الأرهاب المصوغ فى قالب النصيحة فقال: أيها الرجل قد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوام لكم به. أهـ.

فقال عبادة: يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه... إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك. وإن الله عز وجل قال فى كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساء أن يرزقه الشهادة، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، فانظر الذى تريد فبيِّنه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل. أهـ.

فألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال. فرفع عبادة يديه وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شئ، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم. فقال المقوقس لمن حوله: أجيبوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين(١). أهـ.

رجع المقوقس وأصحابه إلى الحصن حيث عقد اجتماعاً يعرض عليه حالهم وحال المسلمين إزاءهم، فأبوا أن يذعنو لسلطان العرب وخالفوا المقوقس، وقبحوا رأيه، وعولوا على مواصلة القتال.

ومن هنا ظهر الخلاف بين روايات المؤرخين ظهوراً بيناً بحيث يصعب أن نقف على ما كان بين المسلمين والروم قبل أن يعقد المقوقس مع عمرو الصلح، ويكتب بذلك إلى هرقل.

١ – ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى: أن شروط عمرو قد رفضت فألح المسلمون عند ذلك بالقتال حتى ظفروا بمن في القصر وقتلوا منهم خلقًا كثيراً. ولما رأى المحاصرون ذلك قبلوا ما كان قد حملهم عليه المقوقس وأذعنوا بالجزية(٢).

٢ – وقد ذكر السيوطى: أنه بعد انصراف عبادة بن الصامت نصح المقوقس لأصحابه أن يعملوا برأيه فيؤدوا الجزية للعرب، فرضوا بذلك، وطلب المقوقس الاجتماع بعمرو وببعض أصحابه فاجتمعوا واصطلحوا على أن يكتب بذلك

---

١ – راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص٥٩ – ٦٣)، والخطط للمقريزى (جـ٢ – ص٢٩٠ – ٢٩٣).

٢ – ذكر مؤرخو العرب أن الحصار انتهى إلى هذا الحد وأن المسلمين استولوا على الحصن، وأن المقوقس ابرم شروط الصلح مع عمرو نفسه عن القبط، وهو يخالف ما ذكره بطلر (ص٢٦٤) أن هرقل استدعى المقوقس إلى القسطنطينية حيث انبه واتهمه بالخيانة ونفاه وهدده بالقتل.

لملك الروم فإن قبل ذلك ورضيه أجازوه، ورلا رجعوا إلى ما كانوا عليه، ولما رفض هرقل الصلح لم ينقض المقوقس عهده.

٣ - واتفق أبو المحاسن مع ابن عبد الحكم والمقريزى، ولكنه زاد على أن المقوقس أذعن للصلح عن نفسه وعن القبط معه، ولكنهم رفضوا ذلك، فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى هزموهم واستولوا على الحصن، وأرغموهم على دفع الجزية.

٤ - وذكر ياقوت فى معجمه ما ذكره السيوطى وزاد عليه: أن اجتماع المقوقس وعبادة كان بعد استيلاء العرب على الحصن.

وبالرغم من تناقض هذه الأقوال فإننا نقف منها على أربعة أمور:

١ - أن الاجتماع حصل بالفعل وقت فيضان النيل فى شهر اكتوبر.

٢ - وأنه أدى إلى الرفض واستئناف القتال.

٣ - وأن القتال كان وبالا على الروم فغيروا رأيهم.

٤ - وأن معاهدة الصلح دونت بالفعل، وأن تنفيذها أرجئ إلى ما بعد موافقة الإمبراطور.

يستنتج مما تقدم أن ما ذكره ابن عبد الحكم والمقريزى وأبو المحاسن أن فتح حصن بابليون كان عقب رفض الروم شروط الصلح مباشرة خطأ محض. لأنه لم يكن قد انقضى على الحصار إلا شهر واحد (أعنى زمن ارتفاع النيل) وقد اتفق المؤرخون على أن الحصار دام سبعة أشهر، فلا يعقل أن يكون استيلاء العرب على الحصن إلا وقت انخفاض النيل.

جـ - معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس

وإنا ذا كرون ما ورد فى معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس نقلاً عن الخطط للمقريزى (جـ١ ص٢٩٢).

اصطلح عمرو المقوقس على أن يفرض لهم (للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران على كل نفس. شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم، وليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شئ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض لهم فى شئ منها. أهـ.

وأحصوا عدد القبط يومئذ ممن بلغ الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس (ستة ملايين) فكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار (إثنى عشر مليوناً).

ولا يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين. ولو كان عدد من بلغ الحلم ربع سكان المصريين، للزم أن يكون عددهم أربعة وعشرين مليوناً من الأنفس. وهو بعيد عن الحقيقة. يدلك على ذلك ما رواه البلاذرى فى «فتوح البلدان»: جبى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفى ألف، وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح (فى خلافة عثمان) أربعة آلاف ألف. فقال عثمان لعمرو: إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها. فقال عمرو: ذلك لأنكم أعجفتموها.

والذى يمكن أن يفهم أن الأثنى عشر مليوناً إنما كانت مجموع الخراج والجزية، لا الجزية خاصة.

د - رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه، شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضى بما رضى به القبط، وبين اللحاق ببلاد الروم، وكتب إلى (هرقل) بما تم عليه الصلح. فكتب إليه كتاباً يوبخه فيه على التسليم ويحتقر قوة المسلمين. وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم. أما المقوقس فلم يعبأ بقول هرقل، بل أقبل على عمرو وأعلمه أنه لم يخرج عما عاقده عليه، وأن القبط متمون له على ما صالحهم عليه. فطلب منه عمرو أن يضمنوا له الجسرين جميعاً، ويقيموا لهم الانزال والضيافة والأسواق والجسور بين الفسطاط والإسكندرية، وصارت لهم القبط أعواناً (ابن عبد الحكم ص٦٤) وقد عد مؤرخو الفرنج أن هذا العمل خيانة من المقوقس، ولكن إذا ثبت لنا أن جند الروم قد بلغوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من رد العرب وهم عصبة قليلة، فلم يمكنهم التغلب عليهم، وقد دوخوا الفرس وقهروا هرقل، وقد سئم المصريون حكم الروم لظلمهم وعسفهم، وبلغهم أن المسلمين لم يتعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها فأطلقوا لهم حرية الفكر والدين. إذا ثبت كل ذلك جاز أن نلتمس له عذراً فيما فعل.

والمتأمل لعهد الصلح بين عمرو والمقوقس يرى أنه شمل قبط مصر كلهم، مع أن عمراً لم يفتح بعد بقية البلاد التى استعصت عليه فى القتال. فهل نقض القبط عهد الصلح؟ أم حامية الروم فى البلاد هى التى ناوأت عمراً العداء، ووقفت فى وجهه مدة طويلة؟ والذى يلوح لنا ترجيح الأمر الثانى، وإذا كان بعض القبط قد اشتركوا مع الروم فلم يشتركوا إلا مرغمين.

هـ - اقتحام الحصن

حال ارتفاع مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل له اقتحامه سوى الاعتصام بالبر ريثما تغيض مياهه. ولم يرد لحماية الحصن من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلا وثابروا على الدفاع بصبر وجلد. وفى شهر مارس سنة ٦٤١م (٢٠هـ) سمعوا فى معسكر المسلمين صياحاً عالياً علموا منه بموت هرقل[١].

فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحميتهم وهيأ للعرب سبيل الانتصار عليهم. أما اقتحام الحصن فقد كان على يد الزبير بن العوام. ذلك أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير بن العوام (على ما رواه ابن عبد الحكم): إنى أهب نفسى لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام[٢] ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا فما

---

١ – ذكر السيوطى (جـ١ ص٥٢) وابن عبد الحكم (ص٩٦) أن هرقل مات سنة ١٦هـ، وأخرج كل منهما عن الليث بن سعد أنه مات سنة ٢٠هـ، فكسر الله بموته شوكة الروم. وهذا بعيد لأن موت هرقل كان فى ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٢٠هـ) ولم يكن العرب فى هذا الوقت قد شرعوا فى حصار الإسكندرية.

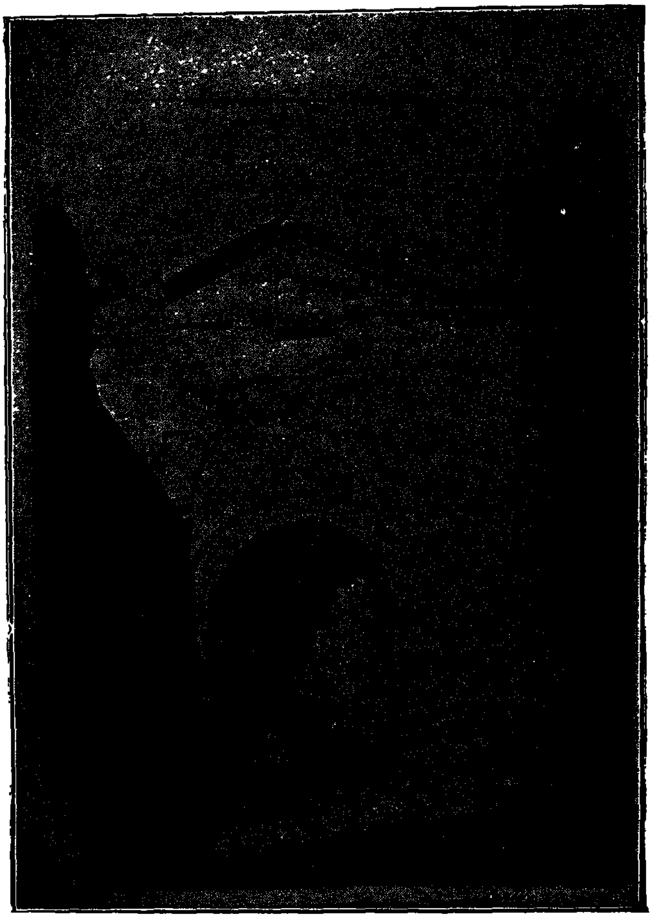
٢ – أجمع المؤرخون كابن عبد الحكم والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى وياقوت على أن الزبير اقتحم الحصن من الموضع الذى كان يعرف بسوق الحمام بعد ذلك. ولكن ليس من السهل أن ندل بالضبط على الموضع الذى وضع الزبير فيه السلم. فقال (بطلر) نقلاً عن «أوتنجوس» أن سوق الحمام كان جنوبى الحصن. وممن سار على هذا الرأى أيضاً البلاذرى، وأضاف إليه أن الزبير أتى من الشمال إلى الجانب المقابل: أعنى الجنوب ويرى (بطلر) أن هجوم العرب كان منالجنوب الشرقى للحصن حيث لا يزال السور قائمًا إلى الآن. وذكر ياقوت أن هذا السلم كان بسوق وردان وظل باقيًا فى منزل من المنازل فاختفى عقب احتراق هذا المنزل سنة ٣٩٠هـ (١٠٠٠م) وروى ابن عبد الحكم أن شراً حيل بن جحية المرادى نصب سلماً آخر من ناحية الزمامرة اليوم.

شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن يتكسر، وكبّر الزبير تكبيره فأجابه المسلمون من الخارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن، فلما خاف قائد الروم على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح فأجابه عمرو إلى ذلك، وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر[1]. أهـ.

وكان انتهاء أمد الحصار واستيلاء المسلمين على حصن بابليون فى شهر إبريل سنة ٦٤١م (٢٠هـ) على ماورواه «بطلر»، أما كون المقوقس هو الذى عقد الصلح مع عمرو بعد سقوط الحصن وتسليم الحامية بعد سبعة أشهر على ماذكره مؤرخو العرب فلا يمكن تصديقه، لأن المقوقس كان إذ ذاك خارج الديار المصرية. وإنما يحتمل أن عمراً صالح حامية الروم بعد تسليمها إله. هكذا قال بطلر وهو بعيد، إذ صار المقوقس بالصلح مع العرب بعيد عن أن تناله يد (هرقل). وكان يجب على عمرو بمقتضى شروط الصلح أن يحميه من كل سوء، لأنه لم يعتزل الروم إلا بعد أن تحقق لديه أن العرب لا محالة منتصرون عليهم.

وقد روى بطلر عن المقريزى (جـ١ ص٢٩٤) أن المسلمين قتلوا من الروم إثنى عشر ألفًا وثلثماءة عقب استيلائهم على الحصن. وهو خطأ، لأن المقريزى تناول الكلام على عدد جيش عمرو بن العاص وأنه كان خمسة عشر ألفًا عند حصاره لهذا الحصن (أخرج هذا عن يزيد بن أبى حبيب)، وأخرج عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين إثنى عشر ألفاً وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت، أهـ.

١ – أصبح المقوقس مع العرب بعد شهر واحد من حصار حصن بابليون ولابد أن تكون الحامية الرومية هى التى صالحت عمراً بخلاف ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره.



الباب العمومى لحصن بابيلون وهو الباب الذى خرج منه المقوقس

٣ - مسير عمرو إلي الإسكندرية واستيلاؤه عليها
أ - استيلاء عمرو علي كوم شريك وسلطيس والكريون

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية، وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد أيقن إمبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة فى أيدى العرب يؤدى حتماً إلى زوال سلطانه من مصر زوالاً لا رجوع بعده، فبعث إليها بالجيوش الجرارة، واستجاشت الروم، وأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا فيها.

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على حصن بابليون سار بجيشه إلى الإسكندرية، وخرج معه رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، فلم يلق عمرو أحداً حتى بلغ (طرنوط)[1] فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالاً خفيفاً، فغلبهم على أمرهم.

روى «بطلر ص٢٨٢ - ٢٨٤» أنه بعد أن ترك عمرو مدينة (طرنوط) وقعت بين الروم والعرب موقعة هائلة فى مدينة نقيوس التى قامت على أطلالها قرية شبشير الواقعة إلى الشمال والغرب من منوف، انتصر فيها عمرو على الروم انتصاراً مبيناً. وقد عزا «يوحنا» أن انكسار الروم كان من جراء ما أصاب قائدهم من الفزع والهلع حين علم بدنو جند المسلمين، ففر مسرعًا إلى الإسكندرية، وطرح من تحت

١ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: الطرانة مدينة تذكر كثيراً فى كتب القبط، وتعرف فى الكتب القديمة: باسم (طرنوطيس) وسماها ابن حوقل ولأدريسى ومؤرخو بطارقة الإسكندرية (طرنوط) وهى واقعة على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ومنها إلى القاهرة نحو ٤٠ ميلاً، وإلى الإسكندرية نحو خمسة ايام، وكان يجرى النيل فى وسطها.

إمـرته من الجند سـلاحـهم، وقـذفـوا بأنفـسـهم فى الماء فلم يعـثـروا على قواربهم. وقد ولى فـيها الملاحون الأدبار حين شـعروا بدنو الخطر منهم لينجوا بأنفسهم حتى لحقوا بقراهم. وفى هذه الأثناء انقض المسلمون على الروم العـزل فى الماء ووضعـوا الـسـيف فى رقـابهـم، وعلى أثر ذلك دخل العـرب المدينة بلا مـقـاومـة، حـيث لم يبـق من جند الروم على قـيد الحـيـاة أحـد، وإن العـرب قـتلوا كل من لجـأ إلـى الكنائس أو صـادفـوه فى شـوارع المدينة رجالاً ونساء وأطفالا[١].

وهذا محض افتراء لأن العرب لم يعلم عنهم أنهم تعرضـوا لأهالى البلاد التى افـتتحـوها وهـم عزل من السلاح غـير قادرين على القـتال. بل بالعكس كـانوا يؤمنونهـم على أمـوالهم وعـيـالهم فى حين خـلـودهـم إلى السكينة، وجنوحهم إلى السـلام ورغبتهم فى استتباب الأمن والنظام.

وقـد ذكـر المقـريزى (جـ١ ص١٦٧) أن أول مـوضـع قـوتل فـيـه عـمرو هـو (مـريوط) مع أن المسـافة بين مـريوط وطرنوط بعـيدة جـداً، ولعل هذا الخلط ناشئ من عدم دراية النساخ بالمواقع الجغرافية.

أرسل عـمــرو بن العـاص شــريك بن سـمى لـتـعـقـب جـيش الـروم المرتد على أعـقـابه، فـأخـذ يطـاردهـم حـتى أدركـهـم عند كـوم شــريك[٢] فأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سمى أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصـدفى فجد فى السير فـلم تدركه الروم حتى أتى عمراً فأخبره، فـأقبل بجنده وسـمعت بـه الروم فانصـرفت بعـد قـتـال دام بينهم وبين

١ - وقد ذكر (بطلر) إن مـؤرخى العرب لم يتعرضـوا لذكر هذه الموقـعة وإن المصدر الوحيد الذى اسـتقى منه هذه الواقعة مـفصلة هـو (يوحنا اسقف نقـيوس). وقد بحثنا كـثيراً عن كتابه فى المكتبة السلطانية، وفى مكتبة الجـامـعة المصرية وفى غيرهما من المكاتب الشهيرة فلم نعثر عليه.

٢ - هذه المدينة واقـعة على بعـد سـتة عشر مـيلاً شـمالى طرنوط بمديـرية البـحـيرة بمركز النجيلة.

شـريك ثلاثـة أيام على مـارواه ابن عـبـد الحكم، ثم التـقى عـمـرو بالروم بسلُطيس[1] فـهـزمـهـم وبعـد مـسـيـرة عـشـرين مـيـلاً التـقى بالروم فى الكريون[2] وكـانت آخـر حلقـة فى سلسلة الحصـون التى بـين بابليـون والإسـكندرية.

تحصَّن «تيـودور» فى حصنها المنيـع وقاتل المسلمين قتـالاً شـديداً دام بضـعـة عـشـر يومـًا، فـأيد الله المسـلمين بالنصـر وولى الـفـالة الأدبار حتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وكـان عبـد الله بن عـمـرو بن العـاص علـى المقـدمـة، وحـامل اللواء وردان مولى عـمـرو، فأصـابت عبد الله جـراحات كـثيرة فـقال: ياوردان لو تقـهـقـرت قليـلاً نصـيب الروح. فـقـال وردان: الروح تريـد الروح أمـامك وليس خلفك فتقدم عبد الله فجاءه رسـول أبيه يسأله عن جراحه فقال:

أقول لها إذا جشـأت وجاشـت * رويدك تحمدى أو تستريحى

فرجع الرسـول إلى عمـرو وأخبره بما قـاله عبـد الله. فقال عـمـرو: هـو ابنى حقاً.

وقـد اسـتـغرق عـمـرو فى مسـيره إلى الإسـكندرية وانتصـاره على الروم فى الـوقـائع الـتى ذكـرنـاها أثنين وعـشـرين يـومـًا على مـارواه «جبون» (جـ ٨ ص١٧٠).

---

١ – هـذه المدينة واقعة على ستة أميـال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شـريك والكريون.

٢ – ذكرها المرحـوم على مبـارك باشا فى خططه فـقال: كـانت هـذ المحطة الأولى التى ينزل فـيهـا السيـاحـون بعد السـفـر من الإسكندرية. وقدر بعـضـهـم تلك المسافـة بمسـيرة مـرحلة. وقـال «كـترمـيـر» إن هـذه المدينة موجـودة الآن وتعـرف باسم (كريون).

ب - عمرو وفتح الإسكندرية

كانت مدينة الإسكندرية ثانية عواصم الإمبراطورية الرومانية الشرقية كما قدمنا، وأول مدينة تجارية فى العالم. لذا عنى الرومان والبطالسة من قبلهم بتحصينها، لتقوى على رد غارات المغيرين، وصد هجمات الفاتحين، ولوقوعها على بحر الروم كان يتدفق عليها المدد من إمبراطور الروم. ولم يكن لدى عمرو من السفن ما يمنع المدد من أن يصل إلى المدينة، وكانت حامية الروم لا تقل عن خمسين ألف جندى، مزودين بالمؤن الوفيرة. ولم تكن دربة العرب كافية فى استعمال آلات الحصار (وقد استولوا على كثير منها عقب انتصاراتهم على الروم فى الوقائع السابقة، ولم يتمكنوا من نقلها). لذلك عولوا على الاستمساك بالصبر وعمل الحيلة فى الأعداء حتى يختم الله بالنصر، كما فعلوا فى حصارهم لدمشق وحلب وقيصرية من مدن الشام. وكانت قوة عمرو ضئيلة إذا قورنت بحامية الروم، لأنه لابد أن يكون قد فُقد من جنده أثناء الوقائع السابقة عدد غير قليل. وإذا كانت قوة عمرو قد بلغت خمسة عشر ألفًا وخمسمائة أثناء حصاره لحصن بابليون، فلم يزد عددهم عن إثنى عشر ألفًا وهو على حصار الإسكندرية. وعندنا أن هذا العدد لا يكفى مطلقًا لاقتحام حصون المدينة التى لا ترام، فلابد أن يكون جيش عمرو أكثر من هذا العدد بكثير، سيما إذا ذكرنا أن القبط كانوا للعرب أعوانًا، وأن عددًا كبيرًا منهم انضم تحت لوائه، ومهد له بعضهم سبيل الإستيلاء على المدينة.

نزل المسلمون[1] ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه

١ - لا يمكن بالضبط تعيين الموضع الذى نزل فيه المسلمون. وقد زعم (بطلر) أنه كان بالشرق أو الجنوب الشرقى، لأن المدنية محاطة بالبحر من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب وبقناة دراغون من الغرب. وكان نزول عمرو بعيدًا عن أسوار المدينة تفاديًا مما تلحقه بالمسلمين مقذوفات آلات الروم وسهامهم. وقال السيوطى إن نزولهم كان ما بين حلوة إلى قصر فارس.

من الأطعمة والعلوفة، فأقاموا شهرين (وكان ذلك فى أوائل يونيه تقريباً، يردون غارات الأعداء.

وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن هرقلاً مات سنة ٢٠هـ، وعن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد أن العرب استأسدت عند ذلك، وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية وقاتلوهم قتالاً شديداً، وكذلك ذكر المقريزى والسيوطى، وهذا يخالف ما قدمناه من أن موت هرقل كان والمسلمون على حصار بابليون، لأن العرب لم تكن حين موته (١١فبراير سنة ٦٤١) قد استولت بعد على الحصن. إذ لم يتم لهم ذلك إلا حوالى أواخر مارس أو أوائل إبريل من تلك السنة. وقد أخرج ان عبد الحكم عن الليث بن سعد أنه خرجت من باب الحصن شرذمة من الروم وحملوا على المسلمين فقتلوا رجلاً من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به. فأبى المهريون أن يدفنوه إلا برأسه؛ فقال لهم عمرو بن العاص: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم! أحملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاثم أرموا برأسه يرمونكم براس صاحبكم. فخرج الروم إليهم فاقتتلوا فقتلوا من الروم رجلاً من بطارقتهم فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهرى صاحبهم إليهم فقال عمرو: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم. أهـ.

هذه الحادثة على سذاجتها تبين لنا بداهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما عسى أن يؤثر فى جنده أو يشغلهم عن الجهاد من جراء مثل هذه الحادثة التى تشبث فيها المهربون بضرورة دفن صاحبهم مع راسه. فلهذا عمد عمرو بدهائه وحسن سياسته على تهدئة خواطر أصحابه بهذا الرأى الصائب والنظر الثاقب. ولا غرو فعمرو بن العاص رجل فذ لا يبالى بما يصادفه من العقبات، فيعمل على تذليلها وتمهيد السبيل للقضاء عليها.

قال «جبون جـ٩ ص٢٧١»: إن نفوس الأهلين كانت تتوق لهلاك هؤلاء الظالمين وطردهم من بلادهم، فلم يألوا جهداً فى مد يد المعونة إلى عمرو، مادية كانت تلك المعونة أو عسكرية. وقد لاحظ البطريرق «أو تيخوس» أن شجاعة العرب فى القتال كانت كشجاعة الأسود، (ورد هذا الوصف فى تاريخ ابن عبد الحكم) فردوا هجمات الروم المتواصلة وكانوا يقابلون هذه الهجمات بالمثل، فيحملون على أسوار المدينة وأبراجها. وفى كل هذه الحملات كنت ترى سيف عمرو ولواءه يتلألآن فى مقدمة المسلمين. أهـ.

بلغ القتال ذات يوم أشده بين الفريقين حتى اقتحم المسلمون الحصن وقاتلوا الروم فيه إلا أن هؤلاء حملوا عليهم (على المسلمين) حملة منكرة فأخرجوهم من الحصن إلا أربعة بينهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد، فالتجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فأمر الروم رجلاً منهم يكلمهم بالعربية فقال لهم: قد صرتم بأيدينا أسرى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم ثم قال لهم: إن فى أيدى أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم، فأبوا عليهم، فلما رأى الرومى ذلك منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهى نَصَفٌ، إن غلب صاحبُنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلّينا سبيلكم إلى أصحابكم.

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وتداعو إلى البراز، فبرز رجل من الروم وقد وثقوا بنجدته وشدته، وأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال ما هذا؟ تخطئ مرتين، تشذ من أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل؟ فإن قتلت كان ذلك بلاءً على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله. فقال عمرو: دونك فربما فرّجها الله بك. فبرز مسلمة

للرومى فأعانه الله عليه فقتله؛ فوفىٌ لهم الروم بما عاهدوهم عليه فخرجوا ولا يدرى الروم أن عمراً فيهم حتى بلغهم ذلك فأسفوا كل الأسف على ما فاتهم[1] أهـ بتصرف.

هكذا ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى، ونحن نشك فى صحة هذه الحادثة، بل نقول إنه يستحيل أن تكون صحيحة، وإنما هى أساطير نشأت بعد الفتح تمجيداً للفاتحين وقائدهم.

ظل عمرو على حصار الإسكندرية أربعة عشر شهراً[2] فأقلق هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساورته الريب فى سبب هذا الإبطاء، فبعث لعمرو بن العاص كتاباً يلومه فيه ويأمره أن يقرأه على المسلمين ليستنهض بذلك هممهم، ويحضهم على القتال، ويرغبهم فى الصبر، وأن يكونوا يداً واحدة وقلبًا واحداً. فقرأ عمرو الكتاب، وعقد لعبادة ابن الصامت وولاه قتال الروم، ففتح الله عليه يديه الإسكندرية وهزم الروم براً وبحراً.

---

١ – وقد ذكر «أيرفنج» أن عمرو بن العاص لما وقع أسيراً فى الإسكندرية وقف بين يدى حاكمها فنسى عمرو الحالة التى كان فيها وتكلم كلاماً يدل على الشجاعة وسمو المركز، فاشتبه فيه الحاكم وأمر بقتله وكان وردان بجانبه فصفعه على وجنته وقال له: صه أيها الكلب لا تتكلم امام رؤسائك، وهمّ مسلمة بالكلام وقال للحاكم: أن الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار ومصالحة الروم، وطلب من الحاكم أن يتوسط بينه وبين عمرو فخلى سبيله.

٢ – روى الكندى (ص٩) أن الحصار دام ثلاثة أشهر، وعن الليث أنه دام ستة أشهر، وقال المقريزى (جـ١ ص١٦٥) وابن عبد الحكم (ص٧٢) والسيوطى (جـ١ ص٥٣) وجبون (م٩ ص٢٧٢) وإيرفنج (ص١١١) أن حصار المسلمين دام أربعة عشر شهراً. وقال البلاذرى (ص٢٨٨) إنه دام ثلاثة أشهر. ونحن نرجح أن الحصار دام أربعة عشر شهراً، لأنه لا يعقل أن يظل حصار المسلمين لهذه المدينة ذات الحصون المنيعة والمؤن الوفيرة والمواصلات مع الخارج ثلاثة أشهر او ستة، مع أن المؤرخين أجمعوا أن قتال الروم بالإسكندرية كان أشد قتال.

وكان فتح الإسكندرية عنوة، فجعلهم عمرو ذمة على أن يخرج من يخرج، ويقيم من يقيم باختيارهم.

وقد أخرج المقريزى عن ابن لهيعة أن عمراً جبى جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار (٦٠٠,٠٠٠) لأنه وجد ثلاثمائة ألف من أهل الذمة، فقدر عليهم دينارين، فكانت مصر صلحًا كلها بفريضة دينارين على كل رجل[1].

قال (بطلر): والذى عقد صلح الإسكندرية هو المقوقس فقد عاد إلى مصر من منفاه بعد موت هرقل. وإليك هذه الشروط على مارواه «بطلر» عن «يوحنا أسقف نقيوس»:

١ – دفع من فرضت عليهم الجزية دينارين كل سنة.

٢ – المهادنة أحد عشر شهراً تنتهى فى ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢م[2].

٣ – وعلى العرب الاحتفاظ بمراكزهم أثناء أمد الهدنة، وأن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الإسكندرية. وعلى الجنود الرومية أن تكفّ عن الأعمال العدائية.

٤ – وأن تبحر حامية الإسكندرية، وكل الجيوش التى بها، وأن يحملوا معهم كل ما يملكون من أموال وأمتعة؛ وعلى الجنود الذين يرحلون عن مصر براً أن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.

---

١ – ذكر المقريزى أن عمراً لما فتح الإسكندرية كتب إلى عمر بن الخطاب أن فيها أربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى للملوك وإثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وسبعين ألف يهودى، وكان بالإسكندرية مائتا ألف من الروم.

٢ – والظاهر أن هذه الهدنة – كما قال ابن الأثير – كانت إلى أن يرد كتاب عمر بإقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس.

٥ - وأن لا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى.

٦ - وأن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وأن لا يتداخلوا بأى حال فى أمور المسيحيين.

٧ - وأن تكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ من العسكريين، و٥٠ من الملكيين بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة.

والفقرة الأولى مؤداها إعطاء الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وأن تطلق لهم حرية الدين:

وهؤلاء هم أهل الذمة[١]، اهـ.

ومن الغريب أن ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المعدودين قد ذكر أنه قتل من المسلمين وهم على حصار الإسكندرية إلى أن فتحت، اثنان وعشرون مقاتلاً، وهو يخالف ما ذكره «جبون» أنه فقد من المسلمين ثلاثة وعشرون ألفاً. وعندنا أن كلا العددين مبالغ فيه. لأنه لا يعقل أن يفقد المسلمون اثنين وعشرين مقاتلا وهم على حصار الإسكندرية ذات الحصون المنيعة والأبراج العديدة، التى كانت تصليهم نارا[٢] حامية مع طول أمد الحصار، وهو شئ قليل جداً يزيد عليه عدد من يموت حتف أنفه من الجيش أضعافاً كثيرة.

ولا يمكن أن نستسلم للرأى القائل بأن المسلمن قد فقدوا ثلاثة وعشرين ألفاً، لأن جند عمرو عند شروعه فى حصار المدينة لم يبلغ هذا العدد.

---

١ - وكانت هناك قرس ناصرت الروم على العرب وهى بلهيب وسلطيس وسخا وقرطيا، فسبوا أهلها وفرقت سباياهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة.

٢ - هذه العبارة كناية عن شدة الحرب.

هكذا تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية. أغنى مدن العالم وأوفرها ثروة، وأوسعها تجارة، وأخرج الروم منها أذلة، وردهم على أعقابهم حين حدثتهم أنفسهم باستردادها.

ولا يسعنا إلا الإقرار له بالفضل والترنم بالثناء عليه لما حازه من الانتصار المبين، فزال سلطان الروم فى هذه الديار على يديه، فأذعن أهلها بالطاعة، ودان السواد الأعظم منهم بالإسلام على مر السنين وتوالى الأجيال.

جـ - عمرو ونسبة حريق مكتبة الإسكندرية إليه

لغط بعض المتأخرين من المؤرخين فى مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة. وناقش هذا الخبر كثير من علماء الأفرنج مثل «جبون» و«بطلر» و«سديو» و«چوستاف ليبون» وغيرهم فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو بن العاص هو الذى أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، كما زعم بعضهم - بل ارتابوا فى صحة هذه الدعوى التى تنافى التقاليد الإسلامية، ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى، مثل «أوتيخوس» الذى وصف فتح الإسكندرية بإسهاب، فلم يرد لهذا الخبر ذكر البتة فى تواريخهم. والذى يدل على اختلاق هذا الخبر أيضًا أنه لم يرد فى تواريخ المتقدمين، كالطبرى والكندى واليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم، ولا عمن أخذ عنهم من المتأخرين كالمقريزى والسيوطى. لذلك طرحت هذه الأقوال الآن جانبًا، لأنها ليست قائمة على أساس متين.

وأول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص عبد اللطيف البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١م، بخلاف ما ذكره المؤرخون المحدثون أن أبا الفرج الملطى(١) كان أول من ذكر هذه الحادثة،

---

١ - هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى؛ ولد سنة ١٢٢٦م. وكانت ولادته فى مدينة ملطية قاعدة ارمينية الصغرى. جدَّ من صغره فى الحفظ، وأقبل على ارتشاف العلم فدرس أولاً اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. فرَّ به والده إلى أنطاكية سنة ١٢٤٣م فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والنسك، وانفرد فى مغارة بالبرية. ولم يلبث غريغوريوس برهة فى المغارة حتى شخص إلى طرابلس الشام، وأكمل قراءة البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبًا. وفى تلك الأثناء استدعاه البطريرق اغناطيوس سابًا إلى أنطاكية، ورقاه فى العشرين من سنه إلى أسقفية=

لأنه عاش من سنة ١٢٢٦ إلى سنة ١٢٨٦ ب. م: أى بعد عبد اللطيف البغدادى، أما أبو الفرج فقد نسب هذا الحريق إلى عمرو فى كتابه «مختصر الدول» وتناقل هذه المسألة عنه كتاب الأفرنج إلى هذه الغاية.

وإليك رواية أبى الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو ابن العاص. قال:

كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى «يوحنا النحوى» كان قسيسًا قبطيًا من أهل الإسكندرية، وفى هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أى النحو. وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى). ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث.

فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع، فأسقطوه من منزلته، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية. ودخل على عمرو –وقد عرف موضعه من العلوم –

= جوياس من أعمال ملطية، ونصب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء. وما زال يرتقى فى المناصب الكبرى حتى كانت سنة ١٢٦٤م فانتخبه البطريرق أغناطيوس الثالث مفرياناً (مغريان كلمة سريانية معناها المثمر. وكان منصب المغريان عند اليعاقبة من اكبر المناصب بعد البطريركية، وهو بمقام كبير رؤساء الأساقفة) على جهات الشرق – أى نواحى ما بين النهرين الشرقية والعراق العجمى، فقام بمهام منصبه وأتى فى مغريانيته أعمالاً خطيرة وآثاراً مشكورة. وعمر أبو الفرج ستين سنة وتوفى سنة ١٢٨٦م وكان ابن العبرى رجل كد وعمل، ولم تنقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف، فإنه ألف ما يزيد على الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها. أما تأليفه لكتاب «تاريخ الدول» فانه نقله من السريانية إلى العربية فى أواخر حياته، وضمنه أموراً كثيرة لا توجد فى المطول السريانى، ولا سيما فيما يتعلق بدولة الإسلام والمغول وتراجم العلماء والأطباء. اهـ بإيجاز عن كتاب مختصر الدول ص: ح. د. هـ. و. (موجود بالمكتبة السلطانية نمرة ١٢٢٤ قسم التاريخ).

فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ماهاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يومًا: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذى تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكننى أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التى ذكرتها فأن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها. فاستنفدت فى ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعجب. اهـ.

وإذا حللنا حكاية أبى الفرج تحليلاً دقيقًا وجدناها عبارة عن محض اختلاق وافتراء لا أساس لهما.

وقد فنّدها كل من «جبون» و«بطلر» و«سديو» وكذلك شبلى أفندى العمانى و«چوستاف ليبون» وغيرهم فقال «جبون» فى تاريخه:

بعد ما نُقل كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية، وتناقل خبر تلك المكتبة تأسف الكتاب كلهم لضياع كثير من العلم والأدب. وأما أنا (يعنى نفسه) فأنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج. والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلادماى (الفرس) بعد فتح الإسكندرية بستمائة سنة، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما البطريرق «أوتيخوس» الذى أسهب فى فتح الإسكندرية. على أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية، إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب

الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب، فلا يجوز إحراقها. وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها. ولا أرى داعيًا لتكرار ما حلّ بمكتبة الإسكندرية وما أصابها من الحريق عندما كان «يوليوس قيصر» محاصراً بالإسكندرية (سنة ٤٧ق.م) وما أضمره النصارى من الكراهية للوثنيين فلم تأل (النصارى) جهداً فى استئصال الوثنية من ديار مصر. ولكن إذا تدرجنا من زمن أنطونين إلى عهد طيودوس علمنا من سلسلة الشواهد العديدة أن القصر الملكى وهيكل (سيرابيس) لم يكونا يحويان بعد ذلك الأربعمائة ألف مجلداً والسبعمائة ألف التى عُنى بجمعها اللاجوسيون، وإذا كان ما أحرق من هذه الكتب فى الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة (أى اتباع مذهب خلقدونية)، فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر. أهـ (جبون جـ٩ ص٢٧٤ - ٢٧٦).

ولا داعى لاستغراب جبون ذكر أبى الفرج لهذه الرواية لبعده عن مصر، وقد ذكرها قبله عبد اللطيف البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١م. ولا يبعد أن يكون هذا قد رواها أيضًا عن غيره: أعنى هذه الحادثة كان لها ذكر من قبله، وغاية ما يقال فى رواية أبى الفرج أنه يظهر فيهاشئ من المبالغة والتهويل. أما احتمال إحراق كتب المجادلات الدينية، وأنه حصل لخدمة البشر فإنه يناقض ما يريد جبون إثباته، وهو إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج.

قال حضرة أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادى - الذى كان قبل أبى الفرج الملطى بزمن قليل - قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية كانت التبعة عليه دون أبى الفرج، لاحتمال أن يكون أبو الفرج أخذ هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادى - الذى رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه، ولم يقل

لنا من أى تاريخ أخذ، ولا من أى مصدر استقى. والظاهر أنه حين علم بأنه كان فى هذا المكان مكتبة عفى الزمان على أثرها، افترض أن الذى دمرها إنما هو عمرو بن العاص قائد المسلمين، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة أو نحو ذلك، فظن الأمر حقيقة واقعة - وعلى الجملة فالحظ الأكبر فى نسبة الأحراق إلى عمرو بأمر عمر واقع على عبد اللطيف لا على أبى الفرج. أهـ.

وقال العلامة «سديو»: ذكر أبو الفرج (١٢١٦ - ١٢٨٦ب. م) وأبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١ب. م) أن مكتبة السيرابيوم الشهيرة احترقت عقب استيلاء العرب على الإسكندرية. وقد ناقش هذه الرواية كثير من الكتاب، ويظهر بادئ ذى بدء أن هذه الرواية أخذت فراغاً كبيراً من التاريخ. والمعلوم أن عمراً هو الذى استشار الخليفة فى موضوع تلك المكتبة فأمره بإحراقها. ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى. وإن صح هذا الأمر لا تقتصر أثره على عدد قليل من الكتب، لأن المكتبة كان قد احترق بعضها فى عهد القيصر «طيودوس» سنة ٣٩١م، ولم يكن فى الإسكندرية من هذه الدار إلا حوائط لم يأمر عمرو بهدمها إلا على أثر هياج السكان (جـ١ ص١٥٥ - ١٥٦).

وقد طرحت هذه المسألة على بساط البحث فى المجلة العلمية الفرنساوية فقال مسيو «لكلرك»: نأسف إذا خالفنا مسيو سديو. إذ من المحقق أن هذه المكتبة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت (أى وقت الفتح الإسلامى).

وقال الدكتور «چوستاف ليبون» نقلاً عن «لودفيك لالان» الذى ناقش مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية مناقشة علمية مختصرة: إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربى البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١م. أى بعد ٥٩١سنة من وقوع تلك

الحادثة. أما من خصوص حريق مكتبة الإسكندرية المزعوم فإنه همجية وعداوة للمدنية منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم، حتى إنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه: كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتد بعلمهم؟ وقد كذب العلماء هذه القصة فى زمننا مرات كثيرة. فلا نرى حاجة فى العودة إليها لتكذيبها. ولا أسهل من الاستشهاد على ذلك بإيراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التى بالإسكندرية قبل العرب بزمن طويل، وكسروا كل التماثيل أيضاً، ويفهم من ذلك أنه لم يكن بعد بالإسكندرية ما يُحرق (ص٢٠٨).

وروى المقريزى فى خططه (جـ١ ص١٥٩): ويذكر أن هذا العمود (عمود السوارى) من جملة أعمدة كانت تحمل رواق (أرسطو طاليس) الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو ابن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أهـ.

أما عبد اللطيف البغدادى الذى كان فى الحقيقة أول من ذكر حريق العرب لمكتبة الإسكندرية فقد قال فى كتاب «الإفادة والاعتبار»: ورأيت أيضًا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة. بعضها صحيح، وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بأذن عمر رضى الله عنه[1].

---

١ - كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ص (٢٨).

وقال «أرفانيتاكى» : وهذه الحقيقة (أى حقيقة إحراق مكتبة الإسكندرية) مختلف فيها الآن. فقد قرر الكثيرون أن المكتبة الملكية وكذلك مكتبة السيرابيوم كلاهما ما كانتا تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها. وفرض هؤلاء أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد نقل إلى بوزنطية حين حاصر عمرو الإسكندرية.

وذكرت دائرة المعارف الفرنساوية (جـ٣ ص٦٤٨) أن مجموعة المؤلفات التى كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى فى القرن الرابع الميلادى، أما الكتب التى كانت بالمتحف فقد أهملت وعبثت بها أيدى الترك حين جاءوا الإسكندرية سنة ٨٣٨م فخربوا كل الآثار وتطاولت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهملة. اهـ.

وهو كلام لم يقم عليه دليل ولا يؤيده نقل، ولعله يقصد القائمين بأمر الدولة الطولونية.

ومما ذكرنا يعلم أن عمراً وعمر بريئان مما نسب إليهما، وأن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف البغدادى الذى مات ولأبى الفرج خمس سنين، ولكنا إذا ألقينا التبعة على أبى الفرج، فمن قبيل التساهل لقصد تفنيد روايته التى تحتوى على شئ كثير من التهويل والمبالغة، لأنها فى اعتقادنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل) الذى عاش بعد فتح مصر بنحو ستة قرون ولم يسبقه إليها أحد من المؤرخين المعاصرين لهذا الفتح، ولا ممن أتى بعده إن هى إلا محض افتراء ليس لها أساس من الصحة على الإطلاق.

يدلك على ذلك ما نقلناه عن المؤرخين المتقدمين وما ننقله أيضًا عما ذكره شبلى أفندى النعمانى فى رسالته فى الرد على من قال بأحراق عمرو لمكتبة الإسكندرية، وهى تلك الرسالة التى ألفت باللغة الأوردية وترجمت إلى الإنجليزية، وكان بودنا لو ظفرنا بالترجمة

الإنجليزية، إلا أننا عثرنا على ما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية: قالت الهلال:

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى المؤلف) أن أول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى اسمه قارون (أهرون) ولد سنة ١٢٢٦م فى ملاطية... وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق مكتبة الإسكندرية وتناقلها عنه كتاب الأفرنج حتى قام المؤرخ (جبون) الإنجليزى فانتقد هذا الرأى (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه فى صحته لعدم وجود الأدلة عليه، لأنه كتب بعد فتح الإسكندرية بستمائة سنة، ولم يذكره أحد من قبل (وهو يناقض ما قدمناه، فانتبه مؤرخو الإفرنج من غفلتهم، وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول.

غير أن المجتهدين منهم فى خلع هذه التهم عن الأفرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا: إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط، وإنما ذكرها المقريزى (وقد قدمنا تأييداً لرأينا أن المقريزى مات بعد أبى الفرج بمدة طويلة) وعبد اللطيف البغدادى وحاچى خليفة من مؤرخى الإسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون ذكرها أيضاً.

قالت الهلال: ثم أخذ صديقنا (أى المؤلف) فى تفنيد هذه الأسانيد فقال: أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا، وكل من أطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثة على الإطلاق.

أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولاً أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة، لأن المقريزى ذكر المكتبة عن عبد اللطيف حرفاً حرفاً، فيبقى عبد اللطيف وحاچى خليفة.

أما عبارة حاچى خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الإسكندرية، وإنما أشار إلى العرب فى صدر الإسلام لتعلقهم بالوحى، وخوفهم من تسلط

العلوم الأجنبية عى عقولهم كانوا (كما قيل) يحرقون الكتب التى يعثرون عليها فى البلاد التى يفتتحونها: فيظهر من ذلك أن عبارة حاچى خليفة لا تفيد ما أراوده: لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم. ولكى يؤيد قوله ألمع إلى مسألة حريق الكتب، وهو لم يذكرها كأنها حقيقة.

أما عبد اللطيف البغدادى فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى، وهذا نص عبارته (وقد سبق أن قدمناها) فيظهر من نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض، وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاتها. على أن عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث.

ثم أعقب المؤلف هذا التفنيد بالأدلة على عدم إمكان احتراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر بن الخطاب أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين، وأثبت أنها إنما احترقت قبل الإسلام، أحرق نصفها (يوليوس) قيصر الرومان، وأتم على باقيها بطارقه الإسكندرية قبل الإسلام. أهـ.

ومما يدلك على اختلاق رواية أبى الفرج (ومن تقدمه) ماذكره (بطلر) إذ حلل هذه الرواية تحليلاً لا يسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو بن العاص مما نسب إليه والاعتراف بأن مكتبة الإسكندرية لابد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الإسلامى بمدة طويلة؛ فذكر نقلاً عن «أميانوس مارسلينوس» أن السبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتوى عليها مكتبة الإسكندرية قد أتلفت إتلافًا تاماً حين حوصر «يوليوس» قيصر الروم بالإسكندرية كما تقدم، وممن أيد هذا الرأى أورازيوس(١)

---

١ – هو الذى زار الإسكندرية فى القرن الرابع الميلادى، ووجد جميع رفوف المكتبة خالية من الكتب كما قدمنا.

حيث اعتقد أيضًا أن هذه المكتبة قد دمرت فى حريق يوليوس المذكور، والأستاذ إسماعيل رأفت بك حيث قال: وقلنا أيضًا، إنه فى هذا الوقت (أى وقت فتح الإسكندرية) لم تكن دار كتب الإسكندرية موجودة وإن قسماً كبيراً من قسميها أحرقته جنود «يوليوس قيصر» من غير قصد سنة ٤٧ ق. م (كما تقدم أيضًا) وإن قسمها الثانى تلاشى كذلك بعد الزمن المذكور بنحو أربعة قرون أى فى سنة ٣٩١ب. م بأمر الأسقف «تيوفيل» ولا ندهش لهذا الأمر لأسباب أخصها أن الآداب والفلسفة الوثنية كلها كانت منعت وقضى عليها قضاء تاماً طول تلك المدة فى كل مكان. حتى أن «چوتنيانوس» أمر بأغلاق مدارس أثينا. أهـ.

وأضاف «بطلر»: ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضًا بخصوص إحراق الكتب فى فارس. وقد علق الأستاذ «برى» بقوله: إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس قد يختلف اختلافًا تامًا عن شعورهم نحو كتب النصارى. إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله أهـ.

وإذا سلمنا جدلاً بأن إحراق مكتبة الإسكندرية قد حصل فعلاً -كما رواه أبو الفرج – الذى ذكر أن الكتب قد وضعت فى سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور فإن هذا الخبر – على ما يظهر لنا – عبارة عن أكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلاً. إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر بإحراقها فى الحال، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذى يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات، فلا يصعب بذلك على «يوحنا» أو أى إنسان سواه أن يستولى على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفى لتحقيق هذه الأمنية، وهى انتشال عدد كبير منها من مخالب النيران. على أن ما جاء برواية أبى الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات سبعة شهور، مما يثير الدهشة والاستغراب فى نفوسنا، لأنه لو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم (وهو قليل

بصرف النظر عن أن حجم هذه المؤلفات كان صغيراً جداً) لبلغ هذا العدد الذى أحرق فى ذلك الوقت ٧٢,٠٠٠,٠٠٠ مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة بنحو ١٠٣ مرات تقريبًا. ويستدل مما ذكرنا أن السبعمائة ألف مجلد لم تكن لتكفى الأربعة آلاف حمام ساعة واحدة لا ستة شهور.

وزاد على ذلك حضرة أستاذنا إسماعيل رافت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله: مع أن الكاغد - بقطع النظر عن الرق - وإن كان يصلح لإيقاد النار، إلا أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلاً(١).

وقد برهن (بطلر) على أن يوحنا النحوى الذى ذكره أبو الفرج فى روايته لم يكن حيًا يرزق وقت فتح الإسكندرية سنة ٦٤٢م، لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع «ديوسقوروس» و«جايوس» و«ساويرس أسقف أنطاكية» فى الكتابة ضد مجمع خلقدونية، وظلوا حتى تولى چوستنيان (٥٢ ب. م)، ويكون قد عاش بضع سنين فى أوائل القرن السابع الميلادى: أى قبل سنة ٦٤٢م. ولابد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة. وذكر أيضًا أن السيرابيوم كانت دمرت سنة ٣٩١م. (كما قدمنا) وبُنى على أنقاضها كنيسة أو جملة كنائس مسيحية، ولم يبق منها إلا حوائط كما ذكر «سديو». فلايبعد أن تكون أيدى النصارى قد تطاولت إلى الكتب الوثنية فأتلفوها كلها، وحملوا الكتب العلمية إلى القسطنطينية. ولا نستبعد هذا الأمر إذا علمنا أن النصارى قد هشموا هيكل «سرابيس» وأحرقوه فى الحال ولم يتركوا أى حجر من أحجار أشهر وأفخم معبود فى العالم قائماً أهـ.

١ - وافق بطلر حضره الأستاذ فقال: إن معظم الكتب التى كانت بالسيبربيوم كانت من الكاغد الذى كان يفضله القبط كثيراً، وختم كلامه بقوله: إذا كانت أوامر الخليفة قد حالت دون إحراق هذه الكتب، فماذا حدث إذن لكل الكتب المنسوخة بخط اليد؟ واستدل من ذلك على أن هذا الجبر خرافة مضحكة، ولا يسع الإنسان إلا أن يصغى ويضحك.

ومن هذا نرجح أن الكتب قد التهمتها النيران التى أضرمت لإحراق هذا الهيكل لا أن تكون قد حملت إلى القسطنطينية. يؤيد ذلك ما ذكره «أورازيوس» من أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب، وذلك قبل سنة ٤١٤م، وهى السنة التى كتب فيها عن زيارته لهذا المكان، لا عن إحراق مكتبة الإسكندرية.

وختم (بطلر) كلامه عن حريق مكتبة الإسكندرية فقال: لا أزال أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً لهذا السبب، لأن العرب لم تدخل الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً، وقد ذكر فى عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم، وفى غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم. وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية نهائيًا فى أيدى العرب.

لقد أوردنا كثيراً من أقوال المؤرخين بشأن إحراق مكتبة الإسكندرية لكى نثبت بعد فحص هذه الأقوال والآراء إن كان عمرو ابن العاص هو الذى أحرقها بأمر الخليفة عمر، أو أن هذه المكتبة لم تكن موجودة حين الفتح الإسلامى، فنرى بعد هذه الأقوال الجلية الكثيرة أنه لم يكن بالإسكندرية ما يحرق وقت الفتح. وعلى هذا لا يسعنا إلا تكذيب رواية أبى الفرج الذى نسب هذه التهمة إلى كل من عمرو وعمر وهما منها بريئان. يشهد بذلك ما نذكره من الأدلة القاطعة على دحض رواية أبى الفرج. وإليك هذه الأدلة التى نستنتجها مما مر من الأقوال لنعزز بذلك رأينا بإيجاز فنقول:

١ – عند تحليل رواية أبى الفرج ظهر لنا لأول وهلة أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل، وأنها أشبه شئ بخرافة طالما نعثر على أمثالها فى أسفار المتقدمين. من ذلك أن كتب هذه المكتبة قد

كفت أربعة الآلاف حمام ستة شهور، وقد أثبتنا أنها لم تكن تكفيها ساعة واحدة.

٢ - أما يوحنا الذى ذكره أبو الفرج فقد دل «بطلر» بأجلى بيان على أنه لم يكن على قيد الحياة وقت فتح الإسكندرية، وأنه توفى قبل استيلاء العرب عليها بثلاثين أو أربعين سنة على الأقل.

٣ - إن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف) ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة، ولو سلمنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما مر عليها مؤرخان شهيران معاصران للفتح الإسلامى وهما «أوتيخوس» الذى فصل خبر فتح الإسكندرية تفصيلاً مسهباً، وكذلك «يوحنا أسقف نقيوس» وهو مؤرخ عاش أيضًا فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ويركن إليها. ولم يذكر هذا الخبر البتة أحد من المؤرخين المتقدمين كالطبرى واليعقوبى والكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى، حتى جاء أبو الفرج (وكذا عبد اللطيف) فذكرها فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد: أى بعد ستة قرون.

٤ - إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين: مرة فى عهد يوليوس قيصر، فأتلف كثيراً مما كان بها من الكتب، ثم احرقت أخيراً بتمامها فى حكم قيصر (طيودوس) بأمر الأسقف (تيوفيل) سنة ٣٩١م بواسطة جماعة من المتعصبين للنصرانية، ولم يبقوا على هيكل (سيرابيس) وأحرقوا الكتب التى كانت بالسيرابيوم، أو نقلوها إلى القسطنطينية.

٥ - إن زيارة «أورازيوس» المتقدم الذكر للإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى تثبت أنه لم يكن لهذه المكتبة وجود

قبل دخول العرب فى الإسكندرية بنحو قرن ونصف قرن، ولا أدل على هذا من قوله: إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب – وما ذلك إلا لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى.

٦ – إن التعاليم الإسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف) إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والنصرانية، وأنه لا يجوز إحراقها. أما غيرها من الكتب العلمية فيجوز أن ينتفع بها المسلمون.

ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب الذين كانوا يتعرضون لما فيه ذكر الله.

٧ – وإذ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس، فمن المعقول أن النيران تلتهم ما فيه من الكتب فلا تبقى عليها ولا تذر.

٨ – وفى غضون القرون الخامس والسادس والسابع: أى بعد حريق هذه المكتبة لم يرد لها ذكر فى الآداب إذ ذاك.

٩ – ولو كانت مكتبة الإسكندرية لم تزل باقية عند الفتح الإسلامى لما أحجم الروم عن نقلها إلى القسطنطينية، وقد أجازلهم عمرو حسب عقد الصلح والهدنة حمل ما يقدرون عليه من رخيص وغال، ولديهم من الوقت ما يكفى لتحقيق هذا الغرض.

فنرى أن القول بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان بأمر عمرو بن العاص محض افتراء، فإنه حصل إحراقها مراراً قبل دخول العرب مصر، والمكتبة القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدى النصارى. ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها والنقل منها ما تصل إليه يد عمرو بالحرق.

٤ - أ - عمرو وتتمة الفتح في مصر

استولى عمرو بن العاص على العريش والفرما وبلبيس وأم دنين، واستولى على هليوبوليس وقصر الشمع وما والاهما، وصالح المقوقس وفرض على المصريين الجزية، ثم سار إلى الإسكندرية، وأخضع فى طريقه كلا من نقيوس وطرنوط وكوم شريك وسلطيس والكريون، وأقام على حصار الإسكندرية حتى فتحها الله على يديه وفرض على أهلها الجزية كباقى مدن مصر، وضرب عليهم الضرائب، فانطفأ سراج الروم من هذه الديار.

ومما ذكرنا يعلم انه لم تخضع لسلطان عمرو جميع البلاد قاصيها ودانيها، وأن شروط الصلح قد شملت جميع المصريين وأصبحوا بحكم هذه المعاهدة فى حوزة العرب، إلا أنه كانت لا تزال أمامه مدن لا مندوحة له من الاستيلاء عليها، ليتم له بذلك فتح مصر كلها.

أما كون هذه البلاد قد فتحت قبل استيلاء عمرو على بابليون أو بعده؛ أو بعد حصاره للإسكندرية، فأمر قد لغط المؤرخون فيه. وكان بودنا أن نتعمق فى البحث حتى نقف على جلية الأمر، وأى الرأيين أحق أن يتبع، إلا أننا لم نأبه لذلك، لأن هذه الوقائع ثانوية محضة، أعنى أنه لم تتوقف عليها أهمية كبرى، أو أعقبتها نتائج خطيرة. ولنذكر بعض هذه الوقائع بإيجاز حتى لا نركب الشطط، إذ لا تزال هناك أمور أحق بالإسهاب، وأولى بالتفصيل وأجدر بالتعمق فى البحث، نرجئها حتى يأتى حينها فنقول:

روى البلاذرى فى فتوح البلدان (ص٢٢٤) أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمى إلى عين شمس فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجة

بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات[١] وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك.

ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونة[٢] ودميرة[٣] وشطا ودقهلة[٤] وبنا[٥] وبوصير[٦] ففعل مثل ذلك. ووجه عقبة ابن عامر الجهنى (ويقال وردان مولاه) إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك. فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج. أهـ.

---

١ – لعلها البشرود (بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والدال مهملة) التى ذكرها ياقوت فى معجمة فقال: كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض.

٢ – قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: تونة: هى جزيرة من نواحى مصر من فتوح عمير بن وهب. وبها جزيرة قرب دميرة.

٣ – قال ياقوت فى معجمه: دميرة (بفتح أوله وكسر ثانية وياء مثناة من تحته) قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وهما دميرتان: احداهما تقابل الأخرى على شاطئ النيل فى طريق من يريد دمياط.

٤ – ذكرها ياقوت فى معجمه فقال: دقهلة: بلد بمصر على شعبة من النيل، بينها وبين دمياط أربع فراسخ، وبينها وبين دميرة ست فراسخ، ذات سوق وعمارة، ويضاف إليها كورة فيقال كورة الدقهلية. وذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: هى قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركز فارسكور سميت المديرية باسمها.

٥ – ذكرها ياقوت فى معجمه فقال: بلدة قديمة بمصر وتضاف إليها كورة من فتوح عمير بن وهب، قال أبو الحسن المهلبى: من الفسطاط إلى بنها ثمانية عشر ميلاً وإلى صنهشت ثمانية أميال، وإلى مدينة بنها وهى مدينة جاهلية لها ارتفاع جليل ومنها إلى سمنود ميلان.

٦ – قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: بوصير (بكسر الصاد وياء ساكنة وراء) اسم يشترك فيه أربعة بلاد بالديار المصرية فمنها بليدة بكورة السمنودية من الوجه البحرى ومنها (بوصير) الفيوم و(بوصير) الجيزة و(بوصير) البهنسا أما (بوصير) التى بالجه البحرى فتسمى بنا لقربها من قرية بنا الواقعة على شاطئ النيل الغربى، وبين بوصير هذه وبنا نحو فرسخين، وهذه هى التى توجه إليها عمير بن وهب وفتحها.

الفيوم :

قال السيوطى (جـ١ ص٦٢) : أقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بها ولا مكانها، حتى أتاهم آت فذكرها لهم، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش ابن عرفطة الصدفى فألقى أهل الفيوم بأيديهم من غير قتال.

دمياط :

ذكر المقريزى (جـ١ ص٢١٣ - ٢١٤) أن الذى وجهه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود، وكان عليها رجل من أخوال المقوقس يقال له (الهاموك) فامتنع بدمياط واستعد للحرب وحارب المسلمين، وقتل ابنه فى الحرب فعاد إلى دمياط، وجمع أصحابه فاستشارهم فى أمره، وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال: أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له، وما استغنى به أحد رلا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم تردَّ لهم راية، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد، وما لأحد عليهم قدرة، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع، وإن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر، والرأى أن تعقد معهم صلحًا ننال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم، فما أنت أكثر رجالاً من المقوقس، فلم يعبأ الهاموك بقوله، وغضب عليه فقتله. وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور، فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلّهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها، وبرز الهاموك للحرب، فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور المدينة وقد ملكوها.

فلما رأى «شطا» بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه عدة من أصحابه ففتّ ذلك فى عضد أبيه، واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط، واستخلف المقداد عليها، وسير بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص. أهـ.

البرلس[1] والدميرة[2] وأشموم طناح[3] وتنيس[4] وشطا[5].

ذكر المقريزى فى خططه (جـ١ ص٢١٤): وخرج شطا وقد أسلم إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح، فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم، وسار بهم لفتح تنيس، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله فى المعركة شهيداً، بعدما أنكى فيهم وقتل منهم، فحمل من المعركة ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط. وكان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت تلك الليلة كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحى عند شطا ويحيّونها وهم على ذلك إلى اليوم.

---

١ – ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: البرلس (بضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعد سين مهملة) ثغر عظيم من ثغور مصر، ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة واقعة فى الرمال التى بين البرلس وشاطئ البحر. والبرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط، وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية.

٢ – دميرة واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس، ذكرها ابن دقماق (جـ٥ ص٧٩) عند كلامه على تنيس ودمياط فقال: قال الحافظ جمال الدين: وبتنيس ودمياط يعمل القماش الرفيع، وإن كانت شطا ودبيق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع من القماش، ولابد أن يكون العرب قد استولوا على هذه المدينة مع تنيس ودمياط.

٣ – ذكرها ابن دقماق فقال. أشموم طناح وهى (بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى أخرها ميم وقيل نون) تعرف بأشموم طناح، وأشموم الرمان، وهى قصبة كورة الدقهلية، وهى مدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق، وهى على خليج النيل الشرقى، وهو البحر الذى حفره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى.

٤ – وقد أطنب كل من المقريزى وابن دقماق بذكر تنيس فقال المقريزى: كانت تنيس مدينة كبيرة. وكان أهلها مياسير اصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وكان يعمل بها الرفيع من القماش. وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمه غير أو قيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل أو خياطة وقيمته ألف دينار.

٥ – مدينة عند تنيس ودمياط، وإليها تنسب الثياب الشطوية ويقال إنها عرفت بشطا بن الهاموك، وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا.

وكان على تنيس رجل يقال له «أبو ثور» من العرب المتنصّرة، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون، فبرز لهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين، وانهزم أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعاً، وقسموا الغنائم. أهـ.

أما أبو ثور الذى ذكره المقريزى وابن دقماق وغيرهما فيظهر لنا أنه اسم مختلق. والذى يؤيد ملاحظتنا ادعاؤهم أنه كان من العرب المتنصرة، مع أننا لم نسمع بأن هؤلاء العرب قد اشتركوا مع الروم فى مصر حين الفتح الإسلامى.

ومن الخطل أن نوافق هؤلاء المؤرخين فيما يختص بعدد الجند الذين جمعهم حاكم تنيس. ونرى أنهم ربما بلغوا ألفين لا عشرين ألفاً، وذلك لسببين:

١ - لأن تاريخ فتح مصر لم يدون إلا بعده (الفتح) بقرنين على الأقل.

٢ - لأننا لم نعثر فى كتب مؤرخى القبط المعاصرين للفتح على ذكر «لأبى ثور» ولا للعشرين ألفاً، وممن أيد هذا الرأى أيضاً الدكتور «بطلر».

أما «شطا» الذى سميت المدينة باسمه فقد نقل «بطلر» عن «يوحنا أسقف نقيوس» أن مدينة شطا كانت معروفة قبل الفتح الإسلامى بزمن طويل، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون من قواد القبط من اعتنق الإسلام، وحارب فى صف العرب بحمية وبسالة.

ب - هل فتحت مصر صلحا أو عنوة

اختلف المؤرخون فى فتح مصر فقال قوم إنها فتحت صلحًا، وقال آخرون إنما فتحت عنوة. ولم تؤد أقوالهم إلى نتيجة ما، سوى سرد بعض الروايات، وعدم تمحيصها لكى يهتدوا بذلك إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع.

وقد قدّمنا شروط الصلح التى كانت بين عمرو والمقوقس. ولنذكر الآن بعض هذه الروايات المتباينة المتناقضة بإيجاز ليتسنى لنا بذلك ترجيح أحد القولين: أعنى كونها فتحت صلحاً أو عنوة.

والظاهر أن اضطراب المؤرخين راجع إلى أمور يعلم منها أن بعض مدن مصر فتح صلحاً، والبعض الآخر فتح عنوة.

وإليك هذه الأمور:

١ - من الشروط التى كانت بين عمرو المقوقس أثناء فيضان النيل (أى حين جنح المقوقس للصلح ودفع الجزية) يتضح أن عمراً عامل أهل مصر معاملة من فتحت بلادهم صلحًا. ولكن نظراً لرفض «هرقل» هذه الشروط واستمرار الروم فى الدفاع عن الحصن حتى فتحه العرب عنوة، يتضح أن هذا الفتح كان عنوة. ولكن إذا لاحظنا أن الحامية الرومية سلمت بشروط الصلح السابقة الذكر، وأن عمراً أجابهم إلى ذلك يتبين أن الحصن فتح صلحًا، وأن هذا العهد شمل جميع المصريين ممن فرضت عليهم الجزية.

٢ - وأما ما يتعلق بمدينة الإسكندرية فيتضح أنها سلمت قبل أن يتم لعمرو الاستيلاء على المدينة، وأبى عمرو أن يقسم

الغنائم أو يسبى أهلها فضرب عليهم الجزية. ولما نقض الروم الصلح عاد عمرو من بابليون واستردها، وبذلك فتحها عنوة، وأراد أن يجعل أموالهم فيئاً للمسلمين فأبى عليه عمر وأمره أن تكون كسائر بلاد مصر، فأحصى من دخلوا فى عهد الصلح من الأهالى فكانوا ثلاثمائة ألف، فضربت عليهم الجزية وأمروا بدفع الخراج.

٣ – على أن عمراً قد استولى بالفعل على قرى بلهيب[١] وسلطيس وقرطياً وغيرها وسبى أهلها لأنهم ظاهروا الروم على العرب وفرقت سباياهم حتى وصلت المدينة، فردهم عمر وصيّرهم أهل ذمة.

وإذا أمعنا النظر فى هذه النتائج الغريبة لفتح مصر ومبلغ الاختلاف فى روايا – المؤرخين، جاز لنا أن نؤكد أن هؤلاء المورخين كانوا معذورين فى اعتقاداتهم، وما وصلت إليه أفكارهم من الاضراب والتشويش والتعقيد.

ولعل ذلك راجع لبقاء العربى مدة قرنين مكتفيًا بسرد روايات الفتوح الإسلامية شفوياً، وعدم تدوين ما وقع من الحوادث كتابةً ليكون أدعى للبقاء، وما كنا نقرأ أن زيداً الراوية روى عن خالد مثلاً أن مصر فتحت صلحاً أو عنوةً.

فمن هنا جاء التناقض وتولد الاختلاف، وضاعت أكثر حقائق التاريخ، وأصبح البحث عن هذه الحقائق شاقاً على النفس غير محتمل الوصول إليها إلا فى القليل النادر. من ذلك أن بعض المؤرخين روى أن

---

١ – قال ياقوت فى معجمه، بلهيب من قرى مصر كان عمرو بن العاص حين قدم مصر صالح اهل بلهيب على الخراج والجزية. إلا بلهيب وخيس وسلطيس وقرطياً وسخا فإنها اعانت الروم على المسلمين.

حصن بابليون فتح صلحاً، وذكر بعضهم أنه فتح عنوة. وكذلك الحال فيما يتعلق بفتح الإسكندرية.

ومن المؤرخين الذين اتفقوا على أن مصر فتحت صلحاً: البلاذرى (ص٢٢٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وابن عبد الحكم (ص٧٦) عن الليث فقال إن مصر فتحت كلها صلحًا ما عدا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة، وعن هشام بن اسحق العامرى أن شروط الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر ستة وهى:

١ – لا يخرجون من ديارهم .

٢ – ولا تنتزع نساؤهم .

٣ – ولا كنوزهم .

٤ – ولا أراضيهم .

٥ – ولا يزاد عليهم.

٦ – ويُدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم(١).

فصارت الأرض بذلك أرض خراج، على أن يكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين، ولا يجعل المسلمون فيئًا ولا عبيداً ففعلوا. (ابن عبد الحكم ص ٧٦ –٧٩، والمقريزى جـ١ ص٢٩٤).

ومن المؤرخين الذين ذكروا أن مصر فتحت عنوة، المقريزى عن ابن لهيعة، وعن زيد بن أسلم أنه كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين من عاهدوه. فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد؛ وابن عبد الحكم عن يحيى بن عبد الله بن بكير أنه خرج أبو مسلمة ابن عبد

---

١ – والشرط السادس لم يذكره ابن عبد الحكم ولكنه ورد فى كتاب معاوية لعقبة بن أبى سفيان حين سأله هذا أرضاً يسترفق فيها عند قرية عقبة.

الرحمن يريد الإسكندرية فى سفينة فاحتاج إلى رجل يجدف فتسخر رجلاً من القبط فكلم فى ذلك فقال: إنما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم.

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص قال: لقد قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد. وعن يحيى بن بكير أن مصر كان فتح بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة.

ولكن إذا عرفنا أن مصر فتحت بالسيف واستولى عليها العرب بعد أن طردوا الروم منها، وهم المسلطون عليها، فلا نحجم عن القول بأنها فتحت عنوة، وإن المؤرخين الذين ساروا على هذا الرأى قد نظروا إلى الفتح من الوجهة العسكرية وهو صحيح، بدليل قول عمرو بن العاص «لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد» والظاهر أن الذين يميلون إلى القول بأن مصر فتحت عنوة يستدلون بما كان من الحرب بالفرما وبلبيس وأم دنين والإسكندرية، وكون هذه البلاد لم تفتح إلا بعد جهاد ونضال.

ولكن لا نغفل نص الصلح الذى كان بين عمرو والمقوقس، وهو متداول معروف. رواه أكثر المؤرخين المعدودين كالطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى والمقريزى والمسعودى، ومنه يعلم أن عمراً أبى أن يقسم الغنائم قبل أن يكتب لعمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر يأمره بإجابة المصريين إلى دفع الجزية والخراج.

وهذا يدل على سياسة رشيدة من جانب كل من عمر وعمرو، الذى لابد أن يكون قد اقترح على أمير المؤمنين أن يعامل المصريون معاملة من فتحت بلادهم صلحاً لكى يتألف بذلك قلوبهم. وهذا يحدث

كثيراً عقب فتوح البلاد. فيتجاوز الفاتحون عن بعض أمور فى مصلحة البلاد المحكومة، لكى يستقر بذك ملكهم على أهون سبيل.

يدلك على ذلك قول عمر لعمرو «واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس، وإنما هى أرض صلح، وما فيها للمسلمين فئ».

أما كون أبى مسلمة بن عبد الرحمن قد تسخر رجلاً من القبط يجدف له، وأنه اعتبر القبط كالعبيد، فإن هذه الحادثة الفردية لا تدل بأى حال على أن مصر فتحت عنوة.

ولا يمكننا أن نسلم بذلك من أجل حادثة كهذه، إذ قد يكون هذا القبطى قد تطوع للقيام بما طلب منه عن طيب خاطر، وأن عمل هذا الرجل لا يصلح أن يكون حجة على أمة بأسرها، ولا ناقضًا لأقوال الآخرين الذين ذكروا أن أهل مصر إنما هم أهل صلح.

أما قول يحيى بن خالد أن مصر فتح بعضها صلحًا وبعضها عنوة، وأن عمر جعلها كلها ذمة، فهو القول الذى نميل إليه، ونرغب فى ترجيحه، وهذا ما يمكن أن نستنبطه بعد بحث وتمحيص أقوال المؤرخين المتباينة. ومادام عمر رضى الله عنه قد أمر أن تعامل البلاد جميعها معاملة الصلح فيدفع أهلها الجزية والخراج، لا أن تكون ملكاً للفاتحين يتصرفون فيها كيف شاءوا، فيستولون على أراضيها وأموالها ويسبون نساءها، فإننا نرجح أن مصر فتحت عنوة، ولكن عمر عاملها معاملة البلاد التى فتحت صلحاً ليتألّف بذلك قلوب المصريين.

٥ - عمرو وتثبيت الفتح

أ - عمرو وفتح برقة وطرابلس

لم تقف همة عمرو العالية وعزيمته الماضية عند حد القناعة بفتح مملكة الفراعنة، وإخراج الروم منها وضياع سلطانهم على يديه، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية. وهى بلاد المغرب. ومما دعاه إلى القيام بهذا العمل شغفه بالفتح، ورغبته فى نشر لواء الإسلام، وميله إلى القضاء على سلطان الروم من البلاد الواقعة غربى الديار المصرية، ليأمن على مصر من هجماتهم إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها.

فلما فتح عمرو الاسكندرية سار فى جنده يخترق الصحراء حتى بلغ برقة[١]. وإقليمها هو حد مصر من الغرب، وتسمى أنطابلس - كما قال ابن دقماق والسيوطى. افتتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية وقدرها ثلاثة عشر ألف (١٣,٠٠٠) دينار يؤدونها إليه. ومن هنا يستدل على أنها فتحت صلحاً لا عنوة.

وقد أيد رأينا السيوطى (جـ١ ص٦٣) وابن دقماق (جـ١ ص١٤) وغيرهما.

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين، ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس[٢] فى

---

١ - قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: إن برقه تسمى فى لغة الروم (بنطاپوليس) يعنى الخمس مدن. لأن (پنطا) معناها خمسة و(پوليس): معناها مدينة، وبرقة واقعة فى صحراء حمراء، وهى دائمة الرخاء كثيرة الخير، وأكثر ذبائح أهل مصر منها، ويحمل إلى مصر منها العسل والقطران.

٢ - ذكرها البلاذرى وابن دقماق (أطرابلس) وذكرها على مبارك باشا (طرابلس) فقال: ومعنى (طرابلس) ثلاث مدن، فإن (طرا) معناها ثلاث و(بلس) معناها مدينة. وقال البكرى: وطرابلس مدينة على البحر لها سور من الحجر، وبها جامع وأسواق وحمامات، وهى كثيرة الفاكهة.

سنة ٢٢ للهجرة (يونيه سنة ٦٤٣م) على ما ذكره البلاذرى (ص٢٣٣) والكندى (ص١٠) وبطلر (ص٤٣٨)، وكانت حصونها أقوى من حصون برقة، وحاميتها أكثر عدداً فامتنعت عن العرب شهراً كاملاً[١].

ولما أنهك أهلها الجوع وشدة القتال تمكن العرب من الاستيلاء على المدينة من جهة البحر، لأنه لم يكن لها سور من جهته، فغزوا أهل المدينة وجندها بحراً ودخلها عمرو بجنده، ومن ثم عاد إلى برقة حيث أذعنت لطاعته قبيلة لواته التى كانت تسكن معظم هذه البلاد.

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين: إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين افريقية (تونس) تسعة أيام، فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل... فكتب إليه عمر ينهاه عنها، ويأمره بالوقوف عند هذا الحد، فعاد مكرهاً بعد أن استخلف على البلاد عقبة بن نافع الفهرى الذى صار إليه بعد لك فتح المغرب[١] أهـ.

وحسناً فعل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، لأنه كان أحرص ما يكون على جند المسلمين، وأمره عمراً بالوقوف عند هذا الحد يدل على حسن سياسته وبعد نظره، لأن تغلغل عمرو فى جوف تلك الأراضى الواسعة والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل، سيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة فى حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد.

فكان من رأى عمر أن يحتفظ بما فى يديه وأن لا يطوح بجنده فى مهاوى التهلكة وفى معا مع حروب لا يعلم نتيجتها إلا الله.

---

١ – ذكر ياقوت أن الحصار دام ثلاثة أشهر وذكر ابن خلدون أنه دام شهراً واحداً، وقال ابن عبد الحكم إنها افتتحت سنة ٢٣هـ، وهذا يدل على أنها افتتحت بعد برقة بمدة طويلة. اللهم إلا إذا كان فتح الأخيرة فى نهاية سنة ٢٢هـ.

٢ – فتوح البلدان للبلاذرى (ص٢٣٣) وتاريخ اليعقوبى (جـ١ ص٢٣٣).

ب - عمرو وفتح بلاد النوبة

لم يكتف عمرو بتأمين مصر من جهة الغرب، بل حاول أن يؤمنها من الجهة الوحيدة التى كانت لا تزال مصدر الخوف: وهى جهة الجنوب، فبعث نافع بن عبد القيس الفهرى (وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه) فدخلت خيلهم أرض النوبة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا. ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد وصالحهم، وذلك فى سنة ٣١هـ على أن يؤدوا للمسلمين ثلثمائة وستين رأساً، ولوالى البلد أربعين رأساً[١].

١ - تاريخ اليعقوبى (جـ١ ص١٨٠). أما شروط الصلح التى عقدها المسلمون مع أهالى النوبة فهى كثيرة وقد ترجمها «ستانلى لين پول» فى كتابه «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» (ص٢١ - ٢٣).

جـ - عمرو وانتقاض الروم في الإسكندرية

على أن الفتح برغم هذا كله لم يستتقر لعمرو، فما زال الروم يتطلعون إلى مصر، وما زال فى مصر ناس يتطلعون إلى الروم. وكان انتقاض الروم فى خلافة عثمان بن عفان(1) فى السنة الخامسة والعشرين(2).

وقد قيل فى سببه أن «طلَمَا» صاحب إخنا قدم على عمرو فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية، فأبى عمرو فغضب صاحب إخنا وخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم عمرو، وأسر القبطى، وأتى به إلى عمرو فأطلقه رغمًا عن إلحاح الناس بقتله، فرضى طلما بأداء الجزية وعدّ إطلاقه مكرمة عظيمة من عمرو حتى أنه صرّح بأنه لو أتى به إلى ملك الروم لقتله لوقته.

ونحن نرى أن هذا الخبر لا أساس له لأن عمراً لم ينقض عهده مع القبط أو زاد خراجهم، حتى أدى تمسكه بذلك إلى ازدياد النفرة والجفاء بينه وبين عمر.

أما السبب الذى يمكن الجزم بصحته فقد رواه ابن الأثير، وهو أن

---

١ – بويع عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٢٣هـ واستهل المحرم سنة ٢٤هـ، وفى خلافته نقض الروم صلحهم، واعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

٢ – ممن اتفق على هذه السنة البلاذرى (ص٢٢٨) (وفى قول آخر له سنة ٢٣هـ) وابن الأثير (جـ٣ ص٣٩) وأبو المحاسن (جـ١ ص٨٨) الذى حذا حذو البلاذرى إلا أنه رجح سنة ٢٥. والمقريزى (جـ١ ص١٦٨) والسيوطى (جـ١ ص٧٠) واليعقوبى (جـ١ ص١٨٩) وبطلر (ص٤٩٦) وستانلى لين پول (ص٢١).

أهل الاسكندرية كتبوا إلى «قسطنطين» إمبراطور الروم يهّونون عليه فتح الإسكندرية لقلة ما بها من حامية المسلمين. فتدبر قسطنطين الأمر، ولم يكن جرح الروم قد اندمل من ضياع مصر مصدر ثروة الإمبراطورية، فأمر بأن تعدّ على جناح السرعة وفى طيّ الكتمان عمارة بحرية لغزو الإسكندرية. وكان الروم فى ذلك الحين لا يزالون سادة البحار، فلم تجرؤ أمة من الأمم على مناوأتهم أو منافستهم فى هذا المضمار.

انتصار عمرو على الروم

قدم «منويل» الخصى إلى الإسكندرية على رأس جيش رومى كبير، واستولى عليها، فزحف عمرو فى طريق الإسكندرية سالكاً الطريق التى كان قد سلكها من قبل، وضمّ تحت لوائه كثيرين من القبط.

وزحف «مويل» ومعه من نقض من أهل الإسكندرية وغيرها من قرى الدلتا، وأخذوا يعيثون فى الأرض فساداً، ينزلون القرى فيشربون خمرها، ويأكلون أطعمتها وينهبون كل ما مروا به من دواب ومتاع ونحو ذلك، فلم يتعرض لهم أهالى تلك القرى لضعفهم، حتى وصلوا إلى (نقيوس) حيث اشتبكوا مع المسلمين[1]. فى القتال فى البر والبحر[2] وكثر الترامى بالنشاب حتى أصابت فرس عمرو، فنزل عنه، ثم شدّ المسلمون على الروم، وقاتلوهم قتال المستميت، ومازالوا بهم

١ – كان جند المسلمين خمسة عشر الفًا على ما رواه البلاذرى (ص٢٢٩) ولا شك ان جيش الروم كان اكبر من جيش المسلمين.

٢ – يراد بكلمة «البحر» – القناة التى كانت تمر بمدينة نقيوس.

حتى غلبوهم على أمرهم، وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً بحسن قيادة عمرو بن العاص. ولم يقف عمرو عند هذا الحد، بل تعقّب الفالة إلى الإسكندرية، واستردها منهم، ووضع فى رقابهم السيف. ثم أوقف رحى الحرب، وأمر بأن يبنى فى الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد، أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة، وقد قتل «منويل» فى هذه الموقعة التى لم تقل هولاً عن سابقاتها(١).

وقد هدم عمرو سور الإسكندرية، وكان قد حلف لئن أظفهره الله عليهم ليهدمنّ سورها، حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان.

---

١ - زعم كثير من مؤرخى العرب كالمقريزى (جـ١ ص١٦٧) والسيوطى (جـ١ ص٧٠) وغيرهما أن عمراً قد ضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط. مع أنه قد مات منذ مدة طويلة فخلطوا روايتهم فتكلموا على انتقاض الروم فى ولاية عثمان من حيث يريدون انتقاضهم الأول، ولعلهم عنوا (بنيامين) الذى كان حقيقة كبير القبط يومئذ. فخلطوا بينه وبين المقوقس الذى كان كبير القبط أيضاً فى أثناء فتح مصر منذ بضع سنوات. وقد شك البلاذرى فى بقاء المقوقس إلى هذا العهد فقال (ص٢٢٩): قيل إن المقوقس اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول. وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة، فكأنهم أرادوا (بنيامين) من حيث كانوا يريدون المقوقس.
وممن سار على هذا القول أيضاً، بطلر (ص ٤٧٨ - ٤٨١) وستانلى لين پول (ص٢١).

الباب الثالث

{ ولاية عمرو الأولي علي مصر
وأعماله الإدارية فيها }

أ - عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب

لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتاباً يصفها له فيه، ويشرح له السياسة التى سيتخذها فيها.

مصر تربة غبراء[١] وشجرة خضراء[٢] طولها شهر، وعرضها عشر[٣] يكتنفها جبل اغبر[٤] ورمل أعفر[٥] يخطُ وسطها نهر ميمون الغدوات. مبارك الروحات[٦] يجرى بالزيادة والنقصان، كجرى الشمس والقمر له أوان[٧] تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عجّ عجاجه[٨] وتعظّمت أمواجه[٩] لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب، وصغار المراكب، فإذا تكامل فى زيادته نكص[١٠] على عقبة كأول ما بدأ فى شدته، وطما فى حدته[١١] فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه[١٢] يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف[١٣] سقاه من فوقه الندى، وغذاه من تحته الثرى. فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه[١٤] فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء، وإذا هى

---

١ – سهلة الإنبات.

٢ – بمعنى انها كثيرة الشجر الأخضر.

٣ – لعله يزيد أن الماشى يقطعها طولاً فى شهر، وعرضاً فى عشرة أيام.

٤ – يحيط بها جبل ضارب إلى السواد.

٥ – أبيض مائل إلى الحمرة أو الصفرة.

٦ – محمود الذهاب والإياب.

٧ – يزيد وينقص فى أزمنة معينة.

٨ – معظم مائه.

٩ – تقطعت وتسربت فى الأراضى.

١٠ – رجع وذهب.

١١ – أى نقص بشدة كما زاد بقوة.

١٢ – أعالى الأرض وأسافلها.

١٣ – ظهر وبان.

١٤ – يعظم محصوله.

زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينميّها ويقر قاطنها فيها، أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وأن لا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتراعها، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل[1]. اهـ.

وصف عمرو مصر لعمر بهذا الكتاب الذى رواه كثير من المؤرخين المتأرخين، ولكنا نشك فى أن ألفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو فى صدر الإسلام.

قال أبو المحاسن: فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص. لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.

وقد تُرجم كتاب عمرو بن العاص الذى أرسله إلى عمر لما استولى على مصر، ونشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير «أوكتاف أوزان» فى جريدة (الفيجارو) الفرنساوية، ونقلته عنها برمته مع التعليقات التى علقها عليه المسيو «أوزان» والذى وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم، وقال عنه إنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه، واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.

وقد ترجم هذا الوصف من مؤرخى الإنجليز المؤرخ «جبون» والدكتور «بطلر».

---

١ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن (جـ١ ص٣٣ – ٣٤).

ب - تحول عمرو إلي الفسطاط
وتحببه إلي القبط ورده بنيامين إلي كرسيه

بعد استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية تحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الفسطاط بعد أن قره والياً عليها، وسبب تحوله أنه لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغًا منها (قد شيدت غير محتاجة إلى إصلاح) وقد جلا من كان يسكنها منالروم، همَّ أن يسكنها وقال: منازل قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء. متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت. اهـ.

كانت الصلة بين مصر وبين الدول المالكة لها منذ الإسكندر، تستلزم أن تكون العاصمة فى الإسكندرية، فلما انتقل مركز السيادةعلى مصر إلى بلاد العرب، كان يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية. ولكن العرب لم يكونوا أمة بحرية، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر فى نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب، إلى هذا كله لا نغفل عن حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يمكنه من ملاحظة قسمى البلاد المصرية شمالاً وجنوباً، مع أنه قريب من الطريق إلى بلاد العرب. يدلك على ذلك قول عمر «إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف».

تحوّل عمرو إلى الفسطاط، فكان خير وال، وأعظم قائد، وأحبَّ الولاة إلى الرعية، وأشدهم قياماً على العدل، والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها، فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين، ورأى بما اشتهر عنه من بعد النظر وحسن السياسة أن يتحبب إلى القبط فيمتلك قلوبهم، ليرجع الأمن إلى نصابه ويسود السلام والطمأنينة فى ربوع البلاد، فيأمن الفتن والقلاقل، ثم يتفرغ بعد إلى إدارة البلاد وإنهاضها. ولا غرو إذا تفانى المصريون فى محبته وبالغوا فى تعظيمه، فقد أزال ما حاق ببلادهم من نير الروم، وما حل بهم من شدة البلاء، ففكهّم من أسر الضيم الذى عانوه، ولم يتعرض لهم فى عاداتهم بشئ ألبتة، وأمنهم على أموالهم وعيالهم وحمى بلادهم من هجمات المغيرين وعبث العابثين، وقد قاسوا الأمرّين من جراء الانتصار لمعتقدهم فى عهد الروم كما بينا.

ومما يذكر لعمرو بالشكر أن انه كتب أماناً للبطريرق بنيامين ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة، فسر هذا العمل البطريرق وشكر عمراً عليه.

سار بنيامين إلى الإسكندرية حيث أمر عمرو باستقباله بكل حفاوة وتعظيم، ولما قدم البطريرق ولقى عمراً ألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمنه كل ما عن له من الاقتراحات التى رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لأدارة شؤون الكنيسة.

وقد لاحظ «بطلر» أن عودة بنيامين إلى عرض الكنيسة قد كفاها شر الوقوع فى أزمة خطيرة كانت لا محالة مؤديةً بها إلى الاضمحلال والدمار.

وإن الخطبة البليغة التى ألقاها باسيلى أسقف نقيوس بدير مقاريوس لخير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الإسلامى فى غبطة وسرور لتخلصهم من عصف الروم. يدلك على صحة ما نقول رد بنيامين على باسيلى بقوله «لقد وجدت فى مدينة الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة التى كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون» فهذه هى الكلمات التى فاه بها البطريرق ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الراحة التى شعر بها المصريون فى عهد عمرو. ومما يؤيد هذا القول وصف «ساويرس» القوم بأنهم كانوا فى ذلك اليوم (أى اليوم الذى زار فيه بنيامين دير مقاريوس) كالثيرة إذا أطلقت من قيودها.

جـ - عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط

أ - ما قيل في تسمية الفسطاط

شرع عمرو فى غرس بذور الحضارة الإسلامية فى مصر وبسط جناح الإسلام فى أرجاء البلاد، وكان أول ما قام به من أعماله الخالدة تأسيس مدينة الفسطاط ليجعلها حاضرة البلاد ودار الإمارة.

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم، ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون، حيث كان ينزل به شحنة الروم، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة، وقد عين موضعها الأستاذ يوسف افندى أحمد فقال: إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو والتى تمتد شرقًا حتى قرب سفح جبل المقطم، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبى. اهـ.

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص لم افتتح مدينة الإسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق، وبجامع عمرو بن العاص، واختطت قبائل العرب من حوله، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط.

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة، فقال بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية أمر بفسطاطه أن يقوض فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقرّوا الفسطاط حتى يطير فراخها فأقر فى موضعه، فبذلك سميت الفسطاط.



جزء من أطلال مدينة الفسطا ط

وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، وقيل: لما عاد عمرو من الإسكندرية قال: أين تنزلون؟ فقالوا: الفسطاط - يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه، وكان مضروباً فى موضع داره الصغرى التى بحذاء داره البرى وجامعه، فاختط عمرو داره فى موضع الفسطاط، والدار التى إلى جانبها، فلما نزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها إلى بعض، وتنافسوا فى المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من المسلمين، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل(١).

ولا يبعد أن يكونوا قد اختاروا النزول فى الموضع الذى نزلوا فيه أولاً، لصلاحه وقربه من النيل.

وقال ابن قتيبة فى كتاب (غريب الحديث) إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط (بضم أوله وكسره وإسكان ثانيه): أى المدينة. وقال بطلر: إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ «فسّاتم»، ومعناه «مدينة حصينة» أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم فى الشام، وربما كان هذا هو أرجح الأقوال.

٢ - الفسطاط ودار الإمارة:

اختطت مدينة الفسطاط بعد الفتح الإسلامى بناء على رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حتى لا يحول بينه وبين المسلمين ماء، فصارت قاعدة للديار المصرية، ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر (جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكبش) سنة ١٣٣ للهجرة، فنزلَ فيها أمراء مصر وسكنوها.

ومما قاله ابن خلدون فى مقدمته (١٦٩): ويشترط فى اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة

---

١ - ذكر هؤلاء ابن دقماق فقال (ج٤ ص٣٢٢): معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى، وحويل بن ناشر المعافرى.

بحـر أو نهر بهـا حـتى لا يوصل إليـها إلا بعـد العـبـور، وطيب الهـواء للسـلامة من الأمراض، وقـرب الزرع منها ليـحصل الناس عـلى الأقوات. وختم كلامه بقوله بأن العرب لم يراعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالقيروان والكوفة والبصرة، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية. أهـ.

وإن كـان ابن خلدون قـد أصـاب فى بعض مـاذكـره؛ فـإن إقـواله تنطبق مـن جـهـة على بعض المدن التى أسسـهـا العـرب، ولا تـنطبق من جـهـة أخـرى على البـعض الآخـر كـالفـسطاط، لمراعـاة الأمـور الطبـيـعـية والسياسية التى أدت إلى تأسيسها، لأن النيل يحدّها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع فيما بينها، وبين الجبل من جهة، وبين جبل يشكر من جـهـة أخـرى، وكـذا لـوقـوعـهـا على رأس الدلتـا لـيـسـهل الإشـراف على الوجـهين البحـرى والقبلى، ولما لـم تكن العرب أمـة بحرية كما تقدم، لم يكن هناك داع لتأسيس العاصمة على البحر الأحمر حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء، كما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

٣ - الخطط التي كانت بمدينة الفسطاط:

قـال المقـريـزى (جـ١ ص٢٩٦) اعلم أن الخطط التى كـانت بمدينة فـسطاط مصـر بمنزلة الحارات التى هى الـيوم بالقـاهـرة، فقـيل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة. أهـ.

فلمـا عزم عـمرو على تخطيط الـفسطاط ولى أربعـة من المسلمين كما قدمنا فاختطوا لكل قبيلة خطة.

قال «بطلر»: والظاهر أن الذى قـام بتنفيذ هـذا الأمـر إنما هـم القبط لدرايتهم بفن العمارة، التى كان يجهلها العرب.

ونحن نستبعد ذلك لأن الأبنية التى أقامها العرب هى من لبن دور واحد لا تحتاج إلى معمارى أو هندسة. ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو فإنه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ فى السقف حتى يتخلل الهواء داخله، وقد كان العرب يستظلون بفنائه وينتقلون بجوانبه تبعاً للظل، وذلك من شدة الحر بداخله.

وكانت بيوت الصحابة فى بادئ الأمر طبقة واحدة، وأول من ابتنى غرفة بالفسطاط خارجة بن حذافة، فبلغ عمر بن الخطاب أمرها وأنه أراد أن يطلع على عورات جيرانه، فكتب إلى عمرو بن العاص يقول: ادخل غرفة خارجة، وانصب فيها سريراً، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها. ففعل ذلك عمرو، ولم يبلغ الكوى فأقرها.

بعد ذلك أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئًا فشيئًا حتى صار ارتفاع أغلب الأرض خمس طبقات وستاً وسبعًا وثمانيًا. وبعد أن كانت الدار تسكنها أسرة قليلة العدد أصبح يسكنها المائتان من الناس، وكانوا لا يسكنون فى أسفل دورهم (الطابق الأرضى) لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء الكافية إليه. بل يجعلونه مخزناً لهم، وقلما تخلو دار من بئر وأحواض لخزن المياه العذبة وحمام وبركة (فسقية).

وكانت ابنيتهم على جانب عظيم من الترتيب والإبداع، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة - كل ذلك بعد الفتح بزمن.

وإليك صور بعض الأبنية الباقية من مدينة الفسطاط أخذها حضرة محمد أفندى يوسف بالتصوير الشمسى خصيصًا لهذه الرسالة، ومنها يظهر ما كانت عليه هذه المدينة.

د - عمرو وتأسيس الجامع العتيق

إلى الشمال من حصن بابليون جامع عمرو بن العاص، وهو أقدم جامع إسلامى[1] بنى فى مصر يظهر عليه الجلال وتكسوه المهابة، لأن اسمه مقرون باسم مؤسسه، لهذا وجب على المصريين ولا سيما المسلمين منهم أن يعنوا بهذا الجامع عناية كبرى.

أسس هذا الجامع سنة إحدى وعشرين من الهجرة على ماروواه أبو المحاسن وابن دقماق والذى حاز موضعه قيسبة[2] بن كلثوم التجيبى، فلما رجع المسلمون من الإسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسبة هذا فى منزله ليجعله مسجداً فأجابه إلى طلبه وتصدق به على المسلمين، ومن ثَمَّ شرع عمرو فى بنائه، فكان طوله خمسين ذراعًا وعرضه ثلاثين.

ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن. ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد[3] بن الأسود وعُبادة بن الصامت.

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة ابن شريك[4]، وكان له بابان مقابلان دار عمرو وبابان شماليه وبابان غربيه، وكان الخارج من زقاق القناديل[5] يلقى ركن الجامع

---

١ – ولم يبق من البناء القديم شئ أصلاً. والبناء الموجود الآن بعضه منذ سبعة قرون والبعض منذ خمسة والأغلب منذ سنة ١٢١١هـ.

٢ – ذكر هذا اللفظ السيوطى وابن دقماق، وذكره أبو المحاسن «قتيبة» وهو خطأ.

٣ – ذكر بطلر فى تاريخه هذا اللفظ خطأ فقال «قدَّاد».

٤ – كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ إلى سنة ٩٦هـ.

٥ – دعى بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف، وكان على أبوابهم القناديل، وقيل إنما قيل له زقاق القنديل لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو؛ وهو من الخطط القديمة، وله أربعة مسالك.



جامع عمرو بن العاص

الشـرقى مـحـاذياً ركن جـامع عـمـرو الغـربى، وكـان طولـه من القـبلة إلى الغرب مثل طول دار عمـرو، وسـقفه منخفضـًا جداً ولا صـحن له، وكانوا يصلّون بفنـائه، وكـان بينه وبين دار عـمـرو سـبـعـة أذرع، وكـان الطريق مـحيطاً به من جميع جوانبه، وكان عـمـرو قد اتـخذ منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يأمـره بكسـره: «أمـا يحسـبك أن تقـوم قـائمـًا والمسـلمون جلوس تحت عقبيك؟» فكسـره عمرو.

هـ - خطبة لعمرو في هذا الجامع

وقبل أن نختم كلمتنا نأتى بأحدى خطب عمرو بن العاص فى هذا الجامع. أخرج أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافرى قال:

رحتُ أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة، وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذُعرت فقلت: يا أبت من هؤلاء؟ قال: يا بنى هؤلاء الشرط. فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيت رجلاً ربعة، قصير القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنّ به العقبان تأتلق، عليه حلة وعمامة وجبة، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم، فسمعته يحضُّ على الزكاة، وصلة الأرحام، ويأمر بالاقتصاد، وينهى عن الفضول، وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال:

يا معشر الناس إياكم وخلالاً أربعاً، فإنها تدعوا إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذلة بعد العزة: إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال، ثم لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه، والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد[1] والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلاً، وعن حلال الله وحرامه باطلاً. يا معشر الناس: إنه قد تدلّت الجوزاء، وزلّت الشعرى، وأقلعت السماء[2] وارتفع

١ – الاعتدال.

٢ – أقلعت السماء أى كفت، وهو كناية عن انقطاع المطر.

الوباء وقل الندى وطلب المرعى، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فحىّ لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم، فتناولوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، واربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها وأكرموها، فأنها جُنتكم(1) من عدوكم، وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً، وإياكم والمومسات المعسولات(2) فإنهن يفسدن الدين، ويقصرن الهمم، حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم فيكم صهراً وذمة، فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم(3)، ولا أعلمنّ(4) ما أتى رجل قد أسمن جسمه، وأهزل فرسه، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة، لكثرة الأعداء حولكم، وتشوّف قلوبهم إليكم؛ وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر رضى الله عنه: ولمَ يارسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة. فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى

---

١ - الجنة هى الوقاية.

٢ - العواهر.

٣ - يشير إلى قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن...﴾إلخ.

٤ - جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة. وما مصدرية، أى فو الله لا علمنّ إتيان رجل موصوف بما ذكر، وفى طيه من الترهيب البليغ ما لا يخفى، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله: فمن أهزل فرسه. إلخ.

ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود، وسخن الماء، وكثر الذباب، وحمض اللبن وصوح البقل، وانقطع الورد من الشجر، فحيّ إلى فسطاطكم على بركة الله؛ ولا يقدمنَّ أحد منكم ذو عيال، إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته، أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم[1] اهـ.

هذه الخطبة تمثل لنا عمرو بن العاص رجلاً ناصحًا لرعيته، حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب، وإظهار زهد عمر، وإن كانت تنمُ بحبه للذات الحياة، وحثه الناس على أن يستمتعوا بها من غير إسراف؛ ثم نلاحظ هنا حثه الناس على تعهد الخيل، فإنه ربما دّلنا على أن عمراً كان يضمر فى نفسه حرباً أخرى فى أفريقية الشمالية، مع أن هذا كان لازمًا، لأن الروم كانوا يترقبون الفرص للإغارة على مصر من جديد، مما يدل على أن عمراً لم يكن يقتنع بفتح مصر، وإنما كان يحث الناس على الاعتناء بالخيل كأنه يضمر حرباً أخرى ما حاول من فتح برقة، وكان هذا الفتح طبيعياً، لأن مصر مازالت منذ عصورها الأولى إلى الآن تلاحظ هذا القسم من أفريقية الشمالية كأنه امتداد طبيعى لها.

---

١ - الخطط للمقريزى (جـ٢ ص ٢٦٠).

و - عمرو وحفر خليج القاهرة

كان من أعمال عمرو المشكورة فى مصر حفر خليج القاهرة -المعروف بخليج أمير المؤمنين. وقد قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: يظهر من أقوال المقريزى وغيره أن هذا الخليج بعضٌ من خليج قديم كان مستعملاً فى الأزمان الغابرة فى الملاحة، وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر، وكانت بواسطته تجارة بلاد العرب والهند والسودان تدخل القطر المصرى، وتتوزع فى بلاده، كما أن التجارة المصرية كانت تحملها السفن فيه إلى البحر الأحمر فتدخل فى جميع البلاد المذكورة، فهو بهذا الاعتبار اثر من الآثار العتيقة يستحق الذكر. اهـ.

ولم يترك صاحب الخطط التوفيقية واردةً إلا أوردها ولا شاردةً إلا اقتفى أثرها، مما لا يترك زيادة لمستزيد، كذلك أفرد له المقريزى باباً خاصًا أطال القول فيه، وعنه أخذ على مبارك باشا والسيوطى وغيرهما... وقد ذكر المقريزى فى خططه أن هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها وبين المقس. عُرف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، وهو خليج قديم أول من حفره «طوطيس بن ماليا» أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، وهو الذى قدم خليل الله إبراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر وأخذ امرأته سارة وأخدمها هاجر أم إسماعيل، فلما أسكنها إبراهيم هى وابنها إسماعيل فى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيث به، فأمر بحفر هذا الخليج وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جُدَّة فأحيا بلد الحجاز.. وقد تمادت الدهور والأعوام فجدَّد هذا الخليج أندرومانوس (إدريان) قيصر الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف وأربعمائة سنة. اهـ.

ونحن نستبعد جداً أن يأمر سلاطيس بحفر هذا الخليج من أجل خادمة ونجزم بأنها خرافة.

ولما وفد «هيرودوت» على مصر وساح فى أرضها قبل المسيح بأربعة قرون ونصف قرن قال فيما كتبه عليها إن «نيخوس بن ابسامتكوس» هو أول من شرع فى اتصال النيل بالبحر الأحمر، ولم يتمه، ولما دخلت مصر فى حكم الفرس فى زمن «دارا» شرع فيه مرة ثانية فأتمه، وجعل طوله أربعة أيام ملاحية وعرضه بحيث تمر فيه سفينتان بالمجاذيف، وكان يملأ بماء النيل، ومبدؤه فوق مدينة بوبسط[1] بقليل بقرب مدينة باطموس[2]. ثم يتبع سير الأودية بعد أن يبعد عن الجبل فى جهة الجنوب ويصب فى البحر.

وفى تاريخ القرون الوسطى لمؤلفه «لبون» أن عمر بن الخطاب لم يأذن بفتح خليج البرزخ بين الفرما والبحر الأحمر، واكتفى عمرو بن العاص بأصلاح خليج «تراچان» الذى كان (ادريان) مدّه إلى النيل بقرب بابليون، ويمر ببلبيس، وأوصله بخليج (نيخوس) القديم، الذى كمله (دارا) ملك الفرس، واجتمع من الخليجين خليج واحد، كان ينتهى إلى مستنقع المالح. وفى زمن «بطليموس لاغوس»[3] عملت ترعة من نهايته لتوصيل المياه الحلوة إلى مدينة أرسنوية[4] لنهاية البحر الأحمر الذى فيه الآن مدينة السويس، وكان مبدأ هذا الخليج مدينة بابليون، ويمر بعين شمس، ووادى الطميلات إلى القنطرة، ثم يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم.

---

١ – تل بسطة بجوار الزقازيق.

٢ – مدينة باطموس هى التى خلفتها قرية التل الكبير الآن، وكان مبدأ هذا الخليج بقربها.

٣ – يقول بطلر إن هذا كان فى زمن (بطليموس فيلادلف الثانى).

٤ – كانت مدينة ارسنوية على ساحل البحيرات المرة، وقد زالت الآن.

ومما تقدم يعلم أن خليج تزاچان وأدريان هما بجملتهما خليج واحد، وهو خليج القاهرة، وكان ينتهى إلى البحيرات المرة، ثم مده (بطليموس) إلى السويس، وهذا الخليج لا يصلح للملاحة إلا فى زمن ارتفاع النيل، وقد أهملته الروم حتى طمَّ وردم بالأتربة فى معظم مواضعه حتى احتفره عمرو ثانياً، واستعمله لنقل الميرة فى المراكب إلى الحجاز، ولم يقلَّ طول هذا الخليج عن ثمانين ميلاً.

وكان سبب حفر هذا الخليج فى عهد عمرو بن العاص على ما أخرجه السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك. أما بعد، فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى. فياغوثاه ثم يا غوثاه.

فكتب عمرو بن العاص: أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وأخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله... فبعث إليه بعير عظيمة فلما قدمت على عمر وسعَّ بها على الناس، وكتب إلى عمرو بن العاص إن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى لما أحببتُ من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر، وجعلها قوة لهم، ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإنَّ حمله على الظهر يبعد، ولا نبلغ به ما نريد، فانطلق وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيكم رأيكم. فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر. فثقُل ذلك

عليهم وقالوا: نتخوّف أن يدخل من هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون، ولا تجد إليه سبيلاً. فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر حين رآه وقال: والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أُمرتُ به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له: هذا لا يعتدل ولا نجد إليه سبيلاً. فعجب عمرو من قول عمر وقال: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين. لقد كان الأمر على ما ذكرت. فقال عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجدَّ فى ذلك، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى. أهـ.

ويخيل إلينا أن كل هذا إنما اخترع فيما بعد، وأن عمراً رأى آثار هذا الخليج القديم، فاحتفره وأصلحه تسهيلاً للمواصلة بينه وبين المدينة.

فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم (السويس)، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن. فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسمى «خليج أمير المؤمنين» ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز، ثم ضيّعه الولاة بعد ذلك، فتُرك وغلب عليه الرمل، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمسلح من ناحية بطحاء القلزم[1]. أهـ.

وقد ذكر الكندى أن عمراً حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣م) وفرغ منه فى ستة أشهر.

---

١ - يقرب من محلها الآن مدينة السويس، وإليها ينسب البحر فيقال بحر القلزم.

يتضح مما تقدم أن عمر أمر بحفر الخليج، وقد شرع فى ذلك أثناء خلافته، وفعلاً جرت المؤن فيه ووصلت إلى بلاد العرب قبل وفاته فى ذى الحجة سنة ٢٣للهجرة، ولا يفهم من قول الكندى هل شُرع فى حفر الخليج سنة ٢٣هـ أو تم حفره سنة ٢٣ ، فيحتمل أن يكون قد شرع فى حفره فى نهاية سنة ٢٢هـ، وحينئذ لا يكون ذلك عام الرمادة وهو الأشبه.

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقى من هذا الخليج فأمرت بطمّه سنة ١٨٩٧م.

ز - عمرو ومقاييس النيل وزيادته

لا ريب فى أن حياة مصر متوقفة على النيل، وعلى هذا يتوقف محصول البلاد، الذى يزداد بزيادة مائه، وينقص بنقصانه، لهذا لم يأل حكام مصر منذ الأزمان الغابرة جهداً فى قياس درجة فيضانه فى كل سنة فى مواضع كثيرة، لأن القياس المذكور هو القاعدة فى ربط المال وتوزيعه على البلاد، وعليه يتوقّف تنظيم الخراج، ولم يعزب عن بال عمرو ضرورة قياس النيل قياساً مضبوطاً، ليتأتى له جباية الأموال بالقسط والعدل.

فلما فتح العرب مصر، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقى أهلُها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده، فكتب إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه: إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعًا، والحد الذى يُروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعًا، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان، وهما الظمأ والاستبحار اثنى عشر ذراعًا فى النقصان وثمانية عشر ذراعًا فى الزيادة، فكتب إليه عمر أن يبنى مقياسًا، وأن يضيف ذراعين على الأثنى عشر ذراعاً؛ وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين، ففعل ذلك وبناه بحلوان، وجعل الأثنى عشر ذراعًا أربعة عشر ذراعًا، لأن كل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الأثنى عشر، ثمانية وأربعين إصبعًا وهى الذراعان، وجعل الأربعة عشر ستة عشر، والستة عشر ثمانية عشر، والثمانية عشر عشرين، وهى المستقرّة الآن، المقريزى (جـ١ ص٧٤).

ح - عمرو وخراج مصر في الإسلام

سار عمرو مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية، ومراعاة حال النيل فى النقصان والزيادة، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج، فكان عمر رضى الله عنه يظن فيه الظنون، وربما كان ذلك لجبايته (١٢,٠٠,٠٠) دينار، مع أن المقوقس جباها (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) ويظهر ذلك من المكاتبات التى دارت بين عمرو وعمر بهذا الصدد، ومنها يُعلم أن النزاع ازداد بينهما، وأن سوء التفاهم قد وصل إلى مدى بعيد.

وإليك كتاب عمر إلى عمرو حين استبطأه مرة فى الخراج نقلاً عن «حسن المحاضرة» للسيوطى: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك. أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكمًا، مع شدة عتوّهم وكفرهم، فعجبتُ من ذلك، وأعجبُ مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب، ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك، سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك، فاذا أنت تأتينى بمعاريض[1]

---

١ - المعاريض هى التورية بالشئ عن الشئ وهى الستر، يقال عرفته فى معراض كلامه وفى لحن كلامه، فالتعريض خلاف التصريح من القول.

٢ - اى يظنها مما يعبأ به اى يهتم له، وهى لا شئ عندى، وقد ذكرها السيوطى «تفتالها».

تعباً بها[٢] لا توافق الذى فى نفسى. ولستُ قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحًا إن البراءة لنافعة، ولئن كنت مضيعاً نطعاً[١] إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك، ولقد تركت أن أبتلى[٢] ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىَّ ذلك، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء، وما توالس عليك وتلفف[٣] اتخذوك كهفاً، وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فأن النهر يخرج الدر والحق أبلج[٤] ودعنى وما عنه تلجلج[٥] فإنه قد برح الخفاء والسلام. أهـ.

هذا الكتاب يدلنا:

أولا: على ما هو معروف عن عمر من شدته وضربه على أيدى العمال والولاة.

ثانياً: على أن نفراً من المنافسين لعمرو بن العاص كانوا قد أخذوا يسيئون ما بينه وبين الخليفة، ويبينون لهذا إهمال عمرو وسوء إدارته، وربما اتهموه بمحاباة العمال المفسدين حين لم يستطيعوا أن يتهموه مباشرةً بالخيانة.

ونحن نستدل مما جاء فى هذا الكتاب على أن عمر كان قد كتب إلى عمرو بخصوص الخراج من قبل، وأن مصر لم تكن تؤدى نصف

١ – التشدق بالكلام.
٢ – امتحن واختبر.
٣ – قوله توالس وتلفف بمعنى واحد.
٤ – مضئ مشرق لا يخفيه التمويه.
٥ – التردد فى الكلام.

ما كانت تؤديه، إن صح أن مصر كانت تؤدى هذا المقدار قبل الإسلام، أى أن الخراج كان أقلّ من عشة آلاف ألف (١٠,٠٠٠,٠٠٠). ولا ندرى ما هى المعاريض التى كان يأتى بها عمرو، وقد ظنّ عمر أن قلة الخراج كانت راجعةً إلى عدم مراقبته عمال الخراج وقلة جبايته، وأنهم كانوا يستولون على بعضها لأنفسهم، وإن صح ذلك كان نقطة ضعف فى سياسة عمرو، ولكن إذا عرفنا أن من أموال الخراج كانت تُدفع أعطيات الجند، وتنفّذ المشاريع التى يتطلّبها الأصلاح، كشق الترع وبناء القناطر، فلا نحجم عن القول بأن عمراً كان له العذر فيما فعل، إذ راعى مصلحة الدولة الحاكمة والبلاد المحكومة، ورأى أن مصر فى حاجة إلى الإصلاح الذى لا يتم إلا بالمال، وكتاب عمر كما يظهر مفعم بالتعريض واللوم. أما قول عمر رضى الله عنه: إنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه قبل ذلك، يفيد أن عمراً قد خفف على المصريين الأعباء الثقيلة التى كانوا يئنون تحتها من تعدُّد الضرائب التى شلمت كل شئ كما قدمنا، وهو مظهر من مظاهر الاستبداد لا يرضى به عمرو. ومن راجع كتاب المستر ملن «مصر فى عهد الرومان» حيث أفرد فيه باباً خاصًا للضرائب، لا يسعه إلا أن يعزو نقص الخراج فى أيام عمرو عما كان عليه فى عهد الروم إلى إلغاء كثير منها، وعدم رضائه بالإخلال بعهده لأهل مصر، ذلك العهد الذى شمل شروطًا ثابتة، راعى فيها عدد القبط وحال الأرضين. ولا شكّ أن خراج مصر قد قلّ نسبياً بعد الفتح لاعتناق كثير من المصريين الإسلام فيما بعد. ففى أيام الدولة الأموية كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يضع الجزية عمن أسلم، فكتب إليه حيان إن الإسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلف من الحارث ابن نابت عشرين ألف درهم أتمّ بها عطاء أهل الديوان، وطلب منه أن يأمر بقضائها، فكتب إليه عمر «ضع الجزية عمن أسلم قبّح الله رأيك، فأن الله

إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمرى لعمرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه».

ولكنّ نفس عمرو العالية، وعدم تعوده احتمال الضيم أو سماع المكروه أبى عليه ذلك، فكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً يرد عليه قوله ويبرئ فيه نفسه، ويظهر له أنه ذو نفس أبية، وأن ماضى تاريخه خير شاهد على صحة ما يقول، وإليك نص هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام الله عليك. فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منذ كان الإسلام، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام، وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبته حلباً قطع درّها، وأكثرت فى كتابك وأنّبتَ وعرّضت وتربّت[1] وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر، فجئت لعمرى بالمفظّعات المقذّعات، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنّا سابق.

فبينما عمرو يقول إن المصريين استنظروه فأنظرهم، إذ الرسول يقول إن عمراً لا ينظر إلا لما يقع تحت عينه من مال، وفى هذا

١ – تربت: بالتاء المثلثة بعدها راء مشددة بعدها باء موحدة من تحت ثم تاء مثناه، بمعنى ضيقت. ومنه قول يوسف لأخوته: لا تثريب عليكم اليوم، ويراد بها الحث والتحريض كما فى قوله عليه السلام (تربت يداك – من باب تعب ايضاً) وهى من الكلمات التى جاءت عن العرب صورتها دعاء، ولا يراد بها الدعاء، بل الحث والتحريض.

الدليل الواضح على أن عمراً أراد أن يقنع الخليفة بأنه مع رفقه ولطفه بالمصريين لا يستطيع أن يُقنعهَ.

أراد عمر أن يوسعَ على عمرو لكى لا يتطلع إلى أموال الخراج، فكتب إليه كتاباً يعلمه بذلك، ويبين له طريقة توزيع الخراج:

أما بعد فأنى فرضت لمن قبلى فى الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان، فانظر من فرضت له ونزل بك، فاردد عليه العطاء وعلى ذريته، ومن نزل بك ممن لم أفرض له، فافرض له على نحو ما رأيتنى فرضت لأشباهه، وخذ لنفسك مائتى دينار[1] ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك، لأنك من عمال المسلمين، فألحقتك بأرفع ذلك، وقد علمت أن مؤناً تلزمك، فوفر الخراج وخذه من حقه، ثم عفَّ عنه بعد جمعه، فإذا حصل إليك وجمعته، أخرجت عطاء المسلمين، وما يحتاج إليه مما لا بد منه، ثم انظر فيما بقى بعد ذلك فاحمله إلىّ، واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس، وإنما هى أرض صلح[2] وما فيها للمسلمين فئ، تبدأ بمن أغنى عنهم فى ثغورهم (أى المرابطين)، وأجزا[3] عنهم فى أعمالهم، ثم اقض ما فضل بعد ذلك على من سمى الله[4] واعلم يا

١ – لعلَّ هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لا فرض العطاء، إذ إن عمر كان يجرى على العمال جراية هى غير نصيبهم من العطاء، وقد ذكر فى سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاه ورأسها وجلدها وأكارعها، ومن هنا يعلم أن عماله كان لهم جرايات، وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله: (مع عطائه).

٢ – وهذا يؤيد رأينا بأن مصر فتحت صلحًا لا عنوة، وأن عمر قد أمر بأن يعامل أهالى المدن التى فتحت عنوة معاملة الصلح، فشمل ذلك جميع المصريين على السواء.

٣ – اقض. ٤ – أى فى القرآن.

عمرو أن الله يراك ويرى عملك، فإنه قال تبارك وتعالى فى كتابه: ﴿واجعلنا للمتقين إمامًا﴾ يريد أن يقتدى به، وإن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال (استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما) ورحمهم أن أم إسماعيل منهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) إحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً، فإنه من خاصمه خصمه، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة، وأنست من نفسى ضعفًا، وانتشرت رعيتى ورقّ عظمى، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه. أهـ.

ومن هنا يتضح أنه كان لعمرو منزلة خاصة فى نفس عمر بالرغم من معاملته الشديدة فى مكاتباته له. ولم تقف معاملة عمر لعمرو عند هذا الحد بل قاسمه ماله (عمراً) كما يعلم من رواية البلاذرى (ص٢١٧) قال: كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولأهم، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم، فكتب إلى عمرو بن العاص «إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن حين وليت مصر».

فكتب إليه عمرو: إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا. فكتب إليه عمر: إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظناً، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برّح الخفاء. فقاسمه عمرو ماله. أهـ.

خضع عمرو لما أمره به أمير المؤمنين وقاسمه ابن مسلمة ماله، وكفى نفسه مؤونة الغلظة (وأعفه من الغلظة عليك) وهو كما لا يخفى من أشراف العرب، ومن أهل الشرف والرياسة، ومن ذوى الرأى فيهم. ولكن أبى عليه عمر أن يترفَّه فى معيشته، كما كان أبوه العاص من قبله، وقد كان يلبس الخز بكفاف الديباج، لهذا لا نعجب إذا أثرت هذه الكلمات فى نفس عمرو تأثيراً كبيراً حتى قال: «إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج» فقال محمد: «مَه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكاؤها» قال عمرو: «أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولى، فإن المجالس بالأمانة» فقال محمد: «لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حىّ».

وهذه القصة أوضح الأشياء دلالة على ما استحدث عمر فى الإسلام من الأعمال، هى تدلنا على أنه استحدث مراقبة العمال ومحاسبتهم محاسبة فعلية، وندب من يقوم بذلك من ثقاته. ومثل هذا كان معروفاً قبل الإسلام عند الرومان.

هكذا عامل عمر عمرو بن العاص؛ ذلك السياسى المحنك، والقائد العظيم الذى دوَّخ الروم فى فلسطين ومصر، إلا أن عمر لم يعبأ بكل هذه المزايا. بل أجرى الحق مجراه، خوفًا أن يقتدى به بقية العمال وتسوء الحالة والإسلام فى غضاضته.

ي - استقرار أمر مصر لعمرو

ولىّ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة، وبقى والياً عليها، قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط، وقد قام فى هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة، فنظّم الإدارة، ونصّب القضاة، ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج، وعُنى عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى، من كرى الخلجان، وبناء مقاييس النيل، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور، فأقام لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء.

هذه هى السياسة التى سار عليها عمرو فى مصر على نهج العدل، وعدم تحميل المصريين ما لا يطيقون، وبهذه الطريقة أتيح له تنفيذ أوامره على أهون سبيل، لأنه كان دائماً يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً فى ترفيههم، وجلب الخير لهم، واكتساب محبتهم، فدانوا له بالطاعة، وأحبوا ولايته، فلم ير إحراج القبط فلا يطيعوه، عملاً بالمثل القائل «إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا يستطاع». وكان عمرو يأخذ من الخراج مما لابد منه لإصلاح البلاد، ويأخذ لنفسه عطاءً، ويعطى الأعطيات لأربابها، وما يبقى يرسله إلى الخليفة.

استقر لعمرو بن العاص أمر ملك مصر. فساس البلاد هذه السياسة الرشيدة، فلم يعامل القبط بمثل ما عاملهم به الروم من قبل، فلما فتح مصر لم يتعرض لهم فى شئ البتة، فأطلق لهم حرية معتقدهم، وترك لهم أرضهم، وأخذ على عاتقه حمايتهم، وأمّنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل – ومما يدلك على حسن سياسة عمرو، إقراره قبط مصر على

جـبـاية خـراج بلادهـم، واهـتـمـامـه بالنظـر فى أمـورهـم، والسـهـر على ترفـيهـهـم، يؤيد ذلك أنه بعـد استـيلائه على حـصـن بابليـون، كتب بيـده عـهداً للقـبط بحمـاية كنيـسـتـهم، ولعن كل من يجـرؤ من المسلمين على إخراج القبط منها.

ومما يدل أيضاً على حسـن سياسة عمرو أنه لـم يفرق بين الملكية واليـعاقـبة من المصـريين، فلم يتحـيـز لأحـد الطرفين، فكانا مـتسـاويين أمـام الـقـانون، وأظلّهـمـا بعـدله، وحـمـاهـمـا بحـسـن تدبيره، ولم يتـبع السياسة القائلة «فرق تسد». تلك السياسة العقيمة التى ظهر للملأ أنها تؤدى إلى أوخم العـواقب. لهـذا لا يـنكر علينا أحـد إذا قلنا إن عـمـرو بن العاص قد نال مـن السلطان فوق ما كان يتـمناه، فدانت له البلاد قاصـيها ودانيها، وأجـمـعت على مـحبـتـه، حتى كـان يقـال: «ولاية مصـر جـامعة تعدل الخلافة».

ك - اعتزال عمرو ولاية مصر

لم تتفق كلمة المؤرخين فى ثبوت السنة التى اعتزل فيها عمرو بن العاص ولاية مصر، وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح، فقال بعضهم إن عزله كان قبل استيلاء (منويل) على الاسكندرية، ثم استدعاه عثمان لما كتب له أهل مصر يسألونه أن يقرّ عمراً حتى يفرغ من قتال الروم، لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى نفس العدو، فأجابهم إلى ذلك، ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى (ص٢٣١) والمقريزى (جـ١ ص١٦٧، جـ١ص ٢٩٩) والسيوطى (جـ١ ص٦٩)، وقال ابن الأثير إن عزل عمرو بن العاص كان سنة ٢٦هـ. وقال الطبرى، إنه اعتزل سنة ٢٧هـ. أعنى بعد استيلاء منويل على الإسكندرية.

ونحن نؤيد ما ذكره كل من الطبرى وابن الأثير لأسباب منها:

أولاً : لأن عثمان لم يسرّح عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو افريقية، إلا سنة خمس وعشرين من الهجرة، وهى السنة التى انتقض فيها الروم فى الإسكندرية.

ثانيًا : ولأنه أقام على غزوها سنة وثلاثة أشهر؛ إذ لا يعقل أن يمكث عبد الله أقلّ من هذا الزمن، والروم فى أمداد متصلة، والمسلمون بعيدون عن بلادهم. فمن المعقول أن تكون عودة عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن نفله عثمان خمس الخمس فى السنة السادسة والعشرين.

ثالثًا : وقد روى الطبرى أن عثمان بن عفان نزع عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عليه عبد الله بن سعد

فتباغيا، فكتب عبد الله ابن سعد إلى عثمان يقول: إن عمراً كسر الخراج؛ وكتب عمرو: إن عبد الله كسر على حيلة الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو أن ينصرف، وولى عبد الله بن سعد الخراج.

وهذه النفرة التى كانت بين عمرو وعبد الله، وشكاية كل منهما من صاحبه لابد أن تتطلب زمناً حتى يفصل أمير المؤمنين فى الأمر.

لهذا نرى أن اعتزال عمرو بن العاص ولاية مصر كان بعد انتقاض الروم فى الإسكندرية، وكان فى أواخر سنة ٢٦هـ أو فى أوائل سنة ٢٧هـ، وهو الأرجح، لأن عبد الله بن سعد لم يتولّ مصر إلا بعد غزو إفريقية، وإذا ثبت ذلك فلا يعقل أن يكون اعتزال عمرو بن العاص أن عثمان أراد أن يجعله على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فأبى وقال: «أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها».

وكانت سياسة عمر بن الخطاب تقضى بأن يكون الخراج والحكم فى يدوال واحد، وهذه السياسة موافقة:

أولاً : للسذاجة الأولى.

ثانياً : للنظام الجمهورى عند الرومانيين.

أما سياسة عثمان بن عفان فكانت تقضى:

أولاً : باختيار العمال من أقاربه، ومن بينهم وبينه صلة.

ثانياً : الفصل بين الحرب والخراج، لأجل أن يستطيع التدخل فى كل شئ، وتضييق سلطة العمال، وهى توافق سياسة الأباطرة.

أما عمرو بن العاص فكان:

أولاً : متعوداً سياسة عمر.

ثانيًا : وكان يحرص على أن تكون سلطته عظيمة. لأنه كان طموحاً، فلم يكن بد من أن يقع الخلاف بينه وبين عثمان، الذى كان لا يشك فى خيانة عمرو، ولا يشك فى قوته فى الحرب، فأراد أن ينتفع بعمرو فى الحرب، ولكن عمراً لم يرض هذا، إما لأنه اعتدّها إهانة، وإما لأنه كان يحرص على رياسة الخراج.

هذا هو السبب الحقيقى فى عزل عمرو عن مصر، أضف إلى هذا ميل عثمان لتولية مصر لعبد الله بن سعد، لأنه كان أخاه من الرضاعة.

الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل

ولاية مصر إلي أن مات

الباب الأول

{ أخبار عمرو مع عثمان }

أخبار عمرو مع عثمان

غضب عمرو غضبًا شديداً وحقد على عثمان لعزله إياه، وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما، ولما قدم عمرو بعد اعتزاله إلى المدينة، دخل على عثمان وعليه جُبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان: ما حشو جبتك؟ قال عمرو: قد علمتَ أن حشوها عمرو. فقال عثمان: ولم أرد هذا. إنما سألت أقطن هو أم غيره؟

ومما يدلك على شدة غضب عمرو لعزله وتولية عثمان رجلاً يعتبر نفسه أعظم كفاءة منه وأكثر تجربة، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأله لما قدم المدينة: كيف تركت عبد الله بن سعد؟ قال عمرو: كما أحببت. قال: وماذاك؟ قال عمرو: قوى فى ذات نفسه. ضعيف فى ذات الله: فقال له عثمان: لقد أمرته أن يتبع أثرك. فقال عمرو: لقد كلفته شططاً. فهذا يبين شدة حنق عمرو وسخطه على عثمان وعلى واليه الجديد.

لم يبق عمرو بالمدينة بل اعتزل بفلسطين فى قصره المسمى «العَجْلان» وإنما مكث يرقب الأمور، وكأنه كان لا يشك فى أن الأمة سيكون بينها وبين خليفتها حدث، فأشفق من الإقامة فى المدينة، حتى لا يناله من هذه الثورة التى كان ينبأ بها شر، وما كان تردده بين المدينة وفلسطين إلاَّ استكشافًا لما سيقع. على أن عثمان لم تفته إصابه رأى عمرو، فكان يستشيره فى مهام الأمور، سيما حين سعرت نار الفتنة وتفاقم شرها، وكان عثمان يميل إى استشارة عمرو حين كانت الأمة تمخض بشر. فقال: ما ترى ياعمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك، فتشتد فى موضع الشدة، وتلين فى موضع اللين، وإن الشدة

تنبغى لمن لا يألو الناس شراً، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين.

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال: ما رأيك؟ (فى الفتنة) قال: أرى أنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية، فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل، فأن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً. فقال له عثمان: مالك قمل فروك، أهذا الجد منك؟ فسكت عمرو حتى تفرق الناس ثم قال: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك، ولكنى قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك، فأحببت أن يبلغهم قولى، فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شراً.

وفى رواية للطبرى أيضاً قال: لما عزل عثمان عمرو بن العاص جعل يطعن عليه، فأرسل عثمان إليه يوماً فخلابه فقال: يا ابن النابغة ما أكثر ما قمل جُرُبَّان جبتك، إنما عهدك بالعمل عاماً أول، أتطعن على، وتأتينى بوجه، وتذهب عنى بوجه آخر؟ فقال عمرو: إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك. فقال عثمان: استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو، قد كنتُ عاملاً لعمر بن الخطاب، ففارقنى وهو عنى راض. فقال عثمان: لو أخذتُك بما أخذك به عمر لا ستقمتَ، ولكنى لنت عليك فاجترات، أما والله لأنا أعز منك نفراً فى الجاهلية، وقبل أن ألى هذا السلطان. فقال عمرو: دع هذا فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك. فقال عثمان: مالنا ولذكر الجاهلية! فخرج عمرو من عنده وهو محتقد عليه، فلما كان حصر عثمان خرج من المدينة حتى انتهى إلى قصره بفلسطين، وبينما هو جالس فى قصره ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامى، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسأله عمرو عن عثمان فقال: قد تركته محصوراً شديد الحصار، قال

عمرو: أنا عبد الله، قد يضرط العير والمكواة في النار، فلم يبرح مجلسه هذا حتى مرّ به راكب آخر، فناداه عمرو: ما فعل الرجل (عثمان)؟ قال: قُتل. فقال عمرو: أنا عبد الله. إذا حككتُ قرحةً أدميتها، إن كنت لأحرض عليه حتى أني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل. فقال له سلامة ابن روح: يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسر تموه فما حملكم على ذلك؟ فقال عمرو: أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس في الحق شرعًا سواء. وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه ففارقها حين عزله عثمان[1]. اهـ.

والذي يظهر لنا في شأن عمرو في فتنة عثمان أنه إنما نقم منه ما نقم الناس، لإيثاره بني أمية على غيرهم من جلة الصحابة؛ ثم فضّ يده لما بلغ الهياج أشده، ولم تجد نصائحه هو والصحابة عثمان نفعًا، فظلّ كمعظم القوم يشاهد تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد، ظنًا أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق، وعلى كل حال فلم يكن لعمرو في هذه الفتنة إلا ما كان لكثير من الصحابة الذين حضروا قتله، وأنه دخل فيما دخل فيه الناس.

---

١ – الطبري (جـ ٥ ص ١٠٧ – ١٠٩، ٢٣٢).

الباب الثاني

{ عمرو وسياسته مع عليّ ومعاوية }

أ - لماذا انضم عمرو إلي معاوية

ما كاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتبوأ مركز الخلافة حتى اختلفت كلمة المسلمين وصاروا أحزاباً: ففريق أصبح يطالب بدم عثمان، وهو حزب الأمويين بالشام، وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان، وفريق من الثائرين قتلة عثمان الذين اختاروا على بن أبى طالب، يعيثون فى الأرض فساداً فيملأون القلوب خوفاً ورعبًا، وفريق أنصار السياسة الإسلامية القديمة الذى كان يتفق مع الأمويين ولكنه كان يريد أن يعود أمر الخلافة إلى ما كان عليه أيام عمر، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة.

كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً كارهين، فنقضا بيعتهما، وأرادا أن تنقض خلافة علىّ، لأن أهل المدينة قد أقروها وعلى رؤوسهم سيوف الثائرين. وقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكن راضياً عن عثمان ولا عن حكمه، وأن مقتل عثمان لم يغضبه ولم يسخطه، وربما أرضاه، فلم يكن بد إذاً من أن ينضم عمرو إلى علىّ أو إلى الزبير وطلحة (لا ينبغى التفكير فى انضمامه إلى الذين اعتزلوا الحركة السياسية كسعد بن أبى وقاص؛ لأن الرجل كان رجل عمل ومطامع) ولكنه كان من المهارة السياسية، بحيث لم يشك لحظة فى أن أمر الزبير منحل، ولكنه لم ينضم إلى هذا الفريق أو ذلك الحزب، لأنه كان لا يرجو خيراً من دولة علىّ، لأن عليًا كان لا يريد إلا أن يحمل الناس على رأى نفسه، مدلاً بنفسه فى كل شئ، غير معوّل على غيره فى رأى أو علم أو عمل، وأنه لا يرجى منه أن يسير بسيرة أبى بكر وعمر - تلك السيرة التى كان عمادها الشورى فى كل أمر - وأن أمثال عمرو لا يمكن أن يعتمد عليهم فى عمل أو يستعين بهم فى سلطانه، فهو يائس من خيره، ولأن عمراً

كان قرشياً وكان ميل قريش إلى خلافة هاشمية قليلاً جداً، ولأنه رأى أن القوة التى على رأسها عائشة وطلحة والزبير كانت من الضعف بحيث لا تقوى على أن تغلب عليّ بن أبى طالب على أمره، أو تفوز بأرجاع الحال إلى ما كانت عليه فى عهد أبى بكر، وقد ظهر له بعد قليل أن هذا الحزب قد انهزم، فقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة.

وهنا غيرّ عمرو بن العاص سياسته دفعة واحدة، وأصبح فى حزب عثمان، لأنه كان كما لا يخفى من أشد الناس دهاء، وكان لا يعمل عملاً إلا إذا تأكد من نجاحه، يدلك على ذلك أنه لم يسلم إلا بعد أن ظهر له ظهوراً بيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم سوف ينتصر، وما كان ذهابه إلى الحبشة إلا ليرى ما يكون من أمر محمد وقريش: فإن كانت الغلبة لقريش كان على أولى أمره مع رسول الله، ولم يكن قد خذل قريشاً بالقعود عن نصرتها، ولكنه أسلم ودخل فى الإسلام لما رأى أن أمر النبى عليه السلام ظاهر على قريش لا محالة: كذلك كان حاله فى هذا الظرف، فتبين له بثاقب رأيه وبعد نظره أن هذه الثورة لن تنتهى إلا بحدوث انقلاب فى حالة الأمة العربية، ولم يكن عمرو بالرجل الساكن الذى يلتزم الحيدة فى مثل ذلك الظروف، بل لابد من دخوله فى هذه الاضطرابات، وأن يكون له ضلع فيها، عسى أن يناله من وراء ذلك ما كان يؤمل منذ زمن طويل، لأنه كان طموحاً إلى العلا.

انتظر عمرو يرقب الأمور على بعد، فرأى أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليستكين لما يريد به عليّ، ولا يستخذى لما يتوقع أن يحيق به من مكروه، وكان على ذكر من قديم الأحقاد بين البيتين، ولم ينس معاوية أن علياً قاتل أخيه ومقارع أبيه فى مواطن كثيرة أيام الجاهلية، وهو قريب عثمان: فاستعان عمراً وتعاقدا على النصح والنصرة، ومعلوم أن المصائب تؤلف بين المصابين والمطامع تؤلف بين الطامعين، وكان ذلك ما يتمناه عمرو. فأنتج لهما الدهاء أن يطوّقا علياً

إثم دم عثمان، ليكون لهما بذلك الحجة فى مناوأته - فكأنَّ مقتل عثمان الذى اشتهر عمرو بالتأليب عليه مصدر سياسة عمرو والتزامه هذه الخطة: خطة المطالبة بدم عثمان.

ولكن الذى يعرف شدة دهاء عمرو لا يعجب لالتزامه هذه السياسة، لأن العمل مع معاوية أرجى للعافية، وأحرى أن يلبسه ملابس العز، وقد وجد من قتل عثمان مسوغًا لأن تروج دعوى معاوية، فظاهره على أمره. والرجلان (عمرو ومعاوية) لا يعتقدان فى علىّ أنه يريد فى خلافته العمل بما يوجب المثوبة عند الله تعالى، وإنما يريد أن يحكّم الأحقاد والميول، وقد أعانهما علىّ على نفسه باستبطانه قتلة عثمان واتخاذهم أعوانًا.

ب - عمرو وموقعة صفين

كان معاوية بن أبى سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً، وقد ولاه الشام عمر وعثمان فنال رضاءهما، وسار سيرة مرضية، فملك أفئدة الأهلين بحسن سياسته، وأصبح جند الشام رهن إشارته يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

فلا عجب إذاً إذا أبى معاوية الأذعان للعزل أو الرضى بمبايعة علىّ وشدد فى المطالبة بدم عثمان.

وكان معاوية رأساً لحزب بنى أمية، الذى كان يطالب بدم عثمان، والذى كان يرمى فى حقيقة الأمر منذ أيام عثمان إلى الاستئثار بالسلطان. ومع هذا فهذا الحزب لم يجهر بشئ من هذه الأطماع، وإنما انتحل أعذاراً ظاهرة تسيغ له أن يقف من علىّ موقف المحارب، أضف إلى هذا أن العداء بين بنى هاشم وبنى أمية قديم فى الجاهلية، وأن الإسلام زاد هذا العداء، فإن بنى حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علىّ، كما أن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد، والعداء بين بنى هاشم وبين أبى سفيان معروف باقى الأثر. وهذه الأعذار التى انتحلها معاوية هى:

١ - أن معاوية كان يتهم علياً بشئ من أمر عثمان.

٢ - ولأن علياً أوى قتلة عثمان.

٣ - ولأنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن عليّا رأى من أول واجباته عزل معاوية عن الشام - وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة.

وبعد انتصار علىّ بن أبى طالب فى يوم الجمل توجه إلى الكوفة

ووجه جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما، ويدعوه إلى الدخول فى طاعته. فماطله معاوية واستنظره، وكتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فإنه كان من أمر علىّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم علىَّ جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ وحبست نفسى عليك حتى تأتينى فاقدم على بركة الله تعالى. (اليعقوبى جـ١ ص٣١٥).

فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنيه عبد الله ومحمداً، واستشارهما فى هذا الأمر، فقال له عبد الله: أيها الشيخ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية، وقال له محمد: بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأسًا قبل أن تكون ذنباً. قالوا: فأنشأ عمرو يقول:

تطاول ليلى للنجوم الطوارق	وخوف التى تجلو وجوه العواتق
فأن ابن هند سالنى أن أزوره	وتلك التى فيها بنات البوائق
وقد قال عبيد الله قولاً تعلقت	به النفس إن لم يعتقلنى عوائقى
وخالفه فيه أخوه محمد	وإنى لصُلْب العود عند الحقائق

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم عليًا دم عثمان، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى[1].

١ – هذا ما ذكره الطبرى، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبى من أن عمراً أشار على معاوية بأن لا يذكر عثمان لأن معاوية خذله، وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين.

قال اليعقوبى: قال معاوية: مدَّ يدك فبايعنى. فقال عمرو: لا لعمر الله لا أعطيك دينى حتى آخذ من دنياك. فقال له معاوية: لك مصر طعمة، وطلب من عمرو أن يبيت عنده ليلته مخافة أن يفسد عليه الناس ففعل، وقال عمرو:

معاوىَ لا أعطيك دينى ولم أنل — به منك دنياً فانظرن كيف تصنع

فإن تعطنى مصراً فأربح بصفقة — أخذتَ بها شيخًا يضر وينفع

ويظهر أن هذه الأبيات والتى قبلها، وما يقال من أمثال هذا الكلام نثراً، مصنوع من خصوم عمرو ومعاوية، ليظهروهما بمظهر المكابر للحق. الراغب فى الدنيا ومتاعها. المستسهل للجور. العامل على الدفع فى صدر الحق نظير متاع قليل.

فكتب له معاوية بمصر شرطاً، وختم الشرط بعد أن بايعه عمرو وتعاهدا على الوفاء (اليعقوبى جـ١ ص٢١٦).

رجع جرير إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأخبره بحال معاوية، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذى هالهم قتل عثمان، فبكوا واستبكوا حين رأوا قميصه الذى قتل فيه مخضبًا بدمه وإليه إصبع زوجه نائلة وكانت معلقة فيه.

وضع معاوية الثوب على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان، ولو فنيت أرواحهم على بكرة أبيهم، وأجمعوا على قتال علىّ اعتقاداً منهم أنه هو الذى قتل عثمان وآوى قتلته.

أما مبايعة عمرو لمعاوية حين قدم عليه فشئ لا يمكن تصديقه، لأنه كيف يعقل أن يبايعه بالخلافة فى مبدأ الأمر، وجو السياسة لا يزال

مكفهراً، وعليّ قد أحرز النصر المبين فى واقعة الجمل، وعزم على الزحف على الشام لانتزاعها من معاوية، ولم تخف على عمرو أحقية عليّ بالخلافة بعد عثمان وشجاعته فى الطعن والنزال. فهل يتوهم متوهم أن السذاجة قد بلغت بعمرو أن يكون أول من يبايع معاوية، وحالة الأمة السياسية فى ذلك الظرف المقلق لم تكن لتخفى عليه؟ والظاهر أن هذه المبايعة التى زعمها المؤرخون ليست إلا تحالفاً واتحاداً على التعاون، فإن معاوية كان يهمه كثيراً أن تكون مبايعة عمرو له علانية أمام وجوه أهل الشام وغيرهم ممن ينتصرون له، ليكون لهم قدوة فى البيعة، وهذا ما لم يقله أحد من المؤرخين فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ، فلم يذكروا فى أى مكان وقعت بيعة عمرو لمعاوية، وأمام أى ملأ من الناس، بل تركوا هذه النقطة مبهمة غامضة مع أهميتها.

بلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام، فسار من الكوفة إلى صفين فى تسعين ألفًا لخمس بقين من شوال سنة ٣٦هـ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً على مارواه المسعودى، وعسكر فى موضع سهل على الفرات، وبات عليّ وجيشه فى البر عطاشًا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن عليًا لا يموت عطشًا هو وتسعون ألفًا وسيوفهم على عواتقهم فدعهم يشربون ونشرب. فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان، فقال أحد جند عليّ.

أيمنعنا القوم ماء الفرات	وفينا الرماح وفينا الجحف
وفينا عليٌّ له صولة	إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير	وطلحة خُضنا غمار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين	وما بالنا اليوم شاة النجف

فندب إليهم عليّ قوماً فأجلوا رجال معاوية عن الماء، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده فأذن لهم! وبعد يومين من نزول عليّ على هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧هـ، ولم يتفقا في غضون هذه المدة على شئ، ودارت رحى الحرب بينهما من جديد(١).

ومن اطلع على ما كان من أمر سفراء عليّ واشتدادهم على معاوية، وكذا اشتداد سفراء معاوية على عليّ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم نجاح هؤلاء المندوبين كان راجعاً لقلة خبرتهم بالسياسة، وشدة ميلهم إلى الحرب، مما أفسد القلوب وزاد الفرقة. والذي يظهر من رواية الطبري أن رسل عليّ إلى معاوية كان فيهم غطرسة، فكانت كلمات الشر والتفريق والتغالي تبدر من ألسنتهم، ولم يكونوا ليصلحوا رسل صلح، فكان معاوية يسئ الرد عليهم - والظاهر أن القوم قد ثملوا بالانتصار على أهل الجمل بالبصرة، فظنوا أن ينالوا من جيش معاوية ما نالوا من جيش عائشة.

ولما انقضى المحرم أعادوا القتال سيرته الأولى، فلما كان اليوم الأول من صفر سنة ٣٧للهجرة، ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه، بل كان كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ فباتوا يصلحون أمرهم، وفي ذلك يقول الشاعر:

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والأمر مجموع غداً لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب

١ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة (جـ١ ص١٧٢)، ومروج الذهب للمسعودي (جـ٢ ص١٤ - ١٥) بتصرف.

واشتعلت نار الحرب بين الفريقين أيامًا متوالية حتى كان اليوم الذى قتل فيه عمار بن ياسر، فاشتدت الحرب بعد مقتله، وزحف أصحاب علىّ، وظهروا على جند معاوية حتى ألصقوهم بعسكره، وأشرف علىّ على الفتح، فدعا معوية بفرسه ونادى أهل الشام: الله الله فى الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية «هلمّ مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا» غير أن عمرو بن العاص عمد بما أوتيه من فنون الدهاء إلى تغيير الحال رأسًا على عقب، وتحويل النصر إلى جانب معاوية، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة، فبعد أن كادت الدائرة تدور عليه لم يثن ذلك من عزيمة عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند علىّ فانقسموا على أنفسهم، وغلبوا على أمرهم. حيث قال عمرو «أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه» فرفعوا المصاحف وقال قائلهم «هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم» فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا «نجيب إلى كتاب الله» وإنما رمى عمرو بحيلته هذه التى هدت عزائم الجحافل، وبددت آمال علىّ ما نرى إلى أمرين:

الأول: أن يكسر من حدة جند علىّ وحميتهم، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار.

الثانى: أن يفرق بينهم، ويفتّ فى عضدهم فيكفوا عن قتالهم.

رغب أهل العراق فى الموادعة، فنصح لهم علىّ أن لا يغتروا بقول أصحاب معاوية، لأنه ليس إلا خديعة، فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال، فأرسل إليه فقال الأشتر للرسول «ليس هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى فيها عن موضعى، قد رجوت أن يفتح لى فيها فلا تعجلنى» فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع

الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم «والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل إبعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك».

فقال عليّ للرسول «ويحك قل للأشتر أن يقبل فأن الفتنة قد وقعت» فلم يسعه إلا المجئ وترك ساحة الحرب. ثم أرسل عليّ الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فقال له معاوية «نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله» ثم رجع الأشعث إلى عليّ فأخبره. فقال الناس رضينا وقبلنا.

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال أهل العراق: قد رضينا أبا موسى الأشعرى. فقال عليّ «قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن» وبين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه كان يخذل الناس عنه، فأبوا إلا إياه، فاضطر للسير على ما رأوا وهو مكره[1]. وكان من نتائج هذه السياسة ما سنفصله.

---

١ – انظر اليعقوبى (حـ٢ ص٢١٨ – ٢١٩) ، والمسعودى (جـ٢ ص٢٠ إلى ٢٢)، والإمامة والسياسة لابن قتيبة (جـ١ ص٢٨٧).

جـ - عمرو والتحكيم

ا - عقد التحكيم:

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بدومة الجندل حيث كتبا عقد التحكيم فى شهر صفر سنة ٣٧هـ. وهذه صورة الكتاب منقولة عن الطبرى (جـ١ ص٣٣ - ٣٤).

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيى ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشى عملا به، ومالم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة: وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين، فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفى أحد الحكمين فأن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألوا من أهل

المعدلة والقسط، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وإن رضيا وأحبا فلا حضر هما فيه إلا من أرادا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة، وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة. أهـ.

ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين - ١٥ صفر سنة ٣٧هـ.

٢ - اجتماع الحكمين (عمرو وأبو موسى) ونتائج التحكيم:

لم ينته بعد الدور الذى لعبه عمرو بن العاص فى موقعة صفين، فلم يكن بد من تنفيذ الخطة التى رسمها له دهاؤه المعروف بعزل على بن أبى طالب، وتثبيت معاوية بن أبى سفيان. وليس من شك فى أنه قضى وقته فى ابتكار ضروب الحيل للإيقاع بأبى موسى، والوصول إلى غايته، حتى إذا ما حان اجتماع الحكمين بعث علىٌّ بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى، وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم، وأبو موسى الأشعرى معهم، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل. وقد ذكر المسعودى أنه لما دنا وفد علىّ من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى «إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل غيرك، والمتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة؛ وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة» ووصّى معاوية عمراً فقال «يا أبا عبد الله: إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضُم إليك رجل طويل اللسان قصير

الرأى، فأخذ الجد ولا تلقه برأيك كله» ووافى عمراً سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة علىّ ولم يغمسوا أيديهم فى الفتنة.

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على أربعة أمور:

١ - إن عليًا أكره على اختيار أبى موسى، فلم يثق به، لأنه فارقه وخذل الناس عنه وفعل أشياء سنذكرها فى محلها، أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمرو.

٢ - لم يكن أبو موسى بالرجل الذى يقف أمام داهية العرب (عمرو) هذا الموقف الذى يحتاج إلى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين.

٣ - إنه قد تخلف عن مبايعة علىّ كثيرون من جلة الصحابة، من أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص والمغيرة بن شعبة داهية السياسة، وأمثال هؤلاء الرجال لا يستهان بهم.

٤ - إن ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى لم يكن من شأنه ان يرضيه، ولا أن يبعثه على الإخلاص والشدة فى نصر علىّ.

اجتمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وفى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره، وظهرت للملأ مقدرة هذا الرجل السياسية، وما أوتيه من حذق وذكاء، يؤيد ذلك ما نذكره مما دار بينه وبين أبى موسى من أطراف الحديث، وكيف استدرجه حتى وافقه أبو موسى على خلع على، وكيف اثبت موكله معاوية بن أبى سفيان. قال المسعودى فى «مروج الذهب»، قال عمرو: يا أبا موسى رأيتُ أول ما نقضى به من الحق أن نقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم (ومن هنا نعلم لمن يريد أن يقضى عمرو)، فحمد الله أبو

موسى وأثنى عليه، وذكر الحدث الذى حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال: يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين، فجزاه عمرو خيراً وقال: إن للكلام أولاً وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا. فقال أبو موسى: فاكتب. فدعا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلامًا لعمرو، فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبى موسى لما أراد من المكر به ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فأنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به، أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا. اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص، تقاضيا على انهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ثم قال عمرو) نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه (قال أبو موسى «اكتب») ثم قال فى عمر مثل ذلك (ثم قال عمرو «أكتب») وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم، وأنه كان مؤمناً (فقال أبو موسى «ليس هذا والله مما قعدنا له»). قال عمرو: والله لابد من أن يكون مؤمناً أو كافراً. قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالمًا قُتل أو مظلومًا؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلومًا. قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليًا أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا. قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى

يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. فقال عمرو للكتاب: اكتب. وأمره أبو موسى فكتب. قال عمرو: فأنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان. قال أبو موسى: هذا أمر حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لله فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد. قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمتَ أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون عليًا أبداً، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر؟ فعمد عمرو إلى كل ما قاله أبو موسى فصوَّبه وعدَّد له جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً. أهـ.

ويظهر للمتأمل فيما كتب في هذه الصحيفة التي وافق أبو موسى على كل ما شملته وإقراره بأن عثمان قتل مظلوماً، وأن لمعاوية الحق في أن يطلب بدمه المسفوك، وأن عليًا قتله بدليل إيوائه قتلته (ولو أن إيواءه لهم ليس دليلاً قطعيًا بأنه هو قاتله، ولكن إلى أبعد من هذا ذهب أعداؤه) بحيث أن من أراد أن يبدي رأيه فيما يقف عليه مما دوّن بهذه الصحيفة بحسب ما نرى، يكون ارتيابه في عليّ أكثر منه في معاوية، وما ذلك إلا من جراء تفوق عمرو على نظيره في ذلك الاجتماع التاريخي الهام تفوقًا جعله يقرّ بكل ما كان يرمي إليه عمرو، حتى تمكن هذا من تنفيذ غرضه، والوصول إلى غايته، وهي خلع عليّ بن أبي طالب، وتثبيت معاوية بن أبي سفيان... ولا يفوتنا أن عمراً إنما أراد أن يقدّم أبا موسى عليه في الكلام ليكون الخلع من جانبه أولاً، ثم يكون لعمرو الخيار في أن يخلعهما معًا أو يخلع علياً ويثبت معاوية كما سيأتي:

قال الطبري: قال عمرو: (بعد أن عدّدا أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة وأبى الفريقان): ما رأيك؟ قال أبو موسى: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختارون

لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: إن الرأى ما رأيت وقال: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى: إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق، تقدم يا أبا موسى فتكلم. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأيه عليه، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وأنى قد خلعت عليًا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال! إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية، فأنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه، فتنابزا، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة، ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة(١).

ونحن نشك فى هذا ونميل إلى ما قاله المسعودى وهو (جـ١ ص٢٧) إنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة، وإقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علىّ ومعاوية، وأن يولى المسلمون من أحبوا.

وهنا تظهر قيمة عمرو السياسية، فإنه لم يكن يرمى مباشرة إلى استخلاف معاوية، لأنه كان يعلم أن هذا أمر لا ينال إلا بالسيف، وإنما كان يرمى:

---

١ – روى الطبرى أن عبد ا بن العباس قال لأبى موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه أبو موسى: ويحك إنى والله لأظن عمرًا قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تتكلم أنت بعده فإن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه، فإذا قمت فى الناس خالفك.

أولاً : إلى أن يكسب له مناالوقت ما يمكّنه من جمع جيشه وتقويته ولمّ شعثه، وكان يعلم أن جيش عليّ متخاذل، وقد وفّق فى هذا كله فتخاذل جيش عليّ. وليس أدل على ذلك من خروج الخوارج، ومن عجز عليّ بعد انقضاء الهدنة عن تسريح جيش لقتال معاوية.

ثانيًا : وكان يرمى عمرو إلى أن يسوّى بين عليّ ومعاوية بأن يجرّد عليًا من صفة الخلافة التى كان يدّعيها، وقد وصل إلى ذلك باتفاقه مع أبى موسى على خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين. ولم يكن عمرو يشك فى أن عليًا لن يقبل هذا الحكم، وفى أن أهل العراق لن يقبلوه أيضًا، ولكنه كان يشك فى أنه سيكسب طائفة القراء والمتورعين، وربما كسب الصحابة الذين اعتزلوه، وليس هذا بالشئ القليل.

وعلى كل حال فاستخلاف معاوية بن أبى سفيان توقف بلا ريب على ما كان بين عمرو وأبى موسى من البون الشاسع فى المقدرة السياسية ودرجة إخلاص كل منهما، وما أوتيه عمرو من المكر والدهاء والمكيدة التى اشتهر بها لدى العرب كافة.

أما من حيث إخلاص كل من الرجلين وتفانيهما فى نصرة صاحبيهما.. عمرو بن العاص قد اختاره معاوية لاعتقاده بمقدرته وحنكته فى تذليل أمثال هذه الصعوبة، ورضى به أهل الشام عن طيبة خاطر، وأكره عليّ على اختيار أبى موس، ولم يكن ليرضى به حكمًا لأسباب منها:

أولاً: لأنه كان يعلم علم اليقين أن مثل أبى موسى لا يقوى على مناظرة داهية العرب، وأنه مغلوب على أمره لا محالة، ذلك لأن أبا

موسى رجل دينى لم يذق للسياسية طعمًا، وهذه المسألة فضلاً عن كونها دينية بحتة، إلا أنها تحتاج إلى الحنكة والدراية بالأمور السياسية أكثر مما تحتاج إلى الإلمام والتعمق فى أصول الدين، فكانت النتيجة خذلانه وتفوق عمرو عليه(١).

ثانيًا : كذلك لم يكن علىّ ليرضى بأبى موسى حكمًا لأنه ليس بثقة، فقد فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه فى الخروج مع علىّ فقال لهم: أما سبيل الآخرة، فأن تقيموا وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا. وقال: أما والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه فى عنقى، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان إلا قتلوا حيث كانوا. وأبو موسى رجل يكره الفتن كما يظهر من قوله لأهل الكوفة: ولا تكلفوا الدخول فى هذا. فأنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار وأووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة - وغير ذلك من الأقوال التى تثبط الهمم وتضعف العزائم. ويظهر أن تثبيط أبى موسى الناس عن علىّ كان لتوهمه إيواءه قتلة عثمان، فكان يرى ضرورة قتل هؤلاء النفر ووجوب قتالهم شرعًا، كما يتبين من إحدى خطبه من قوله: فثبطوا أيها الناس، واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

---

١ - وفى ذلك يقول عبد الله بن عباس:

أبا موسى بليت وكنت شيخًا ... قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس ... فيا لله من شيخ يمانى
فأمسيت العشية ذا اعتذار ... ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف من ندم وماذا ... يرد عليك عضك للبنان

وكانت نتيجة توقف أبى موسى عن استنفار الناس للجهاد أن غضب عليه علىّ بن أبى طالب فعزله «مذمومًا مدحورًا» كما جاء فى كتاب العزل.

ومما ذكرنا يعلم أن الرجلين مختلفان فى المبدأ، فعلى يرى أن أبا موسى قد خانه، وهذا يرى أن عليًا لا يجوز نصره إلا بعد أن قتل قتلة عثمان. وما دامت الصلة بينهما على هذه الحال فأى حكيم عاقل يتصور أن يكون أبو موسى الذى طالما ثبط الهمم بالأمس عن مساعدة على ظهيراً له اليوم مع ما يضمره كل من الرجلين من الحقد والكراهية للآخر؟ سيما أن أبا موسى يرى أن عبد الله بن عمر أليق بالخلافة، وما دام هذا رأيه فلا ينتظر منه غلباً عليها.

هذه كانت ميول أبى موسى نحو علىّ، وتلك كانت علاقته به، وليس الأمر كذلك بين عمرو ومعاوية، فعمرو يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته، ويتفق معه فى الغرض الذى كان يرمى إليه، وهو المطالبة بدم عثمان، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وحنكته التجارب فلا يهمه إلا الوصول إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع وابتكر من ضروب الحيل - ومثل هذين لا يتفقان. ولا أدل على تقدير كل من الرجلين وما ينتظر أن يكون من أمرهما من قوله معاوية لعمرو «وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى» وقول عبد الله بن العباس لأبى موسى «إن عليًا لم يرض بك حكماً، وقد ضم داهية العرب معك».

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى، وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأى علىّ وبنى هاشم، فكان هذا مصدر سوء حظه، وليس من شك فى أن رأى أبى موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصرية.

ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافيًا وحده لتثبيت ملك صاحبه، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر والاعتبار منها:

الأول : اضطراب حالة جند عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى أراد معاودة الكرة على معاوية. ولكن ماذا كان يصنع وقد أصاب جنده خلل واضطراب فاختلفوا على أمرهم، وخرجت من بين صفوفه الخوارج، ولم يكن من شيعته إلا أن تسلل رجالها من معسكرهم فأصبح المعسكر خاليًا؟ ولما دخل الكوفة ودعا رؤساءهم ووجوههم وسألهم عن رأيهم فمنهم المعتل ومنهم المكره، وأقلهم من نشط حيث فضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم، فكان هو وجنده كما قال أخو هوازن:

أمرتُهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى ... مكان الهدى أو أننى غيرُ مهتد

الثانى : اتحاد جند معاوية – أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك، جند مطيع، وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم، ولذلك كان شأنه دائمًا فى علو.

ولعلّ كثيراً من جند علىّ إنما تخاذلوا عن نصره بعد ما كان من الحكم، وبعدما اعتقدوا أنهم غير مكلفين نصره، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجهروا بذلك، لأن أنصار علىّ من الثائرين بعثمان كانوا ذوى بأس.

وكان من أثر تلك القوة المتحدة التى كانت مع معاوية بن أبى

سفيان أن تمكن هذا من سلخ ما كان تحت سلطان عليّ بن أبى طالب شيئاً فشيئاً حتى فاجأته يد المنون سنة ٤٠ للهجرة.

والذى نراه فى هذه المسألة الدقيقة أنه مع إقرارنا لعمرو بن العاص بالدهاء والقدرة على النكاية بعدوه، أنه بعمله هذا لم يصب علياً وحده، ولا جند المسلمين فحسب، ولكنه أصاب الإسلام، وزاد كلمة المسلمين تفريقاً، فإن عمله هذا هو الذى خلق مذهب التكحيم، وأوجد الخوارج، الذين كانوا أعداء لعليّ ومعاوية على السواء. وقد مكث الإسلام يعانى من البلاء بهم شيئًا كثيراً. وكل هذا نتيجة لعمل عمرو – ولم يكن من الصعب عليه أن يجد حلاً لما بين عليّ ومعاوية من أول الأمر تُحقن به الدماء وتصان الكرامة، وتجتمع عليه الألفة، ويكون له فخره بين الأمة قاصيها ودانيها على مر الدهور – ونحن نعتقد كل الاعتقاد أنعمرو بن العاص كان قادراً على ذلك لو شاءه، ولكن الرجل كان لا يأمل أن ينال مع عليّ ما يرغب، فجشّم المسلمين الأهوال، وحملهم هو ومعاوية على مركب وعر، ولم يباليا فى سبيل مأربهما بما حملاً عليه الناس. وقد وجد عمرو من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية، فظاهره على أمره. ولو تريث عليّ كرم الله وجهه وصنع ما تقضى به السياسة من إرضاء المسلمين، وعدم عزل ولاة عثمان وقتل قتلته، لكى يدفع عن نفسه الريب فلا يجد معاوية داعيًا قوياً كهذا يبرر رفضه بيعة عليّ، ودعوة أهل الشام لحربه باسم الدين. ولا يمكن أن نعتقد أن معاوية كان بعمله هذا يريد إحقاق الحق، بدليل أنه سكت عن المطالبة بدم عثمان ولم يتتبع بقية قتلته حين أفضت إليه الخلافة، ولم يمده حين كان محصوراً بالمدينة، فكأنه كان ينتظر قتله. إلا أنه إنما جعل المطالبة بدمه سبيلاً إلى الخلافة، فلما حصل عليها سكن ثائره. وما قيل فى معاوية يقال فى عمرو فأنه لما تولى معاوية، كان أول ما طلب منه الاستيلاء على مصر والولاية عليها.

هذا ما نراه أقرب إلى المعقول فيما وقفنا عليه - ورب قائل يقول إن تبعة ما وقع من عمرو يوم صفين وفى يوم التحكيم واقعة عليه لا محالة. فنجيب بأن الذنب ليس ذنبه. بل هو ذنب الذين خالفوا علياً ولم يتبعوا رأيه، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من الانتصار - على أن عمراً ذلك الرجل الفذ إنما أراد أن يصل إلى غايته من أى طريق يسلكه مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع والدهاء التى أمتاز بها على العرب كافة. وقد أدى لصاحبه حق الخدمة، وعمل بما تقضى به صفة الدهاء والسياسة الموصوف بهما، بينما لم يبلغ هذه الصفة أبو موسى الذى كان يرى عدم نصرة علىّ واجباً شرعاً ما دام قتلة عثمان فى صفوفه.

وإن كنا قد أنحينا باللائمة على كل من عمرو ومعاوية لاتباعهما هذه السياسة التى أدت إلى خلع علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأن تدخلهما كان لأغراض شخصية وأهواء، وأن دهاء عمرو قد ساعد على تحقيق غرضه والوصول إلى غايته، فلا ينبغى أن يعزب عن بالنا أمر على جانب عظيم من الأهمية، وهو أنه نظراً للحالة السياسية التى وصلت إليها الأمة العربية فى ذلك الزمن، كان لابد من حدوث هذا التغيير إما على أيدى عمرو ومعاوية أو على يد غيرهما. وكل ما يقال فى عمرو ومعاوية أن الظروف قد تهيأت لهما فاستفادا منها فوجدا من قتل عثمان سبيلاً إلى إحداث هذا التغيير الذى حصل فى الواقع من جهتين متباينتين.

الأولى : جهة عربية خاصة: وهى أنه لما تولى عثمان بن عفان الخلافة طمع بنو أمية فى أن يستردوا سلطانهم على قريش، ولو تم لهم ما أرادوا لاستقر سلطانهم على الأمة الإسلامية بأجمعها. وقد تولى منهم عثمان، وولىّ ذوى قرباه على الأمصار. بحيث لو طالت

حياته لنجح بنو أمية فيما كانوا يرمون إليه، وهو انتزاع الخلافة من بنى هاشم وحصرها فى بنى أمية، وكان معاوية كما لا يخفى أقوى بنى أمية فى ذلك العصر، ومعه جند الشام – وهم أقوى أجناد العرب – يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، فاتخذهم سلاحاً لتنفيذ أغراضه.

الثانية : جهة عامة : وهى أن العرب بالتقائهم مع الأمم المقهورة سواء أكانت تلك الأمم فارسية أو أمماً خاضعة للحكومة البيزنطية، أخذوا عنهم نظم الحكم، وحاولوا تقليدهم فى الخضوع لنظام ملكى فلم يكن بد حينئذ من أن تتأثر هذه الأمة البدوية بهذه الأمم المتحضرة، كالأمة الرومانية وأهل مصر والشام وغيرها. وبعضهم كانوا يتأثرون بهذا المبدأ ويرغبون فى أن يؤسسوا الحكم الإمبراطورى الذى يلائم الحالة التى أصبحت فيها بلادهم، وقد اتسع ملكهم وكبر سلطانهم، بحيث أصبحت نظم الحكم التى كانت مألوفة فى أيام أبى بكر وعمر غير صالحة لهذه الإمبراطورية الضخمة المتألفة من شعوب مختلفة فى الجنس والعادة والخلق والدين وسائر أنواع الحياة[1] هذه النظم التى كانت محصورة فى دائرة ضيقة هى مكة والحجاز وبلاد العرب: وهذا هو حزب الأرستقراطية، وهم زعماء الأمة العربية على العموم، وأعظم ممثل لهؤلاء الزعماء هم بنو أمية.

لهذا لم يكن بد إذاً من انقسام العرب إلى قسمين:

١ – لا ينبغى أن يعترض بأن هذه الإمبراطورية كانت عظيمة فى عهد عمر، فإن عمر لم يزد على أن افتتح، وحاول تثبيت الفتح وتنظيمه، ولو قد طالت حياته لرأى هذا التغيير، وربما كان استطاع لرجاجة حلمه، وحسن سياسته أن يطبّ للأمر، وأن يحدث هذا التغيير من غير إخلال بالنظام الاجتماعى الإسلامى. على أن من تفقه التاريخ وتدبر حوادثه لم يشك فى أن قتل عمر نفسه إنما كان مقدمة من مقدمات هذه الثورة التى لم يكن منها بد.

الأول: قسم يدافع عن المذهب الموروث، مذهب الحرية ذى النظام البدوى البسيط كالذى كان فى عهد أبى بكر وعمر - ذلك النظام الذى ما كان يصلح إلا فى أيامهما، لا فى ذلك العصر وقد تطورت الأمة العربية تطورات عديدة ومر بها أدوار سياسية كبيرة.

الثانى: قسم يدافع عن المذهب الجديد، مذهب تأسيس إمبراطورية إسلامية ذات نظام يلائم الحالة التى وصلت إليها الأمة العربية.

والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هى:

أولاً : وقوع الحرب

ثانيًا : انتصار أصحاب المذهب الجديد الذى يؤيد زعماءه من العرب أهلُ الشام والفرس، على أصحاب المذهب القديم الذى يميل إليه كثيرون من أهل بلاد العرب، ولا سيما أشد أصحاب النبى عليه السلام تورعًا وحرصًا على السنة الموروثة، كسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرهما ممن اعتزلوا الفتنة.

وإن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد دخلت الرومان فى نفس هذه التطورات حين امتدت فتوحهم فى آسيا وأفريقية وأوروبا وعظم ملكهم، فقامت الحروب الأهلية التى انتهت بإحلال النظام الإمبراطورى محل النظام الجمهورى القديم.

أما ما كان من أمر عمرو ومعاوية، فقد أفادتهما هذه الظروف التى خدمت معاوية بقتل عثمان، فتلمس المعين على مناوأة علىٍّ، وتذرع بإلباسه جناية عثمان، ووجد عمرو سبيلاً إلى معونة معاوية لأغراض

بيناها، فتم التغيير على أيديهما - وذلك لابد من حدوثه - ولو كف عمرو ومعاوية أيديهما عن القيام به لقام به غيرهما من العرب.

هذا ما يمكن أن يقال عن سياسة عمرو مع معاوية، وتدخله فى أمور الأمة الإسلامية، التى أفادها من جهة تغيير نظام الحكم القديم إلى الحكم الجديد، الذى كانت الأمة فى حاجة طبيعية إليه بمقتضى الحالة السياسية التى وصلت إليها بامتداد فتوحها وبسط سلطانها على أمم مختلفة.

الباب الثالث

{ ولاية عمرو الثانية على مصر }

اعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر في خلافة عثمان، فكان لا ينساها. بل يريد أن يستردها، ويتولى أمرها مرة ثانية، يدلنا على هذا أنّ أول ما طلبه من معاوية هي «مصر». ومن هنا يستدل على أمرين:

١ - على أنه كان يحب مصر حباً جماً حتى انضم إلى معاوية من أجلها بخلاف ما كنا ننتظر، وتفانى في خدمته ليفوز بأمنيته.

٢ - وعلى أنه كان يكره عثمان كراهة شديدة من حين عزله عن ولاية مصر، وكان بينهما من الملاحاة ما ذكرناه.

انضم عمرو إلى معاوية، ولم يكن يستغني هذا عن الاهتداء برأيه والعمل بمشورته، فكان ساعده الأيمن وعضده الأقوى، وقد كان من وراء انضمامه لمعاوية ما قدمناه. وكان معاوية قد قوى بنتيجة التحكيم، وبايعه أهل الشام بالخلافة، فأراد الاستيلاد على مصر، وكانت حالها إذ ذاك مما يضاعف آماله في تحقيق أمنيته في الوصول إلى غايته، ذلك أنه كان بمصر قوم قد ساءهم قتل عثمان، فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلّد ومعاوية بن حديج (وكانا قد خالفا علياً وناوءا محمد بن أبي بكر عامله على مصر) يقويهما ويمنيهما الأماني الطيبة فكتبا إليه يطلبان المدد، وكانت الفرصة قد سنحت لعمرو بن العاص لاسترداد مصر سنة ٣٨هـ بعد أن غاب عنها زهاء اثنتي عشرة سنة، فجهزه معوية في ستة آلاف اقبل بهم إلى مصر، حيث انضمت إليه العثمانية، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبي بكر «أما بعد فتنحَّ عني بدمك يا ابن أبي بكر. فأني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان. فاخرج منها فإني لك من الناصحين والسلام».

ولما لم يُجد هذا الكتاب نفعًا سار عمرو لقتال محمد بن أبى بكر وانتدب كل منهما نحواً من ألفى رجل، فلم يحتمل جند محمد هجمة الجنود الشامية، ولا من مالأهم من جنود مصر، فقتل منهم من قتل وفر الباقون، واختفى محمد بن أبى بكر فخرج معاوية بن حُديج يطلبه حتى ظفر به فقتله - ويقال إنه أحرقه بالنار. وقد قال المقريزى إن الموقعة المذكورة كانت فى مدينة يقال لها المنشأة[1].

ولما تم لعمرو الانتصار سار فى طريق الفسطاط حتى دخلها واستولى عليها، وكان ذلك فى صفر سنة ٣٨هـ فأقره معاوية واليًا عليها، وأعطاه إياها على أن يُعطى عطاء الجند وما بقى فله، واستقرت ولاية مصر لعمرو بن العاص من جديد، وأصبح له القدح المعلّى والسلطان المطلق فى إدارة شؤون هذه البلاد، فشمر عن ساعد الجد فى إصلاح ما أفسدته أيدى أسلافه الذين نقم عليهم المصريون، وتاقوا إلى الخلاص من حكمهم، إلا أن أجل هذه الولاية كان قصيراً وسرعان ما قصفته يد المنون.

---

١ - وقد ذكرها اليعقوبى المسناة. أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: يوجد من هذا الاسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة (اخميم) ثم منشأة (بكار) من مديرية الجيزة ومنشأة (سدود) من مديرية المنوفية ومنشأة (سيوط) ومنشأة (عاصم): وهى قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير. والظاهر أن الواقعة كانت فى هذه القرية وباسمها سميت.

ب - استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمرو ونشوء الجفاء بينهما

خشى معاوية خروج عمرو عليه فأراد أن يدفع ما عسى أن يترتب على خروجه من النتائج، فكتب إليه وهو بمصر كتاباً أراد فيه أن يقيد ما بيده من عهد الولاية حتى لا يجد مبرراً للخروج عليه فى وقت ما، وبذلك يأمن معاوية خروج عمرو عن طاعته، فأرسل إليه كتاباً ضمنه هذه العبارة: «علىَ أن لا ينقض شرطٌ طاعة»، فأدرك عمرو ما يرمى إليه معاوية، وكتب إليه: «على أن لا تنقض طاعة شرطًا» فهذا القلب فى العبارة قد قلب الحقيقة لصالح عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلى عن مصر التى استكثرها معاوية عليه لما استقر له الأمر، فحاول الرجوع على عمرو بمصر، فأصلح بينهما معاوية بن حديج.

ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث بين الرجلين من الخطوب والمحن لو تشبث معاوية بتغيير عهده.

وقد روى ابن عساكر أنه لما صار الأمر كله[1] فى يدى معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وبعنايته وسعيه فيه، وظن أن معاوية سيزيده الشام على مصر فلم يفعل معاوية، فتنكر له عمرو فاختلفا وتغالظا، وظن الناس أنه لا يجتمع أمرهما، ولكن قبل أن يتفاقم الخطب وتستعر نار الخلاف

---

١ – ولا يتبادر إلى الذهن من قوله «لما صار الأمر كله فى يدى معاوية» أن مصر انتهت إلى معاوية بعد اصطفاء معاوية للخلافة والحسن رضى الله عنهما، بل اخذ عمرو مصر من محمد بن ابى بكر لما كان والياً عليها من قبل علىّ فى خلافته قبل وفاته بسنتين.

استعاراً تدخل بعض المسلمين فى الأمر وأصلحوا بين الرجلين (وإن كان هذا الصلح ظاهرياً) على أن يُكتب بينهما كتاب بمثابة ضمان لكل منهما خلاصته:

١ - أن تكون لعمرو ولاية مصر سبع سنين.

٢ - وأنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية.

وتواثقا وتعاهدا على ذلك، وأشهدا عليهما به شهوداً، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً عليها، وذلك فى أواخر سنة ٣٩هـ فلم يمكث غير ثلاث سنوات تقريباً حتى مات وهو أمير عليها.

وصفوة القول أن المودة والوئام لم يدوما بين عمرو ومعاوية، لأن عمراً كان يود أن تكون له الشام مع مصر، ومعاوية قد استكثر عليه مصر. ومثل هذين الرجلين لا يتفق لهما أمر، فيعلم مما تقدم أنه اتفاق ظاهره المحبة وباطنه يشعر بالدهاء، وأن عمراً لم يبايع معاوية حباً به أو مودة له، بل طلباً لمصر ورغبة فى استرجاع ما كان له عليها من سلطان - ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً منه. يدلك عليه ما روى أن معاوية قال يومًا لجلسائه «ما أعجب الأشياء» فقال يزيد «أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شئ من تحت ولا هو منوط بشئ من فوقه»

وقال آخر «حظ يناله جاهل وحرمان يناله عاقل» وقال آخر: «أعجب الأشياء ما لم ير مثله» وقال عمرو بن العاص: «أعجب الأشياء أنّ المبطل يغلب المحق (يعرّض بعلىّ ومعاوية)» فقال معاوية: «بل أعجب الأشياء أن يعطَى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف (يعرّض بعمرو ومصر التى أخذها له طعمة».

جـ - محاولة قتل عمرو

اجتمع ثلاثة من الخوارج وأجمعوا أمرهم على قتل عليّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص جميعاً فى يوم واحد هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة. فأما ابن ملجم فقد قتل عليًا كرم الله وجهه، وبوفاته انتهى عهد الخلافة الشرعية، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية منه بأرب، أما ما كان من أمر عمرو فإن عمرو ابن بكر[1] الذى عزم على قتله، فأنه جلس له فى الليلة المعهودة فلم يخرج عمرو ابن العاص لمرض ألمّ به وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس، وبينما هو فى الصلاة ضربة الخارجى بالسيف فقتله يظنه عمراً، ولما علم الخارجى أن المقتول غير عمرو قال: «أردتُ عمراً وأراد الله خارجة» فذهبت مثلاً. ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى فقيل له «أجزعًا من الموت مع هذا الاقدام؟» فقال: «لا والله ولكن غماً أن يفوز صاحبىّ بقتل علىّ ومعاوية، ولا أفوز أنا بقتل عمرو» فأمر عمرو بضرب عنقه فضرب وصلب.

ولما بلغ ذلك معاوية بن أبى سفيان كتب إلى عمرو:

وقتل وأسباب المنايا كثيرة … منية شيخ من لؤى بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه … وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوتَ وقد بلّ المرادى سيفه … من ابن أبى شيخ الأباطح طالب
ويضربنى بالسيف آخر مثله … فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغى كل يوم وليلة … بمصرك بيضاً كالظباء السوارب

---

١ - سماه المسعودى «زادوية عمرو بن بكر».

د - بعض أخبار عمرو ومعاوية

يظهر أن عمرو بن العاص كان فى خلافة معاوية يختلف كثيراً إلى الشام، فكان الخليفة لا يقطع أمراً دون الاستعانة برأيه والعمل بمشورته(١) وقد عثرنا فى تواريخ الطبرى والمسعودى وأبى المحاسن وغيرها على أخبار عديدة عن عمرو بن العاص رأينا أن نأتى ببعضها علّها تبين ما كان لهذا الرجل من جليل الأعمال وفاضل الصفات، وإن كان التاريخ لم يكشف لنا أعمالاً خاصة قام بها ذلك الأمير مدة ولايته الثانية على مصر كشق الترع وبناء الجسور وإقامة الأبنية وغيرها، ولو طال عمره فى هذه الولاية لما ضن علينا التاريخ بذكر كثير من إصلاحاته، إذ من المعقول أن مدة الثلاث أو الأربع سنوات التى مكثها فى مصر لا تكفى أكبر قائد حربى ومصلح عظيم لإطفاء شعلة هذه الفتن التى كانت ضاربة أطنابها فى البلاد، لانقسام أهلها واختلاف ميولهم نحو معاوية وعلىّ، فكان لكل منهما شيعة وأنصار.

وقد ذكر المسعودى أن عمرو بن العاص دخل يومًا على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان فأخذا فى الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذه؟» فقال معاوية: «أما النساء فلا أرب لى فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجلدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيُّها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب، فما شئ ألذ عندى من شراب

١- ذكر الطبرى أن عمرو بن العاص كان مع معاوية حين تسليم الحسن بن على الأمر إلى معاوية، وحين جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد أن امتنع هذا عن بيعته.

بارد فى يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنىّ وبنى بنىّ يدورون حولى، فما بقى منك يا عمرو؟» فقال: «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته» فالتفت معاوية إلى وردان فقال: «ما بقى منك ياوردان؟» فقال: «صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل وأخطار يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى».

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على مبلغ ميل عمرو لا ستثمار المال، ولا غرو فقد نشأ تاجراً فنما فى نفسه حب الكسب منذ نعومة أظفاره حتى إذا ما وصل إلى مرتبة الأمراء لم يقف به هذا المركز عن مباشرة مهنة التجارة ابتغاء الكسب وتنمية ثروته.

وقد ذكر الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان ولىّ عبد الله بن عمرو ابن العاص على الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة وقال «استعملتَ عبد الله ابن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحيى الأسد، فعزله عنها، واستعمل المغيرة، ولما بلغ عمراً ذلك أراد أن يكيد للمغيرة فدخل على معاوية وقال له «استعملت المغيرة على الكوفة؟» فقال: «نعم» فقال عمرو «أجعلته على الخراج» فقال: «نعم» فقال عمرو: «تستعمل المغيرة على الخراج، فيغتال المال فيذهب فلا تأخذ منه شيئاً، استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك» فعزل المغيرة عن الخراج واستعمله على الصلاة، فلقى المغيرة عمراً فقال: «أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت فى عبد الله» قال: «نعم» فقال عمرو: «هذه بتلك».

ومن أخباره مع معاوية والأنصار مارواه صاحب الأغانى (جـ١٤ ص١٢٢) قال: حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبى سفيان، فخرج إليهم حاجبه فقالوا له «استأذن للأنصار» فدخل عليه وعنده

عمرو بن العاص فاستأذن لهم. فقال له عمرو: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم» فقال الحاجب: «هى كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم، وإلا فهذا اللقب راجع إليهم» فقال له عمرو: «أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو ابن عامر فليدخل» فقال الحاجب، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر فقال له: «باعدتَ جداً» فقال: «أخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل» فخرج فقالها، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الأنصارى وهو يقول:

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا ... نسب نجيب به سوى الأنصار

نسب تخيره الإله لقومنا ... أثقل به نسبًا إلى الكفار

إن الذين ثووا ببدر منكم ... يوم القليب هموا وقود النار

فقال معاوية «لقد كنا أغنياء عن هذا». ولا ندرى إن كان عمرو أراد بهذا المباعدة بين معاوية والأنصار إتماماً لمقاصده السياسية فى إغرائهم بمعاوية، أو هو يريد الحط من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا علىٌ بن أبى طالب أيام الفتنة، ونرجح أنه إنما أراد أن يحط من قدر الأنصار لأنهم أساءوا إلى قريش حين نصروا النبى صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على ميل نفر من المسلمين فى هذا العصر إلى ما كان مألوفًا فى الجاهلية من العصبية.

هـ - وفـــاة عمـــرو

إلى هنا انقضت ولاية عمرو الثانية على مصر بانقضاء أجله، فاغتالت يد المنون رجلاً من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم، كان غرة فى جبين الإسلام. ذاهمة عالية، وإقدام على المكاره فى سبيل الوصول إلى متمناه، اشتهر بتحببه إلى أهل مصر ببذل العدل فيهم فأحبوه وخضعوا له فى ولايتيه الأولى والثانية حتى مات، ففى يوم عيد الفطر سنة ٤٣ للهجرة هبط نجم من النجوم الساطعة، وتقوض ركن من أركان الدين، وانكسفت شمس سعادة مصر، وأفعمت قلوب الأهلين حزناً وكمداً، فبكوا فى فقد عمرو العدل والوفاء والجد والشجاعة والإقدام، فكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة خيم فيه الحزن فى جو البلاد قاصيها ودانيها.

روى ابن عساكر قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو فى ساعة الموت، فولىّ وجهه إلى الحائط وجعل يبكى طويلاً فقال له ابنه «ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا، أما بشرك بكذا؟» فأقبل عمرو بوجهه وقال: «إن أفضل ما يعد علىّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث، قد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحب من أن أتمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة كنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه فقلت: ابسط يدك لأبايعك، فبسط يده، ثم أنى قبضت يدى فقال: (مالك ياعمرو؟) فقلت: أردت أن أشترط. فقال: (تشترط ماذا؟) فقلت: أن تغفر لى ما تقدم. فقال: (أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان

قبله؟) فبايعته، فما كان أحد أجل في عيني من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو سئلت أن أنعته ما طقت، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، فلو مت على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدرى ما حالي فيها» وقال لبنيه: «إن أنا مت فلا تتبعني نائحة. فإذا دفنتموني في قبري فسنوا عليّ التراب سناً[1] فليس جنبي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر، ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجراً، فإذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها. فاني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي» ثم قال لبنيه: «يا بنيّ ما تغنون عني من أمر الله شيئاً» قالوا: «يا أبت إنه الموت ولو كان غيره لو قيناك بأنفسنا» فقال: «أسندوني» ثم قال وقد استقبل القبلة: «اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فأن تعف فأنت أهل للعفو، وإن تعاقب فيما قدّمت يداى، اللهم لا قويّ فأنتصر، ولا برئ فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر. أستغفرك وأتوب إليك، ولكن لا إله إلا الله، فمازال يقولها حتى مات في يوم الفطر من سنة ٤٣ للهجرة[2].

وهذا يدل على أن عمراً كان يعلم أنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخذ الدين وحده غاية لحياته السياسية، وإنما كانت له أهواء وأغراض آثرت فيه وأحس ساعة الموت ندمه فاستغفر منها وتاب.

روى في كتاب (حياة الحيوان الكبرى - باب وعل) أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه «يا أبتاه إنك كنت تقول لنا، ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت به حتى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل فصف لي الموت». فقال: «يا بني، والله كأن السماء قد

---

١ - أي صبوه صباً.

٢ - ابن خلكان (جـ٢ ص٤٠٥)، والعقد الفريد (جـ٢ ص٤)، والمعارف لابن قتيبة (ص٩٦)، والمستطرف في كل فن مستظرف (ص٣٢٩).

أطبقت على الأرض وكأنى أتنفس من سم إبره وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى هامتى» ثم قال:

ليتنى كنتُ قبل ما قد بدا لى ... فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا[1]

وقد قال فيه الشاعر:

ألم تر أن الدهر أخنت صروفه ... على عمرو السهمى تجبى له مصر

فلم يغن عنه حزمه واحتياله ... ولا جمعه لما أتيح له الدهر

وأمسى مقيمًا بالعراء وضللت ... مكايده عنه وأموله الدثر

وقد خلف عمرو على ماذكره المسعوى ثلاثمائة وخمسة وعشرين ديناراً، ومن الورق (الفضة) ألفى ألف درهم (٢,٠٠٠,٠٠٠) وضيعته المعروفة بالرهط وقيمتها عشرة آلاف درهم.

وروى ابن عساكر أنه كان يقيم كروم الرهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم عدا الدور العديدة التى كان يمتلكها فى مصر ودمشق. وقال صاحب كتاب «حياة الحيوان»: وخلّف عمرو من المال سبعين بهاراً دنانير (والبهار جلد ثور يسع أردبين)، وكان عند حلول أجله أخرجه وقال: من يأخذه بما فيه؟ فأبى ولداه أخذه، فبلغ معاوية فقال: «نحن أحق بهذه الأموال التى جمعها أبوك لدفع العدو، فأخذها وأدخلها فى بيت المال».

وأما نحن فنجزم بأن هذا القول غير صحيح، إذ يلزم أن يكون عنده مائة وأربعون أردباً من الذهب تأخذ فراغاً يزيد على عشرين متراً مكعبًا، وهى تبلغ أكثر من أربعين مليوناً من الجنيهات أو ثمانين إلى مائة مليون دينار. ومحال أن يجمع عمرو بن العاص هذا المبلغ من مصر فى أقل من عشرين سنة إلى أربعين باعتبار أنها فى يده يأخذ مازاد عن عمارتها وأعطيات جندها.

---

١ – يقول بطلر(ص٤٩٤) إن ابن عباس هو الذى طلب من عمرو أن يصف له الموت، وبعيد أن ابن عباس كان فى مصر فى ذلك الوقت.

و - قبـــر عمـــرو

اتفق أبو المحاسن وابن قتيبة وابن الزيات في كتابه «الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ص٨٥) والدميرى في كتابه «حياة الحيوان - باب وعل» على أن عمرو بن العاص دفن بسفح المقطم في ناحية الفخ وكان طريق الناس إلى الحجاز.

وقد اختلف في قبره فقال صاحب كتاب (المزارات المصرية) إن قبر عمرو بن العاص غربى قبل الإمام الشافعى والموضع الذى به يسمى مقابر قريش. وقال غيره: هو غربى الخندق وشرقى المشهد(١).

وقيل أيضًا: هو القبر الكبير المشار إليه بقبر القاضى قيس، والمستحب لمن زار هذا المكان أن يحضر قلبه ويخلص نيته فإنه مكان مبارك. وإذا صح ما ذكره صاحب (كتاب المزارات المصرية) أمكن تعيين قبر عمرو بالضبط، وفى هذا المكان قبر يعرف الآن بقبر «سيدنا عمرو بن العاص».

على أننا نرى أن موضع قبر عمرو لابد أن يكون قد لعبت به يد النسيان منذ قرون طويلة، فظل التاريخ فى سكون تام، بحيث يصعب كشف اللثام عن حقيقة هذا الموضوع لاقتلاع كثير من أحجار المقطم، فلم يعد لموضعه أثر تقريباً، ولا ننسى قول عمرو حين حضرته الوفاة «وسنوا علىّ التراب سناً، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً، مما يدل على أن قبر عمرو لم يعد له أثر تقريبًا، أضف إلى ذلك ما ذكره بطلر (ص ٤٩٤) أن مدينة الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص قد

---

١ - بنى على حافته الشرقية قبر الإمام الشافعى، والمشهد هو مشهد السيدة أمنة أبنة موسى الكاظم.

اندثر معظم أبنيتها تحت الأرض، فلم يعد يظهر منها إلا القليل من المبانى كجامع عمرو الذى يدل على موضع بنائه الأصلى، وبقربه قصر الشمع وغيره من الأبنية التى يرجع عهد بنائها إلى الروم.

على أن الاهتداء إلى بعض أسوار مدينة الفسطاط التى ظهر بعضها بالحفر والتنقيب. لا سيما الباب الذى خرج منه المقوقس لمقابلة عمرو مما يزيد أملنا فى العثور على الموضع الذى دفن فيه عمرو بن العاص لكى نجدد بناء هذا القبر بما يليق بمقام عمرو، ونستأنس بقبره فنذكر تاريخ حياته وما قام به من الأعمال الجليلة.

وقد روى ابن الزيات أن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهنى فى قبر واحد، وقيل إنهم ثلاثة فى قبر واحد، وهم عقبة وعمرو وأبو بصرة الغفارى.

{ الخاتمـــــة }

إلى هنا انتهى بنا البحث والتنقيب بعد طول الجهد ومواصلة العمل فى حياة عمرو بن العاص رضى الله عنه؛ ذلك العربى الصميم والقائد العظيم والسياسى المحنك، ونرجو أن يكون القارئ قد ألم بشئ كثير من مآثر هذا الرجل، ووقف على أدوار حياته وما قام به من الأعمال الجلىّ والمآثر العظمى.

هنالك صلة كبيرة بين عظماء الرجال وبين الظروف التى ينشأون عليها، ويشبون فى أحضانها: فمن هؤلاء من يهيء الظروف، ومنهم من تلدة هذه الظروف، فتظهر مواهبهم للعالم جلية ناصعة. تلك المواهب التى تكلل التاريخ، وذلك من فتح الفتوح وتمصير الأمصار او العمل على تحرير بلادهم، وغير ذلك مما يبقى أثراً خالداً على كر الأيام ومر الأعوام، فمثلاً «نابليون» فهو وليد الثورة الفرنساوية غيرّ الحالة السياسية والاجتماعية فى فرنسا وفى غيرها، وقلب العالم رأساً على عقب.

أما عمرو بن العاص فهو وإن كان قد ولدته الظروف كذلك وأظهرته، فهو وليد الإسلام الذى كونه قائداً محنكاً، وسياسيًا قديراً، وواليًا عادلاً، وداهية من أكبر دهاة العالم الذين دوخوا ممالكه، وأقالوا دوله، فلولا الإسلام ما ظهرت مواهب هذا الرجل وما أوتيه من جليل الصفات إلى هذا الحد، فبعد أن كانت تلك المواهب محصورة فى دائرة ضيقة أصبح وقد اتسعت أمامه دائرة العمل فتجلت سجاياه ومواهبه فى ميدان فتوحه الواسعة للبلاد التى غزاها، وفى كفاءته لإدارة شؤونها، والعمل على ترقيتها وترقية أهلها. إلا أنه امتاز عن هؤلاء العظماء بأنه قد ولد بعض الظروف، فهو الذى سعى لفتح مصر ففتحها وطرد الروم منها، وكان السبب فى نشر الإسلام فى أرجائها تدريجاً، فنبه ذكره، وسما قدره، وعظم شأنه، وكتب فى سمائها أكبر مثل يسطره له التاريخ إلى أبد الدهر.

وقد امتاز عمرو بين قومه بمزايا عديدة ظهر أثرها فى أعماله ظهوراً بيناً، وتجلت صورتها للناس كلما ذكر اسمه، فكانت ذات أثر كبير فى أحوال الأمة الإسلامية: الدينية والسياسية والحربية والاجتماعية. وبتحليل نفس عمرو يعرف المرء الصلة بين مواهبه وبين هذه الأحوال - تلك النفس التى حللناها فيما مررنا به من استقصاء أخباره، وتتبع آثاره، وذكر أقواله المأثورة وحكمة التالدة. ولا ريب فى أن اسم عمرو بن العاص قد ملأ كل مكان استغنى عن تعريفه بنسب أو حسب، وأصبح معروفاً لدى جميع طبقات العالم الإسلامى، ولا يجهل هذا الاسم أحد لانفراده بتلك المأثرة العظيمة - مأثرة فتح مصر وانتزاعها من قبضة الروم - مما أضحى له موضع أعجب العالم جميعاً. لا سيما مؤرخى الفرنجة الذين اشتغلوا بتاريخ الفتوح الإسلامية، ولا نبالغ إذا قلنا إن عمرو بن العاص كان نادرة فى عصره، وحسنة من حسنات الدهر، وهادياً من هداة الإسلام، وليثاً من ليوث العرب الذين أسسوا عظمة بلادهم، فنهضوا بها إلى أوج السعادة.

وقد رأيت مكانة عمرو من الشرف فى قريش فى الجاهلية واحترام العرب له، فلما أسلم حفظ له النبى صلى الله عليه وسلم شرف تلك المكانة. فتأدب عمرو بآدابه عليه السلام، فسمح بنفسه، وأخلص للرسول الخدمة، ولم تفت النبى صلى الله عليه وسلم شجاعة عمرو وإقدامه، فولاه على جند المسلمين فى غزوة ذات السلاسل، ولا غرو إذا كان النبى عليه السلام مصيباً فى اعتقاده. فقد كان عمرو موفقاً للنصر فى جميع المواقع التى اشترك فيها، فانتصر فى غزوة ذات السلاسل وغزوة سواع، وفى وقائعه مع أهل الردة، وفى اشتراكه فى حروب الشام وفلسطين، وفى مصر وبلاد المغرب، وهذا ولا ريب من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب. وحسبك دليلاً على شجاعته مخاطبته جيفراً وعباداً ابنى الجلُندى وكذا مخاطبته قرة بن هبيرة،،

وقذفه بنفسه فى معامع الوقائع غير هياب ولا وجل، وكيف كان يعرض نفسه للأخطار فى كثير من المواقع التى قاتل فيها، وكيف كان يحمل اللواء ويقاتل بنفسه، وكيف سبق خالد بن الوليد إلى أخذ الراية فى موقعة اليرموك. تلك الموقعة التى جنى المسلمون ثمار الانتصار فيها، لاتباعهم مشورته والعمل برأيه باجتماع وحدات المسلمين فى مكان واحد، ليكونوا قوة واحدة يدفعون بها العدو وينتصرون عليه، وقد كان من وراء رأيه السديد انتصار العرب فى هذه الموقعة وفى غيرها من المواقع حتى كان النصر.

أما حبه للجهاد فقد كان يفوق الوصف - ذلك الحب الذى استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، حتى كان يتسابق إليه غير مبال بجموع أعدائه مهما كثرت، وقوة جنده مهما قلت، وأن محاولته فتح مصر بأربعة الاف مقاتل أو أقل لأقوى دليل وأسطع برهان على صحة ما نقول.

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين، وقد قرأت صحف دهائه عند النجاشى حين أوقع بعمارة بن الوليد، وانظر كيف أوقع التفريق فى صفوف علىّ فى موقعة صفين، وقد أشرف جيش علىّ على الانتصار، وكيف تغلب بما أوتيه من ضروب الحيل وفنون الدهاء على أبى موسى عند عقد التحكيم وغير ذلك من أخباره فى الدهاء التى يقف أمامها المرء حائراً. لهذا العقل البشرى والذكاء الأنسانى الذى ذلّل أمثال تلك الصعوبات، وفك أعقد العقد حتى هدت حيله عزائم الجحافل فتبددت أمال الرجال وأقطاب السياسة. ومما يدل على دهائه أيضًا ما روى عنه أنه عند استيلائه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده متشبهاً بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين، فتمادى به السير راجلاً حتى لحق بطرف الفسطاط فرأى جماعة قد التأبت على سوء منه فقال لهم «إعملوا بى كل ما تؤثرون من السوء ولا تردونى إلى يد

الأمير فأنى هربت منه» فقال بعضهم ردوه فإنه يقتله يكون لكم بذلك عارفة عند الأمير» فساقوه إلى دار الإمارة فأخذ يتضور ويتأبى فى سياقته حتى قرب من الدار، فقام إليه الشرط فقال: «لا يفوتنكم منهم أحد، فجمعوا له عن آخرهم».

وكان عمرو من شيوخ قريش فى الجاهلية، فلما أسلم أثر الإسلام فى نفسه فاقتلع منها كثيراً من رذائل الجاهلية، فألبست تلك النفس ثوب الفضيلة، وتجلت عن حسن خلقه، مما كان له نصيب وافر فى تقدم الإسلام ونصرته، فأصبحت نزاعة إلى مكارم الأخلاق فتجلى فيها الحلم وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق وتكفيره عن خطئه بأجلى مظاهرها، يدلك على ذلك ما رواه ابن عساكر عن الشعبى عن قبيصة قال: «صحبتُ عمرو بن العاص فما رأيت أبين طريقاً، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه» وما رواه أبو المحاسن أنه تصادف أن وقع بين عمرو والمغيرة بن شعبة كلام فاستشاط عمرو غضباً وقال له: «يا آل هصيص أتسبنى؟» فقال له عبد الله ابنه «إنا لله. دعوتَ بدعوة القبائل وقد نهى عنها!!» فندم عمرو على ما فرط منه وكفر عن خطئه بأن أعتق ثلاثين رقبة. وقد كان تقياً فخشى عقاب ربه، وخاف هول اليوم الآخر فتمنى لو سلبه الله ماله أو أثكله ولده أو نزع منه سلطانه رجاء عدم تعذيبه بالنار، رُوى عن ربيعة عن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل وهو يبكى ويقول: «اللهم آتيت عمراً مالاً فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمراً أولاداً فأن كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده، وإنك آتيت عمراً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه، ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه».

ونعتقد أن هذا كان فى آخر أيامه حين مرت به ساعة حاسب فيها نفسه على ما أتى فى أيام الفتنة بعد أن سكنت النفس، وثاب إليها الرشد

وعلم أن الله تعالى سائله عما احتقب فى دنياه، فعاد على نفسه باللوم، وتمنى الخروج من كل ما أوتى، إذا كان ذلك كفارة عما غمس يده فيه، وهو ندم ظاهر ترجى معه المغفرة لمن يقبل المثوبة من عباده، ويعفو عن السيئات إنه هو التواب الرحيم.

وكان عمرو لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، أراد معاوية أن يختبر بديهته يومًا فقال عمرو «أخرج من عندك» فأخرجهم معاوية فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين أسارك» فأدنى معاوية رأسه منه، فقال عمرو: «من معنا فى البيت حتى أسارك؟».

أما سياسة عمرو فلم تخف على العرب فى جاهليتهم قدرته فيها، فندبوه ليكون رسولهم إلى النجاشى، وندبه النبى صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ليكون رسوله لدى ملك عمان، ولا يعزب عن بالنا حسن سياسته فى مصر، وكيف ألف بين قلوب المصريين واستمالهم إليه وسار معهم على نهج العدل، وسعى فى ترفيه حالهم وترقية شؤونهم ورعى معهم حرمة العهود والمواثيق، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة - تلك الموقعة التى أشرف فيها جيش علىّ على الانتصار فلم يثن ذلك من عزيمة عمرو، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند علىّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم، وقد كان من وراء تلك السياسة ما فصلناه.

هذه هى نفس عمرو وقد حللناها تحليلاً، ونحن نرجو أن نكون قد وفقنا إلى إثبات أن عمراً قد كان أحسن مثال للعربى فى هذا العصر الذى ظهر فى الإسلام وانتشر وامتدت فتوحه، فكان ممن أعان على ظهوره وانتصاره، وكان من غير شك أحد المؤسسين لدولة العرب التى لن يزال اسمه مقروناً بها.

فرحم الله عمرو بن العاص رضى الله عنه، ورحم من ترحّم عليه.

تم بحمد الله

{ مصــادر الرســالــة }

تنقسم أهم المصادر التي رجعنا إليها في رسالتنا إلى قسمين: عربية وأفرنجية، ومن المصادر الأفرنجية: الإنجليزي والفرنسي.

(أ) المصادر العربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير:	الكامل فى التاريخ. طبع مصر سنة ١٣٠١هـ.
ابن الزيات:	الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة.
ابن اسحق:	فتوح مصر وأعمالها. مصر سنة ١٢٧٥هـ.
ابن برهان الدين:	السيرة الحلبية. ثلاثة أجزاء.
ابن حجر:	الإصابة فى تمييز الصحابة. مصر سنة ١٢٧٥هـ.
ابن خلدون:	العبر وديوان المبتدأ والخبر. بولاق سنة ١٢٨٤هـ.
ابن خلكان:	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. مصر سنة ١٣١٠هـ.
ابن دقماق:	الانتصار لواسطة عقد الأمصار. القاهرة سنة١٨٩٣م.
ابن طباطبا:	الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية. مصر سنة ١٣١٧هـ.
ابن عبد الحكم:	فتوح مصر. طبع بمجلس المعارف الفرنساوى.
ابن عبد ربه:	العقد الفريد. ٣ أجزاء.
ابن قتيبة:	(أ) كتاب المعارف. (ب) الإمامة والسياسة.
ابن هشام:	سيرة ابن هشام. مصر سنة ١٣٢٩هـ.
أبو الفرَج:	مختصر تاريخ الدول. بيروت.
أبو المحاسن:	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة: ليدن سنة١٨٥١م.
البلاذرى:	فتوح البلدان. القاهرة سنة ١٣١٩هـ.
البغدادى:	سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب. بغداد سنة ١٢٨٠هـ.

الأصفهانى:	كتاب الأغانى. مصر سنة ١٣٢٣هـ.
الألوسى:	بلوغ الأرب فى أحوال العرب. بغداد سنة ١٣١٤هـ.
الخضرى بك:	تاريخ الأمم الإسلامية.
رفيق العظم بك:	أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة. مصر سنة ١٢٣١هـ.
السيوطى:	حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة. المطبعة الشرقية.
الشهرستانى:	الملل والنحل. مصر سنة ١٣١٧هـ.
الطبرى:	الأمم والملوك. المطبعة الحسينية المصرية.
عبد اللطيف البغدادى:	الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر.
على مبارك باشا:	الخطط التوفيقية. بولاق سنة ١٣٠٦هـ.
القلقشندى:	أبو العباس أحمد. صبح الأعشى. المطبعة الأميرية.
القلقشندى:	محمد بن عبد الله. نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب. خط يد.
المبرد:	الكامل فى اللغة. طبع لا يبسك.
محمود فهمى:	مصر فى عهد الرومان. مصر سنة ١٩١٦م.
المسعودى:	مروج الذهب ومعادن الجوهر. بولاق سنة ١٢٨٣هـ.
المقريزى:	المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار. مصر سنة ١٢٧٠هـ.
وستنفلد:	تاريخ مكة. لا يبسك سنة ١٨٦١م.
ياقوت:	معجم البلدان. مصر سنة ١٣٢٣هـ.
الواقدى:	فتوح الشام. مصر سنة ١٣٠٢هـ.
اليعقوبى:	تاريخ اليعقوبى. ليدن سنة ١٨٨٣م.

(ب) المصادر الافرنجية

اسم المؤلف	اسم الكتـــــاب
Ameer Ali, Sayed:	A Short History of the Saracens, London, 1891.
Amelineau:	a) Fragements Coptes, Journal Asiatique, 1888.
	b) Geography de l' Egypte a l' Epoque Copte, paris, 1893.
Butler, Alfred J.:	a) The Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902.
	b) Babylon of Egypt: Oxford, 1914.
Bary, J. B.:	History of the Later Roman Empire, London, 1899.
Caussin de Perceval, A. P.:	Essai l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'epoque de Mohamet.
Gibbon, Elwarl:	The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.
Huart, C. L:	Histoire des Arabes. Paris, 1913.
Irving, Washington:	A History of the Lives of the Successors of Mahomet, London, 1912.
Lane-poole, Stanley:	A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
Le Bon, Justave:	La Civilisation des Arabes, paris, 1884.
Marce, M. J. J:	Egypte, Depuis la Conquele des Arabes, Jusqu' a la Dominion Francaise, paris, 1848.

اسم المؤلف	اسم الكتـــاب ،
Milne, J. Graflon:	A History of Egypt Under Roman Rule, London, 1913.
Muir, Sir William Temple:	The Caliphate; Its Rise, Decline and Fall, Oxford, 1902.
Quatremere, E.:	Journal Asiatique, 1850.
Sc lillot, L. B.:	Histoire Generale des Arabes, paris, 1877.
Sharpe, Samuel:	a) Chronology and Geography of Ancient. Ejypt, London 1838. b) A History of Egypt Under the Ptolemies, London, 1849.

هذه السلسلة تضم :

مكتبة مدبولي MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت :٥٧٥٦٤٢١ 6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421